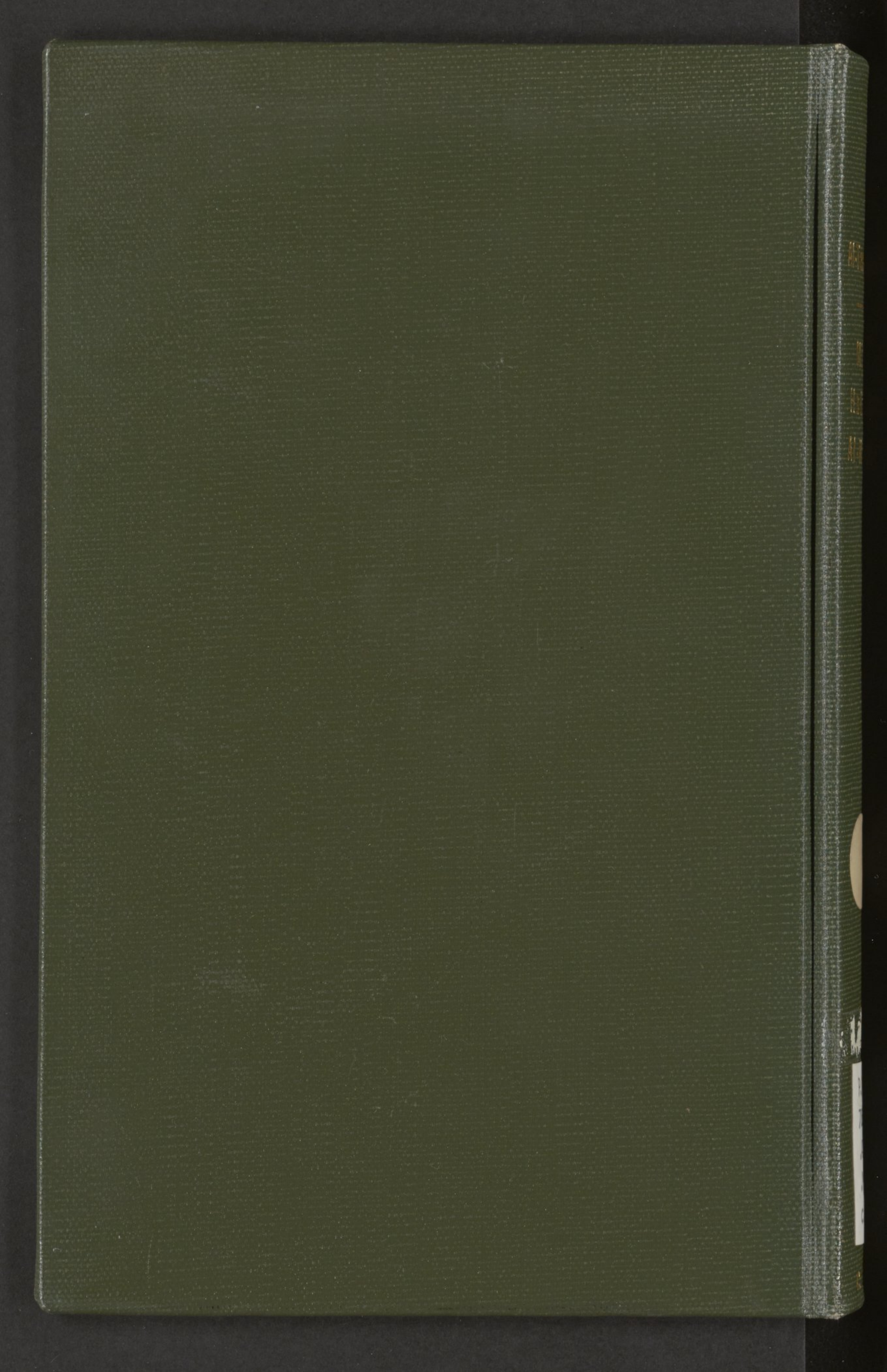
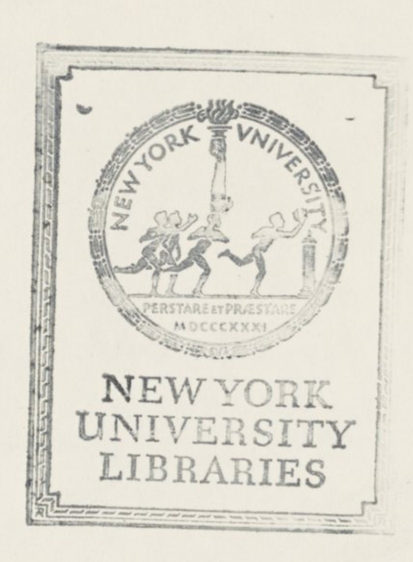
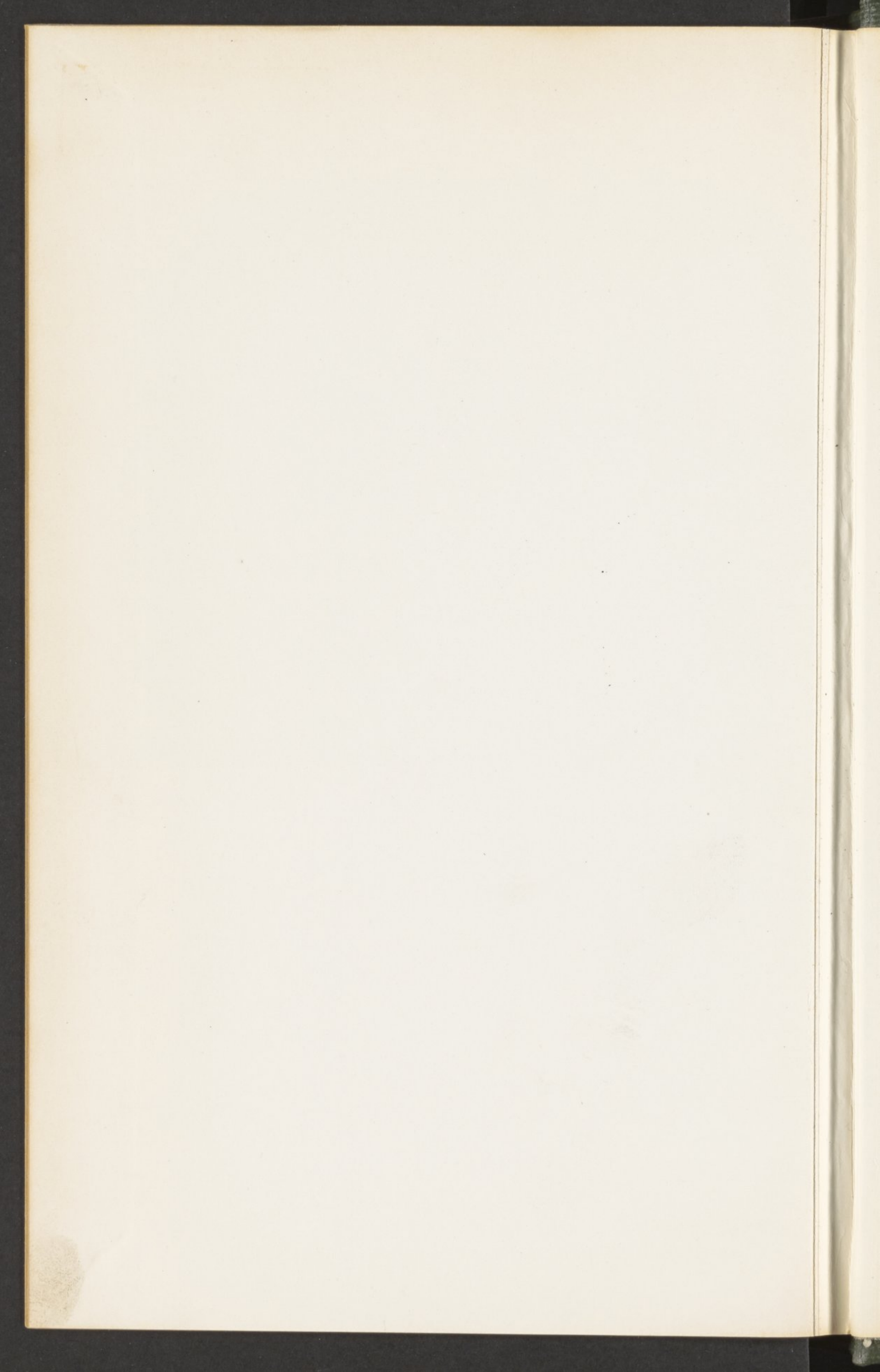
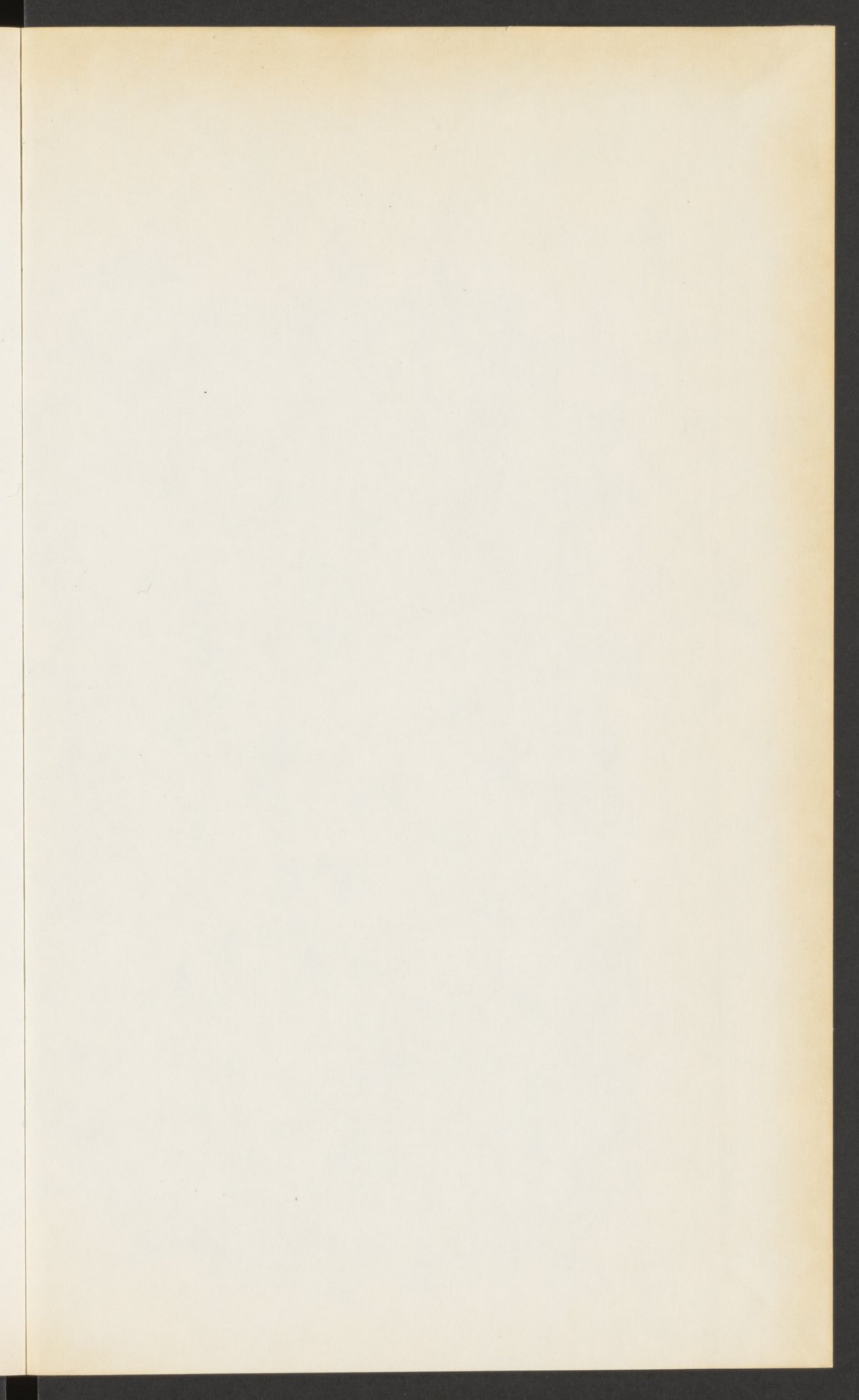
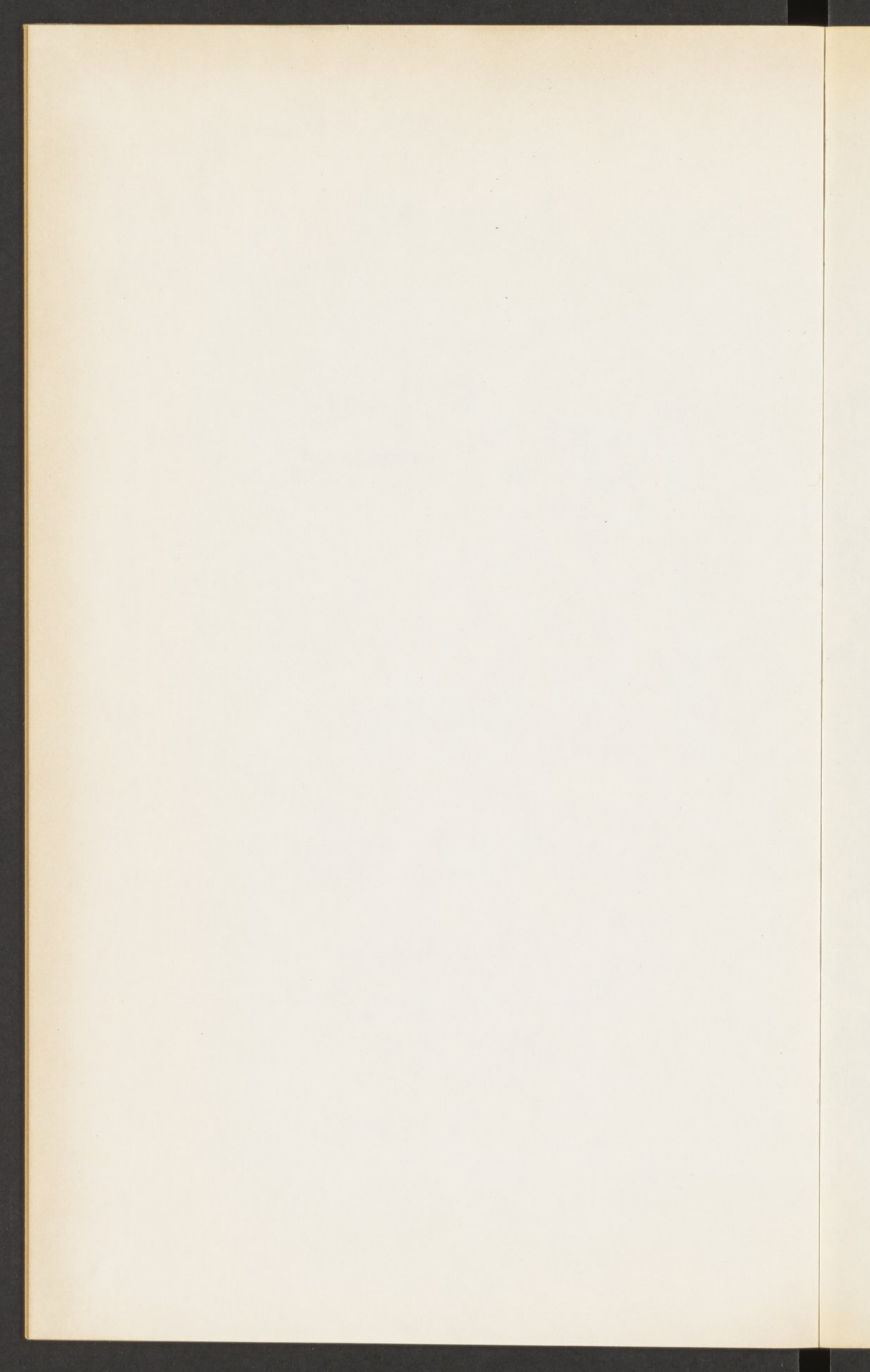


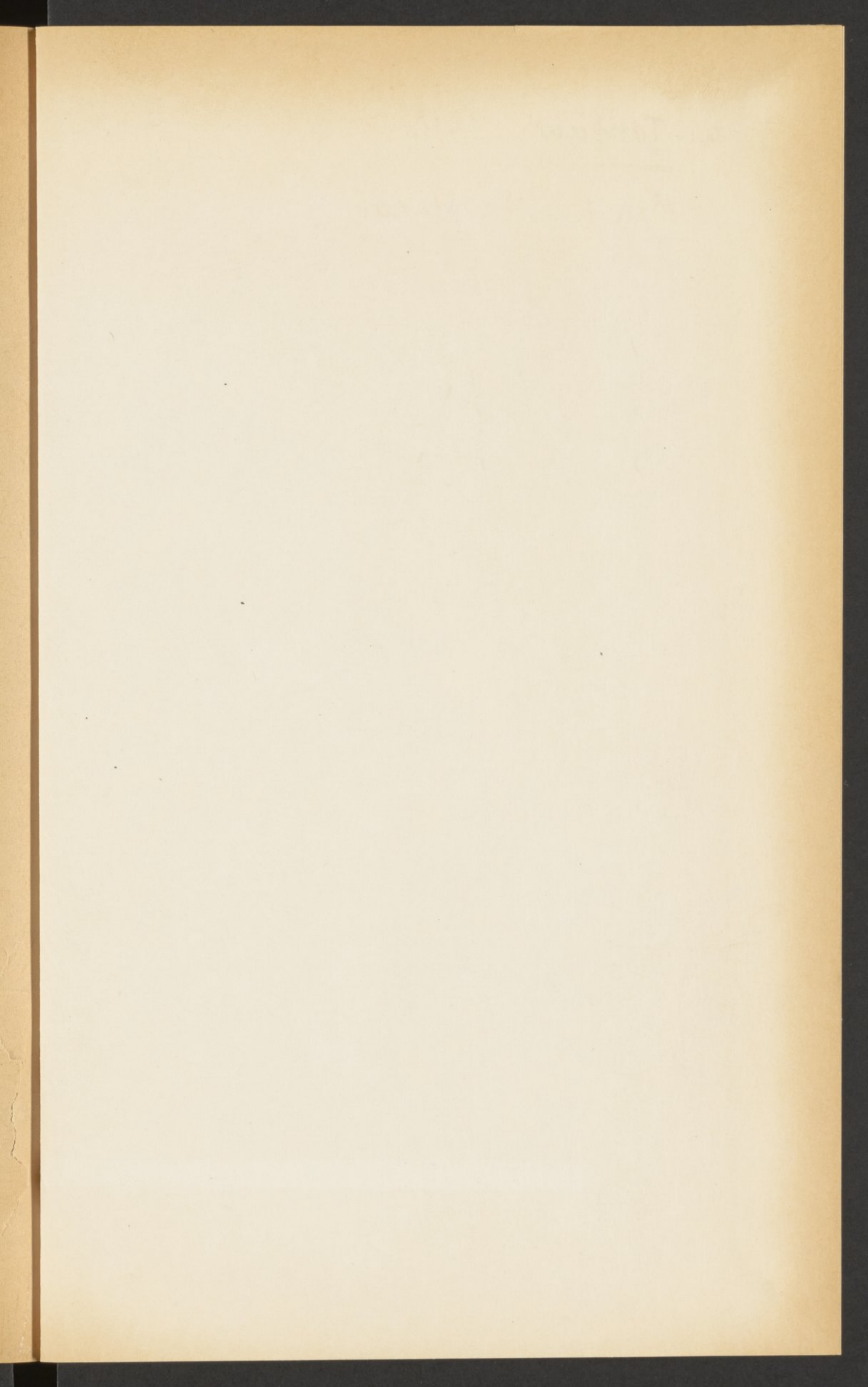


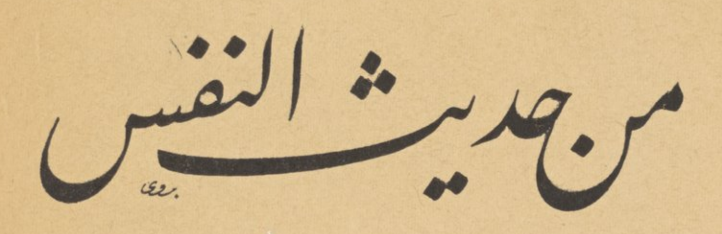












علي الطنطاوي

نشر وتوزيع

مكتبة دار الفتح بدمشق

شارع سعد الله الجابري

ص.ب ٤٧٥

الطبعة الاولى
١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠ م

مطابع دار المنار بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا

من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له

اللهم اهدنا الصراط المستقيم وارزقنا الإخلاص في العمل

والثبات عليه وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه

المقدمة

أرجو من القارىء ألاّ ينظر في فصل من فصول هذا الكتاب ، حتى يرى تاريخ كتابته . فليس كل ما فيه لـ (علي الطنطاوي) الذي يكتب هذه المقدمة ، بل ان كل فصل فيه لـ (علي الطنطاوي) الذي كان فـي ذلك التاريخ .

وليس المؤلف اذن واحداً ، ولكن جماعة في واحد ، وكذلك الشأن في كل انسان .

ولكل من هؤلاء (المؤلفين ...) آراؤه وعواطفه ، وأنا أحسُّ اذ أعرض فصول هذا الكتاب قبل دفعها الى المطبعة ، أنّ كثيراً من هـذه الآراء ، وهذه العواطف ، مما أنكره الآن وآباه [1] .

ولا عجب أن يبدل الانسان في السنة الواحدة رأياً برأي ، وعاطفة بعاطفة ، فكيف لا تتبـدل آرائي وعواطفي ، وأنـا أكتب في الصحف والمجلات منذ اثنين وثلاثين سنة بلا انقطاع ؟.

على أنّه لديّ أشياء ما بدّلتها قط ، ولن أبدلها ان شاء الله ، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائماً ، ومجّدت العربية

---

(١) ولكني تركت كل شيء على حاله ، ما بدلت فيه ولا عدلت .

وسلائقها وأمجادها وبيانها دائماً ، وكنت مع الاسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائماً .

ولقد بلغ ما طبع من كلامي أكثر من عشرة آلاف صفحة ، لو نخلتها نخلاً ، ما وجدت فيها بحمد الله سطراً فيه تزلف للظالمين ، ولا سطراً فيه ازراء على العربية ، ولا سطراً فيه خروج على الاسلام . وشيء آخر هو أني ما كنت أبداً في (حزب) ، ولا جماعة ولا هيئة ، وما كان قلمي لهيئة ولا جماعة ولا حزب .

ولقد كنت أكتب في الصحف أيام الفرنسيين ، فكنت أقول ما لا يجرؤ على أكثر منه قائل من الوطنيين . وليست هذه دعوى بلا دليل ، بل هي حقيقة دليلها موجود في صحف تلك الأيـام ، في فتى العرب والمقتبس والقبس ، وألف باء والأيام ، واليوم والنصر ، والناقد والجزيرة ، ولقد كنت أدعو الى وحدة أقطار العرب يوم كان في دمشق دولة ، وفي حلب دولة ، وفي السويداء دولة ، وفي اللاذقية دولة ، وكان لكل دولة حدود، ولها حكومة ولها رئيس !

* * *

وبعد فلقد كنت أريد أن أجعل هذه المقدمة ، ترجمة لي ، على عادة المصنفين قديماً وحديثاً في الترجمة لأنفسهم ، لا سيما وموضوع هـذا الكتـاب (أنـا) ، ثم آثرت أن أجعل ذلك موضوع كتاب أكتبه قريباً ان وفق الله ، عنوانه (ذكريات نصف قرن) ، ليكون مجال القول فيـه أوسع ، ويكون أمتع وأنفع .

وأسأل الله أن يوفقني اليه ، وأن يقدرني عليه ، والاّ يحرمني حظاً من الثواب عليه وعلى كل ما أكتب ، وأن يجعله من العلم النافع .

والثواب هو وحده الذي يبقى ، على حين يفنى الاعجاب ، وتذهب الأموال ، ويعود الى التراب كل ما خرج من التراب .

ولدعوة واحدة لي ، بعد موتي ، من قارىء حاضر القلب مع الله ، أجدى عليّ من مئة مقالة في رثائي ، ومئة حفلة في تأبيني ، لأن هذه الدعوة لي أنا ، والمقالات والحفلات لكتابها وخطبائها ، وليس للميت فيها شيء .

واستغفر الله وأتوب اليه .

دمشق : ٢١ جمادى الآخرة ١٣٧٩ هـ
٢٢ كانون الاول ١٩٥٩ م

علي الطنطاوي
مستشار محكمة النقض

* * *

أنا

نشرت سنة ١٩٣٧ م

- ١ -

... قال لي أهلي : لقد جئت الى هذه الدنيا عارياً بلا أسنان ، لا تحسن النطق ، ولا تعرف شيئاً ... فضحكت ولم أصدق ، فأعادوا ذلك عليّ ، وألقوه كأنه قضية مسلمة وأمر واضح لا يحتمل الشك ، وعجبوا مني حين أكذّبه وأرده ... ولكني بقيت على رأيي الأول ، لم أستطع مطلقاً أن أصدق ما يقولون ، لأني أعرف بنفسي منهم ، ولأني أذكر ماضيّ كله : أذكر أنني فتحت عيني ذات يوم فجأة ونظرت ... فوجدت نفسي ، ورأيت أنّ لي أسناناً وعليّ ثياباً ، وأنّ بي قدرة على المشي والنطق ، ورأيتني شخصاً مستقلاً عن أبي وأمي وسائر أهلي ، أحب أشياء لا يحبها أحد منهم ، وأكره أشياء لا يكرهونها ، ولا يميزني منهم الا أني كالطبعة المختصرة من الكتاب ، فيها الأبواب كلها والفصول بيد أنها موجزة و ... بالقطع الصغير ...

أفيعقل أن أكون موجوداً قبل ذلك اليوم ، وأنا لا أعرف نفسي ؟ مستحيل !

واستقر في ذهني من يومئذ ، أني ولدت وأنا في الرابعة من عمري!!

- ٢ -

وصرت أرى هذا الطفل دائماً ، أبصر صورته في المرآة وأسمع صوته بأذني ، وأصغي الى حديث أمي عنه بشغف وسرور ، فكنت أشعر

بميل غريب اليه ، حتى أني لأعترف الآن بأنه كان أحب اليّ من أمي ، التي لم أكن أعدل بها أحداً ولا أقبل كنوز الارض بدلا من امتصاص ثديها والنوم على صدرها ...

ذلك الطفل الباسم ، ذو العينين السوداوين،والشعر...ياللأسف! اني لا أستطيع أن أتخيل شعره ، لقد محيت صورته من ذاكرتي ، لقد اختفى من الدنيا منذ ربع قرن ، لقد ذهب الى حيث لا أدري ؟ فهل كنت أنا ذلك الطفل ؟ هل تجيء يده الصغيرة الغضة في يدي الخشنة التي أخط بها هذا المقال ؟ فأين ذهب اذن ؟ ومن أين جئت أنا ؟... انني لست ذلك الطفل ولست غيره ... فكيف يعقل هذا ؟

هذا يحيرني دائماً ، ولا أعرف له حلا ، بل انّ مجرد التفكير فيه يدفعني الى الجنون ...

- ٣ -

ونظرت يوماً من الأيام ، فاذا في مكان ذلك الطفل اللاهي اللاعب ، العابث بكل شيء ، الذي يحطم كل ما يصل اليه ، ويقبض على الجمرة المشتعلة بيده كما يقبض على البرتقالة الحمراء ، ويعبث بلحية القاضي اذا هو بلغها ، كما يعبث بشعر الهرة... اذا في مكانه تلميذ يقرأ مكرهاً، ويكتب مضطراً ، ويحمل همّ المدرسة التي يذهب اليها كل يوم كالذي يساق الى الموت ، لا يعرف لوجوده فيها معنى ، ولا يدري فيم يدع عطف أمه ، والأنس باخوته ، ولم يترك بيته وما فيه من الدفء في الشتاء، والظل في الصيف ، ليذهب الى هذه الدار التي يحشد فيها الأطفال الأبرياء المساكين ، لتحشى أدمغتهم بمسائل لايدركون معناها ، وشروح لا يعرفون مغزاها ، وتنال من أبشارهم وظهورهم عصا المعلم الغليظة ، وتقذى عيونهم برؤية طلعته البغيضة ، لا المعلم يبسم لهم ، ويدعوهم الى حبه ، ولا أهلوهم يستمعون شكواهم وينصفونهم ... لقد كان في هذه المدرسة كالمحكوم عليه بالسجن ظلماً ...

يا لهذا التلميذ البائس الذي لم يكد يفتح عينيه على الدنيـا حتى أبصر الشقاء والألم . لقد مات كمداً ، ومضى مسرعاً في طريق الفناء ... مسكين ... انه لم يكن الا" أنا ، أنا الذي ولدت ومت مائة مرة ، حتى صرت الآن ... (أنا) .

- ٤ -

وكان يوم آخر ، فاذا (الفلم) ينكشف هذه المرة عن منظر جديد : اختفى التلميذ الجميل ، ذو السراويل القصيرة ، والقميص الأحمـر ، والحقيبة الزرقاء الصغيرة ، وذهب بجسمه ونفسه وميوله وأفكاره ، وظهر الشاب الحليق الوجه ، ذو (الربطة) الطويلة ، والحقيبة السوداء الواسعة ... ظهر في الثانوية طالباً متحمساً ، كأنما ركبت أعصابه من الديناميت ، وصنع فمه على مثال فوهات الرشّاشات ، فلا يكاد يقع في المدرسة حادث ، أو تقوم في البلد ضجة ، الا انفجر الديناميت وانطلق الرشاش ، وقام في الطلاب خطيباً ثائراً مثيراً ، فحطموا الباب وخرجوا ... كان ينتقم بهياجه وثورته لذلك التلميذ الهـادىء الحيي" المظلوم ... ولكن الامتحان لم يلبث أن كشّر له عن أنيابه وجاء ينتقم منه ...

هذه هي البكالوريا ، فتهيأ لها ، ان مستقبلك معلق عليها ... ولم يكن قد فكر في المستقبل ، أو حسب له حساباً فلمـا سمع به ، وقف وتردد وكبح من جماح نفسه ... يجب أن يضمن المستقبل ، ليصـل الى آماله . آماله الكبار التي كانت تملأ نفسه ولا يشك في بلوغها ... وكان قد بدأ ينشر في جرائد البلد فهو يجب أن يكون كاتباً كبيراً منتجاً يخدم بقلمه وطنه ، ويدافع به عن الحق والفضيلة ، ويقاتل به خصومها وأعداءها ويساهم في تحرير وطنه ، ويكون له في (الاصلاح الشعبي) أثر يذكر . فليسع اذن لنيل الشهادة ، فانها تبلغه كل أمـل ، وتوصله الى أبعد غاية . ان الدنيا كلها ترتقب نجاحـه في (البكالوريا) . فاذا

نجح فتحت له الأرض كنوزها ، وحمله الناس على أعناقهم الى سدة المجد ، وقاموا بين يديه قيام الخدم بين أيدي الملوك ..

تلك كانت أحلام الصبا ... فيا رحمة الله على عهد الصبا !

- ٥ -

حرم الشاب على نفسه كل متعة من متع الدنيا ، فلا نزهة ولا راحة، ولاحظّ له في النوم العميق ، ولا الطعام الهنيء ولا شغل الا شغل المدرسة ، حبس نفسه بين كتبه ودفاتره يقرأ آناء الليل وأطراف النهار ، ينتقل من هذيان الأدباء الى طلسمات الرياضيين والعلماء ، وحساب الجيب والمماس ، الى شعوذات الطبيعيين وأصحاب الكيمياء ، ودرس الملح والحامض والضياء والكهرباء ، الى خرافات الفلكيين وجغرافية السماء ، يدسّ هذا الهراء كله في دماغه ليصبه يوم الامتحان في ورقة الفحص ، ثم يلقيه في مكانه ، ويخرج من المدرسة فارغ الرأس كما دخلها أول مرة ...

كان يخشى أن يثأر منه المدرسون الذين جرعهم الصاب وسقاهم الحنظل باعتراضاته ومناقشاته وثوراته فيسقطوه في الامتحان ، فجد كل الجد ، ولم يدع في كتب المدرسة حاشية الا حشاها في رأسه ، ولا تعليقة الا علقها في ذاكرته ، ثم دخل الامتحان بعقل من سطوح وأجسام ، وخطوط وأرقام ، وخرافات وأوهام ، فنجح أعظم نجاح ...

وهل ينجح في الامتحان الا من حفظ ولم يفهم ؟ وهل تدل هذه الامتحانات الا على قوة الذاكرة ، وشدة الحفظ ، واتقان المنهج المقرر؟

* * *

نجح ، فوثب فرحاً ، وتهيأ لخوض معركة الحياة ، فقالوا له : مهلاً ! قال : ماذا ؟ قالوا : لابدّ من شهادة عالية ، انّ المستقبل لا يضمن الا بشهادة عالية !

قال : ويحكم ! وهل يبنى المستقبل على (الورق) ؟

وانطلق يلعن هذا المستقبل ، الذي حرمه عبث الطفولة ومتعة الشباب ، ونغّص عليه حياته ، ولم يتركه يستريح الى حاضره يوماً واحداً ، كان أبداً يدفعه الى الأمام ، فيعدو كالفرس المحموم ، فيتعب من العدو ، ولا يصل الى منزل !

- ٦ -

راح الشاب يدرس الحقوق لينال الشهادة ، ويضمن المستقبل ، ويشتغل بالأدب ، ليستجيب للرغبة ويحظى بالمتعة ، ويعمل في الجريدة ، ليضمن العيش ، ويعول الأسرة ... واستمر على ذلك حتى نال (الليسانس) فربح بقربه من الأدب البعد عن الناس ، والجهل بالحياة ، وكسب بميله الأدبي وطبعه المستوحش ، وجهله بالحياة ، خصومة الحكام ، ومضادة الكبراء وعداوة المال ...

- ٧ -

نزل الشاب الى ميدان الحياة ، برأس مترع بالعلوم ، والمبادىء السامية ، ويد مثقلة بالشهادة الابتدائية والثانوية والعالية وجيب خاو خال .

فلم تكن الا جولة" واحدة" ، حتى ولّى منهزماً !

* * *

ذلك لأن سلاحه ، من (طراز قديم) لم يعد يصلح اليوم في معركة الحياة !

ولقد خدعته المدرسة ، وكذبت عليه ، وصورت له الحياة على غير حقيقتها :

قالت له المدرسة : « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال » . فرأى أنّ المال في الحياة خير من العلم ، العلم لا ينال الاّ بالمال ،

فلو أنَّ شاباً كان أذكى الناس ، وأنبه الناس ، وكان مفلساً لا يملك أجور المدرسة ، وأثمان الكتب والثياب ، لما قبل في جامعة ولا حصل علماً والعلم لا يثمر الاّ بالمال ، فلو أنّ أعلم أهل الأرض ، كان مفلساً ، يفكر في خبزه من أين يأتي به ، وبيته كيف يستأجره ، لما بقي له عقل يفكر ، وذكاء ينتج ، ورأى أن أصحاب الأموال الجاهلين ، تبيحهم الحياة أجمل ما تملك من متع ولذائذ ومجد وجاه ، والعلماء الفقراء محرومون من كل شيء .

نعم ان المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : « الأخلاق أساس النجاح » وضرب له المعلم مثلاً سيئاً طلاباً لا أخلاق لهم ولا عفاف . وضرب له مثلاً عالياً طلاباً كانوا نموذج الطهر والاستقامة والشرف ، فرأى أن الأولين قد بلغوا أعلى المراتب وأسمى المناصب والآخرين تحت تحت...على العتبة ...

فعلم أن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : ان الحق فوق القوة . القوة للحق وليس الحق للقوة ، فآمن بذلك وصدقه ، وتسلح بسلاح الحق ، فما راعه الاّ اللص يضع مسدسه في صدغه يطلب ماله وثيابه ، فألقى عليه محاضرة في الحق ، جمع فيها كل ما تعلمه من أساتيذه ، وأضاف اليه ما انشق عنه ذهنه ، فردّ عليها اللص بقهقهة مروعة ... وذهب بأمواله وثيابه ورجع هو عارياً . لم يبق له الاّ فكرة سخيفة لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تنجي من برد ...

ورفع شكواه الى القاضي ، فلم ير عند القاضي حقاً يقهر القوة ، ولكن وجد عنده قوة تصنع الحق ، وجد قوة الجنود ، فأين يبقى الحق اذا ثار اللصوص على الجند أو فتكوا بهم ؟

هذه هي سنة الحياة ، وليس على الحياة ذنب ، فهي سافرة لم تستتر

ولم تخدع أحداً عن نفسها ، ولكن الذنب على الأدباء والمدرسين الذين وضعوا عيونهم في أوراقهم ، وحبسوا أنفسهم في مكاتبهم ، وأرادوا أن يدرسوا الحياة فلم يفهموا منها شيئاً ...

- ٨ -

وجلس الشاب (الليسانسيه في الحقوق) يدوّن آراءه تلك في كتاب ، فلما انتهى منه حمله الى الناشر ، وكله زهو واعجاب بنفسه... فقلبه الناشر العامي وصفحه ، فلما رأى اسم صاحبنا عليه لوى شفتيه ، وقوّس حاجبيه ، وقال له :

ـ ان الناس لا يقرءون الآن ما تكتب ، ومتى صرت (في المستقبل) كاتباً مشهوراً ننشر لك آثارك .

فخرج متعثراً بأذيال الخيبة ... يلعن المستقبل لعناً .

* * *

ما هو هذا المستقبل ؟ وهل اقتربت منه شبراً واحداً وأنا أركض وراءه منذ سبعة وعشرين عاماً ؟ فمتى أصل اليه ؟ وأين هو ؟ أهو في العام الآتي ، أهو فيما بعد خمس سنين ؟ وهل يبقى مستقبلا اذا أنا بلغته أم يصبح حاضراً ، ويكون عليّ أن أبلغ مستقبلاً آخر ؟... أيكون مستقبلي القبر ؟ لقد طوفت في الآفاق ، وشرقت وغربت ، وأنجدت وأعرقت ... فما رجعت الا بالخيبة والتعب والافلاس . فأين أجد الهدوء والراحة من هموم العيش ، حتى أنصرف الى ما خلقت له من الدرس والمطالعة والكتابة والتأليف ؟

* * *

وذهب الشاب (الليسانسيه في الحقوق) يفتش عن الخبز فلم يجده عند ناشر الكتاب ، ولا في ادارة الجريدة ، ولا في مكتب المحامي ولم يجده الا في مدرسة القرية ، فصار (معلم صبيان) فيها ، يقرئهم الف باء ، ثم ارتقت به الحال قليلاً ، فصار يدرس سير الأدباء ، وأشعار الشعراء...

يكدّ ويتعب ، في الليل والنهار يحمل آلام الغربة ، وعناء العمل ، ثم لا ينتج أثراً أدبياً ، ولا يفيد علماً ، ولايحفظ في جيبه درهماً واحداً ...
انه يشتغل من أجل المستقبل ...

- ٩ -

أين ذلك الطفل الذي كان يكره المدرسة ، ويبغض المعلم القاسي — مِنْ هذا المعلم الفظّ ، الذي يرهق الأطفال ويهز عصاه في وجوههم ، ويقرع بها جنوبهم ... من يستطيع أن يتصور أنّ هذا هو ذاك ؟ وأيّ شبه بينهما ؟ انهما مختلفان في الجسم والشكل والطبائع والميول ، فلن يكونا شخصاً واحداً !

أين ذلك الطالب المتحمس الذي كان يقود الطلاب الى المظاهرات ، ويخطب في المساجد والمجامع والأسواق ؟ مِنْ هذا المدرس الخامل الذي يلقي دروس الأدب على هؤلاء الطلاب ، ويبدو فيهم كشيخ همّ في الثمانين ؟ هل هما شخص واحد ؟

ان ذلك الطالب لو رأى هذا المدرس لأبغضه وكرهه ولما تردد في البطش به !

وأين ذلك الشاب الذي تفيض نفسه بالآمال الكبار ؟ من هذا اليائس القانط الذي لم يعد يأمل في شيء ، لأنه جرّب فلم يصل الى شيء ؟

- ١٠ -

وبعد . فلمَ أفكرُ في هذا ؟ انني لا أدري من أنا ، ولا أعرف كيف وجدت ، ولا أعلم ما هي صلتي بذلك الطفل الذي نسيت حتى صورة وجهه ، وذلك التلميذ الذي لم أعد أعرفه الاّ بالتخيل ، وذلك الطالب الذي أحبه وأتشوق اليه ، وذلك المعلم الذي أرثى له وأشفق عليه ؟

هل أنا كل هؤلاء ؟ وماذا بعد ؟

يا لله ! اني أحس كأني جُننت حقاً ؟ !

* * *

أنا والنجوم

نشرت سنة ١٩٣٧ م

ما من كلمة هي أثقل على أذن السامع وأبغض اليه ، من كلمة(أنا)، وما حديث أكره الى الناس من حديث المرء عن نفسه... بيدأني متحدث الليلة عن نفسي ، وقائل (أنا) ، وجاعلها عنوان مقالتي ، لأني منفرد بنفسي ، لا أجد معي من أتحدث عنه الا" (أنا) .

أنا حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفس ، وحين أصف شعور واحد وعواطفه ، أصف شعور الناس كلهم وعواطفهم ، كصاحب التشريح لا يشق الصدور جميعاً ليعرف مكان القلب وصفته ، ولكنه يشق الصدر والصدرين ثم يقعّدالقاعدة ، ويؤصل الأصل ، فلا يشذ عنه انسان ... سنة الله في الخلق ، وقانونه المحكم ، ونظامه العجيب الذي جعل الناس مختلفين وهم متشابهون ، ومتشابهين وهم مختلفون ، برأهم على الوحدة في الحقيقة ، والتنوع في الجمال ، فخلق العيون كلها خلقاً واحداً ، كل عين ككل عين ، في تركيبها ووضعها ، وصفتها ، وما عين مثل عين في شكلها ومعناها وجمالها . تلك حكمة الحكيم الخبير ، وهذه صنعة المبدع القدير !

* * *

أنا منفرد على سطح دار في (الزبير) [1] في هذه الليلة الساكنة المتلألئة النجوم ، وأمامي الصحراء التي تمتد الى عمان واليمن ونجد والحجاز ، وورائي السواد الذي يصل الى أرض فارس ، وهي قريبة ، حتى اني لأرى لهيب النفط المشتعل في (عبادان) وأنا في مكاني ... اتأمل هذه الصحراء المجيدة المباركة ، التي كتب على رمالها أروع سطور المجد ، وأجمل صحائف التاريخ ، ونبت في رمالها دوح الحضارة الذي أوت اليه الانسانية ، وتفيأت ظلاله يوم لا ظـلّ في الأرض الا ظلّه ، وأفكر فيطول بي التفكير ، ويطل بي الفكر على آفاق واسعة ودنياوات عظيمة ، وتنبلج في نفسي أصباح منيرة ، فأجد في رأسي مئات من الأفكار الجديدة الكبيرة ، وفي نفسي مئات من الصور الرائعة المبتكرة ، ولكني لا أكاد أمسك واحدة منها لأقيدها بالألفاظ ، وأغلّها بالكلم ، حتى تفلت مني وتعدو في طريقها منحدرة الى أغوار عقلي الباطن ، فلا أنا استمتعت بها استمتاع الناس بأفكارهم ، ولا أنا سجلتها في مقالة وصنعت منها تحفة أدبية ، ولو أني قدرت أن أكتب معشار ما أتصور لكنت شيئاً عظيماً ، ولكني لا أقدر ... ولا أصب في مقالاتي الا حثالة أفكاري . تنبت الأفكار في نفسي وتزهر وتثمر ، ثم تذوي وتجف فآخذ الهشيم فأضعه في مقالتي !

---

(١) الزبير : بلدة صغيرة ، على سيف البادية ، غربي البصرة ، تبعد عنها سبعة اميال . فيها قبر بطل الاسلام الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة . وعلى مقدمة منها أطلال عليها نقوش ظاهرة ، المشهور هنا انها أطلال مسجد البصرة الجامع وأهلها يبلغون اثني عشر الفاً ، كلهم مسلمون سنيون يميلون الى السلفية ، ويحبون العلم . فيها مساجد كثيرة كلها تقام فيه الجمعة ومدرسة أميرية راقية ، ومدرسة أهلية اسلامية اسسها الشيخ الشنقيطي رحمة الله عليه . والراجح انها هي البصرة القديمة والله أعلم فليس هنا من يعلم .

ويتفجر الينبوع في نفسي ، ويتدفق ويسيل ، ثم ينضب وينقطع ، فآخذ الوحل فأضعه في مقالتي !

وينبثق الفجر في نفسي ، ويقوى ويشتد ، ويكون الضحى والزوال ، ثم يعود الليل ، فآخذ قبضة من ظلام الليل ، لأكتب منها مقالة ، عنوانها .. « ضياء الفجر » !

من أجل ذلك أكره أن أنظر في كل ما كتبت ، وأستحي أن أعود اليه ، وأحب كل جديد لم ينشر ، وأرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب ، فهو يقول لي : ان الدرهم كبير منك لأنك فقير ، ولكن الذي ينقد مقالاتي ويتنقصها يقول لي : انك غني فالدرهم قليل منك ، ان هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم ...

لقد تعلمت هذه المسألة من عهد قريب ، فصرت أحب النقد ، وكنت أجهلها من قبل فأميل الى الثناء والتقريظ .

لبثت أعرض هذه المواكب من الأفكار ، حتى تعبت ومللت ، فألقيتها كلها في الصحراء ، وجلست أفكر في الصحراء وحدها ...

نظرت اليها وهي متمددة على سرير الجزيرة الواسعة ، نائمة ، فامتلأت اكباراً لها واعظاماً ، ثم فكرت أن لو فتحت الصحراء عينها ، أكانت تبصرني ، وتحس بوجودي ؟ أأشعر أنا بوجود رملة حملتها الريح فطارت بها ، فمست وجهي وهي طائرة ، ثم مضت في سبيلها ؟ ما أنا في وجود الصحراء الا رملة ، وما حياتي الا لحظة من حياتها ، ولو تثاءبت الصحراء ، أو حكت أنفها لتصرم قرن كامل قبل أن تنتهي من تثاؤبها وحكها أنفها ... فما أعظم الصحراء وما طول عمرها ...

— بل ما أقل الصحراء . وما أقصر عمرها !

ما الصحراء ؟ بل ما الأرض كلها ؟ وما هذا المليار من القرون الذي عاشته ؟ انه يوم من حياتي ، انها نقطة من بحري ... اني نمت يوماً فلما أفقت وجدت نقطة صغيرة هناك ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : مخلوق صغير يدعى الشمس ... فعجبت من صغرها ، ثم لم أحفل بها ، فما أرضك هذا يا ... يا ... يا أيها العدم !

هذا ما قاله لي كوكب قريب ، كان ينظر اليَّ باسماً ... فذكرت ما قاله علماء الفلك عن الكواكب وعظمتها ، فسكت ولم أنطق ... واذا بكوكب آخر يطل من هناك يقهقه ضاحكاً يصرخ في وجه الاول: اسكت اسكت أيها النملة الحقيرة ، من أنت ؟ انَّ آلافاً مثلك لا تملأ وادياً واحداً من أوديتي ، انني أحمل مائة مثلك بين أصبعين من أصابعي ...

وكان وراءه كوكب خافت لا يقول شيئاً ، لأنه لم يعلم بوجود هذا كله – لا يراه لبعده وصغره ، وكان وراءه ستمائة مليون من الكواكب كل واحد أكبر من الذي قبله ، وأصغرها من هذا الكوكب كالفيل من البعوضة ... فجلست أحدق في هذه الكواكب ذاهلاً مشدوهاً ، وانقطعت أفكاري عن الجريان وأحسست بضآلتي ، حتى لقد خلتني عدماً ...

ثم صغرت هذه الكواكب في نظري لما رأيت شيئاً أعظم منها ، صغرت لما رأيت السماء « سقفاً مرفوعاً » حتى غدت كلها « مصابيح تزين السماء الدنيا » ، ورأيت السموات تطيف بها كلها . تحيط بهذا الفضاء « سبعاً طباقاً » ، ورأيت الجنة من وراء ذلك « عرضها السموات والأرض » ، ورأيت العرش والكرسي ، وتلك الكائنات العظيمة ، فأحسست أن عقلي ينهدم ويتحطم حين يحاول التفكير فيها وهي مخلوقة ، فكيف به حين يحاول التفكير في الخالق ؟

وذهبت أقابل بين هذه العظمة الهائلة التي لا يدنو من تصورها

العقل ، وتلك الدقة الهائلة دقة الجراثيم التي يسر الألف منها من ثقب ابرة ، دقة الكهارب التي يكون منها في الذرة الواحدة مئات من الكواكب الصغيرة ، يدور بعضها على بعض ، كما تدور كواكب المجموعة الشمسية، ذهبت أقابل بين هذا وذاك فعجزت ، وأنكرت نفسي وجحدتها ، وامتلأت ايماناً بالخالق الأعظم ، فصحت من أعماق قلبي :

لا اله الاّ الله !

* * *

أنكرت نفسي . ولم أعد أراها شيئاً ... ونسيت يدي ورجلي ، حتى لقد حسبتهما جزءاً من الكرسي أو السرير الذي أجلس عليه ، وأضعت ميولي كلها وشهواتي ، حتى لم يبق لي (أنا) وانما صرت أنا الكون كله[1] ، الكون الذي ردّد معي قولي ، لا اله الاّ الله ، فأحسست حينما أنكرت نفسي بلذة الوجدان التي لا توصف :

لا يعرف العشق الاّ من يكابده ولا الصبابة الاّ من يعانيها

وبدأت أفهم ما كنت قرأته من أقوال أهل التصوف ؛ وتعلمت أن الانسان لا يحس بعظمة الله ، الاّ اذا نسي نفسه وعظمته . هنالك يجد هذا « الجرم الصغير » الذي هو رملة في الصحراء وعدم في وجود الكواكب، والذي لا يمتد عمره أكثر من لحظة في عمر السماء ... يجده أكبر من الكواكب ، وأخلد من السموات ، لأنه عرف الله وأدرك حلاوة الايمان...

وقمت بعد ذلك أصلي ، فلما قلت : الله أكبر ، محى الكون كله من وجودي ، ولم يبق الاّ أنا العبد المؤمن الضعيف ، والله الاله العظيم الجبار !

ليس في الدنيا شيء أجلّ ولا أجمل من الصلاة !

* * *

---

(١) أي الكون المخلوق لا الخالق ، وأعوذ بالله من أن أقول بـ (وحدة الوجود) التي قال بها أقوام فضلّوا وأضلّوا .

جواب على كتاب

نشرت سنة ١٩٥٩

يحمل الي البريد كل أسبوع نحواً من ثلاثين رسالة ، يبعث بها الي سامعو أحاديثي في الاذاعة ، وقراء مقالاتي في الصحف . ولكني لم أجد فيها كلها مثل الرسالة التي تلقيتها أمس . رسالة من أم ، جاءتني في — يوم الأم — ليس فيها من فصاحة اللفظ شيء ولكنها في البلاغة آية من الآيات ، وهل البلاغة الا أن تقول ما يصل بك الى الغاية ويبلغ بك القصد ؟

تقول هذه الأم أنها سمعت بعيد الأم ، ولكنها لم تره ، وعرفت شقاء الأم بالولد ، ولكنها لم تعرف بر الولد بالوالدة ، وهي لا تشكو عقوق ولديها ، فهما صغيران ما بلغا سن العقوق ، ولكنها تشكو ضيق ذات اليد وفقد المسعد والعين ، وانها تصبر النفس حينا ويتصرم أحياناً صبرها ، وتسألني أتطلق الولدين من اسار المدرسةوتبعثبهمايتكسبان دريهمات تعينها على العيش ؟ وتسأل ماذا تجني منهما ان درسا وهي لا تملك ثمن كساء المدرسة ولا نفقاتها ؟ فكيف يستطيعان أن يكملا الدرس ويتما التحصيل وهما بالثوب البالي والجيب الخالي .

وما تمنيت أن أكون غنياً الا اليوم ، لأستطيع أن أواسيها باليد والمال ، لا بالقلم واللسان ، ولكني أديب ، والأديب لا يملك الا قلبه ولسانه ، وهاتان كلمتان من القلب كلمة لها هي ، وكلمة للقراء .

أما الكلمة التي هي لك ، فأحسب أنها تبدو للناس غريبة لأن الأدباء ما تعودوا أن يقولوا مثلها ، لأنهم لا يجرؤون أن يعرضوا على النــاس حقائق صورهم ليراهم الناس كما هم ، بل يعرضون صوراً محررة مزوقة، قد بدلها (رتوش) المصور وفنه ، وقد تكون أحلى وأجمل ولكنهـا ليست صورهم ، انهم لا يكشفون للقراء قلوبهم لكن يعرضون عقولهم، وان كان هذا الذي أقوله اليوم سنة عند أدباء الافرنج من سنن الأدب المسلوكة لا بدعة من البدع المتروكة ..

انها قصة ولكن لم يخترعها خيال كاتب ، ولم يؤلفها قلم أديب بـل ألفت فصولها الحياة وجئت أرويها كما كانت ..

أرويهـا لتعلمي وتعلم كل أم بائسـة ، وكل ولد نشأ في الفقـر أن المجد والعلاء رهن بأمرين :

بتوفيق الله أولاً ، والله يوفق كل عامل مخلص ، وبالعلم والجـد ثانيـاً .

واسمعي الآن القصة :

كان في دمشق من نحو أربعين سنة ، عالم جليل القدر ، كريم اليد ، موفور الرزق ، داره مفتوحة للأقرباء والضيوف ، وطلبة العلم وموائده ممدودة ، لما أضاق الناس في الحرب العامة الأولى ، وسّـع الله بفضله عليه فلم يعرف الضيق ، وكان من ذوي المناصب الكبار ، والمكانة في الناس .

ونشأ أولاده في هذا البيت ، لا يعرفون ذلّ الحاجة ولا لذعة الفقر، ولكنهم أصبحوا يوما ـ من أيام سنة ١٩٢٥ ـ الولد الكبير البالغ من عمره ست عشرة سنة ، وأخوة له تتراوح أعمارهم بين عشر وبين شهر . فاذا بالوالد قد توفي .

وارتفع الستر ، فاذا التركة ديون للناس ، فباعوا أثاث الدار كله ، ليوفوا الدّين ، ثم تركوا الدار الفسيحة في الصالحيـة ، ونزلوا تحت

الرصاص ـ وكانت أيام الثورة ـ يفتشون عن دار يستأجرونها ، فوجدوا داراً .... أعني كوخاً .. زريبة بهائم ، مخزن تبن في حارة الديمجية ـ هل سمعت بها ؟ في آخر العقيبة ، قرب المكان الذي يسميه الناس من التوائه وضيقه « محل ما ضيَّع القرد ابنه » ، هذا هو اسمه ، صدقيني .

في غرفتين من اللبن والطين ، في ظل دار عالية لأحد موسري الحارة ، تحجب عن الغرفتين الشمس والضياء فلا تراها قط الشمس ، ولا يستطيع أن يدخلها الضوء ليس فيها ماء الاّ ماء ساقية وسخة عرضها شبران وعمقها أصبعان ، تمشي مكشوفة ، من (تورا) في الصالحية الى هذه الحارة ، تتلقى في هذا الطريق الطويل كل ما يلقى فيها من الخيرات الحسان .. وليس فيها نور الاّ نور مصباح كاز ، نمرة ثلاثة ... يضيء تارة ، و (يشحر) تارات .. والسقف من خشب عليه طين . ان مشت عليه هرة ارتج واضطرب ، وان نزلت عليه قطرة مطر وكف و (سرب) .

هنالك على أربعة فرش مبسوطات على الأرض متجاورات ، ما تحتهنَّ سرير ، تغطيهن البسط والجلود ، كان ينام هؤلاء الأولاد ، الذين ربوا في النعيم ، وغذوا بلبان الدلال ، تسهر عليهم أم ، مثلكِ . حملت ما لم تحمله أم ، تدرأ عنهم سيل البق الذي يغطي الجدران ، وأسراب البعوض التي تملأ الغرفة ، والماء الذي ينزل من السقف . تظل الليل كله ساهرة تطفىء بدمع القلب حرق القلب ، تذكر ما كانت فيه وما صارت اليه ، والأقرباء الموسرين الذين لم يكونوا يخرجون من دار الوالد ، كيف تخلوا عن الأولاد ، وأنكروهم حتى جاءوا يوماً يزورون جار الدار الموسر يهنئونه بالعيد ، ولم يطرقوا والله عليهم الباب ، لم يعنها أحد ، ولم يسعدها الاّ أخ لها في مصر[1] أمدَّها بجنيهات مصرية قليلة لم يكن يطيق أكثر منها .

---

(١) هو الاستاذ محب الدين الخطيب الكاتب الكبير المعروف .

في هذا الجو يا سيدتي .. وماذا تظنين هذا الجو ؟ فيه أقبل الولد واخوته على الدرس والتحصيل .. وكانت أطراف البلد للثوار ، ليس للفرنسيين الا" وسط المدينة . فكانوا يمرون على الموت في طريقهم الى المدرسة كل يوم ، يخترقون جبهة الحرب ــ الاستحكامات ــ القائمة أمام جامع التوبة ، وصبروا ووثقوا بالله ، وأعانهم الله ووفّقهم ، حتى صاروا .. ماذا تقدرين أنهم صاروا الآن ؟

صار الولد الثاني قاضياً ، وصار أديباً شاعراً مصنفاً ، والثالث استاذاً كبيراً في الجامعة وأول مَن حمل لقب دكتور في الرياضيات في سورية ، والرابع مدرساً موفقاً وداعية وأديباً . أما الولد الأكبر فلا أقول عنه شيئاً لأن شهادتي فيه مردودة ، فهو صديقي الذي لا أفارقه أبداً ، والذي أكون معه ليلي ونهاري وأراه كلما نظرت في المرآة ، وهو فوق ذلك يحمل اسماً مثل اسمي .

وما قصصت هذه القصة الا" تسلية لك ، وتهويناً عليك ، ولتوقني انه ربما كان ينتظر ولديك هذين اللذين لا يجدان الغذاء والكساء ، ينتظرهما مستقبل يحسدهما عليه أبناء الأغنياء .

فقولي لولديك ألا" يخجلا ان لم يجدا الثوب الأنيق ، أو الكتاب الجديد ، أو المال الفائض ، فان أكثر النابغين كانوا من أبناء الفقراء .. وكاتب هذه السطور ــ وان لم يكن من النابغين الذين تضرب بهم الأمثال ــ كان يجيء الى المدرسة الثانوية بالبذلة التي فصلتها له أمهمن جبة أبيه ، وقد عجز عن أداء رسم شهادة الحقوق فساعده عليه بعض المحسنين .

وأنا أعرف والله في أعلام البلد اليوم من نشؤوا في أشد الفقر ، ثم

نالوا بالعلم أوسع الغنى ، وأعلى المناصب . ولو كنت أعلم الرضا منهم بذكر أسمائهم لسميت لك خمسة أسماء ، كلها على طرف لساني الآن ، وأنا أعرف محكمة صار ابن آذنها قاضيها ، وابن رئيسها (شيئاً) كالآذن فيهـا .

أما الكلمة التي هي للقراء ، الذين كانوا الليلة البارحة ـ عندما أرعدت السمـاء وأبرقت ، ونزلت على الارض ـ كانوا على المقـاعد المريحة في الغرف الدافئة ، فلم يعرفوا ما حال الفقراء في تلك الليلة .

اني أقول لهم :

ان في البلد ، في حيِّكم ، بين جيرانكم كثيرات من أمثال السيدة التي كتبت اليَّ .. وان في البلد مَن يرتجف هذه الليلة من البرد ، في البيوت التي ثلجها الشتاء ، لا يلقى جمرة مشتعلة ، وان هنالك تلميذات وتلاميذ ، يقرؤون بعيون تزيغ من الجوع والقرّ ، ويكتبون بأصابع محمرة مـن البرد . وان في هؤلاء من لو أمد بالطعام واللباس ، وأعين على الدراسة ، لكان عبقرياً تعتز بمثله الأوطان ، وتسمو الأمم ، واذكروا أنَّ بـين أجراء الخبازين وصبية المحامين ، مَن خلق ليكون من كبار العلمـاء ، وأفراد النابغين ، ولكن الفقر عطل مواهبه ، وسدَّ أمامه طريق النبوغ ، فلم يجد ذكاؤه مسرباً يسرب منه الاَّ الاجرام .

ان أكثر المجرمين الذين يسكنون السجون ، كانوا صبية أذكياء ، ولكن المجتمع قال لهم ، حرام عليكم الدرس والتحصيل ، لتكونوا من أفذاذ المثقفين ، فكونو اذن ، من أذكياء المجرمين .

ان الذي ينفقه الأغنياء على الترف والسرف ، يكفي لتعليم كل ولد في البلدة ، واطعام كل جائع ، واسعاف كل فقير .

ان عرسا واحداً من أعراس الموسرين الكبار تكفي نفقاته لاطعام عشر عائلات شهرا كاملا ، وما ينفق على أكاليل الزهر في الجنائز ،وطاقات

الورد في الافراح ، يفتح كل سنة مستشفى مجانيا للفقراء ، وأثمان علب الملبس في الموالد ، تنشيء كل سنة مدرسة تتسع لخمسمئة تلميذ ، وما تشترى به هذه الثريات الفخمة ، وهذه التماثيل ، وما ينفق في الولائم والحفلات ، وما يصرف في الملاهي والموبقات يكفي لسد حاجة كل محتاج .

وأنا لا أقول دعوا هذا كله فانكم لن تفعلوا ، ولكن اجعلوا من أموالكم نصيبا لهؤلاء المعذبين في الارض .. زكّوا عن أموالكم ، فانكم لا تدرون هل تدوم لكم ، أو تذهب عنكم .

وهل أخذ أحد على الدهر عهدا ، أن لا تحول عنه الحال ، وأن لا يذهب من يده المال ؟ ومَن الذي جعل لولد الغني الحق في أن يبقى أبداً سيداً ، يعطى ما يطلب ، وينال ما يريد . وكتب على ولد الفقير الفقر والشقاء أبداً ؟

ومَن يثق بأنّ ولده لن يحتاج غداً الى ولد الفقير ، يسأله ويرجو رفده؟

واذا وثقتم ببقاء المال ، فهل تثقون ببقاء الصحة ؟ أتأمنون الأمراض والنوازل والنكبات ؟

فاستنزلوا رحمة الله بالبذل ، وادفعوا عنكم المصائب بالصدقات ؟

وأنا لا أخاطب أرباب الآلاف المؤلفة فقط ، بل أخاطب القراء جميعاً ، ان الناس درجات . أما تفرح ان أعطاك صاحب الملايين ألف ليرة ؟ فاعط أنت المعدم عشر ليرات ، انّ الليرات العشر له كالألف لك ، والألف عند « المليونير » كالعشر عندك . والثوب القديم الذي تطرحه قد يكون ثوب العيد عند ناس آخرين . فلماذا لا تسرهم بشيء لا يضرك ولا تحس بفقده ؟

ولو أن كل امرىء يعطي من هو أفقر منه ، لما بقي في الدنيا محتاج . فيا أيها القراء أسألكم بالله لا تدعوا كلمتي تذهب في الهواء ، فاني والله ما أردت الا الخير لكم ، ويا أيتها الأم التي كتبت اليّ ، ثقي بالله ، فان الله لا يضيع أحداً أبداً .

من دموع القلب

نشرت سنة ١٩٣٨ م

« هل تذكر يا صديقي ، يوم جزنـا بمقبرة الدحداح ونحن طفلان يتيمان في طريقنا الى المنزلين الصغيرين المتجاورين في (السمانة) ، فوقفنا ساعة على القبرين المتدانيين نزور أبوينا ... ثم ذهبنا مسرعين لنودع آلامنا صدر الأم ؟

أتذكر ما قلت لي يومئذ عن حبك أمك وتعلقك بها ، وما قلت لك ؟ أتذكر أننا اتفقنا على أن الحياة مستحيلة علينا بعد الأمهات ، وأننا سنبقى معهن أبداً وشملنا جميع وعقدنا متصل ؟

لقد كان ما ظنناه مستحيلا... لقد ماتت أمي وأمك واحتواهما ذلك القبر الذي حوى أبوينـا من قبل وعشنا بعدهما ... لم نعد نملك منهمـا الا دموعا حرّى في العين وحسرات لاذعات في القلب ... لقد غابتا الى الأبد ! »

(علي)

لست أدري ما الذي يحملني على ذكر الماضي ونبش عظامه النخرة؟ وما الذي يغريني بأن أتلمّس مكان أحلامي من الواقع ... وأنا أعلم أن الماضي قد ذهب بمسراته وأحزانه ولم يبق في يدي منه الا هـذه الذكريات التي طالما حاولت أن ألقي بها في الزاوية المظلمة من نفسي لتنام

فيها الى الأبد ، فكانت تستفيق كلما أردت نسيانها فتسود صفحة الحياة في ناظري حتى لا أرى فيها جميلا ولا بهيًا ... وأنا أعلم أن أحلامي التي بنيتها بقطع قلبي ، وأنقاض أيامي ، ورويت رياضها بدمع عيني ، قد جفّ زهرها ، وصوّح نبتها ، وانهارت أمام عيني دفعة واحدة ، كما ينهار بيت من ورق اللعب ضربته كف انسان ... فأيست منها وذهبت أعيش بقلب محطوم وكبد مكلومة ، فأضحك وأمزح حتى ليظنني الناس أسعد الناس وأنا أشقاهم وأخيبهم أملاً ، وأشدهم ألماً ...

فلماذا أعود الليلة الى الماضي التي ماتت أيامه ، وماتت أحلامه ، ومات ناسه ؟

* * *

كنت أطل من شرفتي في الفندق على شارع الرشيد في بغداد ، الذي يمثل الحياة ويفسرها ويصور حقيقتها أكثر من تصوير الأدباء وتفسير الفلاسفة ، بل ان ساعة واحدة تشرف فيها على شارع الرشيد ، أجدى عليك في فهم الحياة من دراسة عشر سنين في هذه الكتب ...

وماذا في الكتب الا الحيرة والضلال ؟ ومنذا الذي تبلغ به الحماقة وتفيض على نفسه حتى يدعي أنه فهم الحياة من الكتب ؟ أنا أحد صرعى هذه الكتب وضحاياها ، فسلوني عن خيبتي وخساري ؟

قالت الكتب : ان المستقيم أقصر الخطوط فاسلكه تصل ، واستقم تبلغ غايتك ، فسرت قدماً فاصطدمت بأول جدار لقيته فشج رأسي وقعدت مكاني ، واستدار غيري والتوى كما تستدير طرق الحياة وتلتوي فوصل .

قالت الكتب : كن فاضلا واحرص على مكارم الأخلاق فهي السبيل ، فوجدت أهل الرذيلة هم الذين يصلون ، ورأيت أسفل الناس أخلاقاً صار أستاذاً للأخلاق في أكبر مدرسة ، فعجبت من سخر الحياة !

وقالت الكتب : الحق ، وقالت الحياة : القوة ••• وقالت الكتب : الفضائل • وقالت الحياة : الشهوات • وقالت الكتب ••• ولكن لم يكن الا ّ ما قالت الحياة !

ونظرت الى شارع الرشيد ، فاذا السيارات من كل جنس ولون ، والعربات من كل شكل ونوع ، والدراجات والعجلات ، كلها يعدو يريد أن يصل أولا ً ، وكلها يزاحم ، وكلها يزأر ويصيح ويهدد ، ولكنها ، اذا بلغت الغاية رأت أنها لم تصل الى شيء فعادت أدراجها تزاحم وتعدو وتصيح •••

فقلت : كذلك الحياة ••• سباق وتزاحم ، ولكن ما هي الغاية ؟

لا شيء •••!

* * *

ودخلت الغرفة وأغلقت عليّ بابي ، وأردت أن أفيء الى عزلة أسكن فيها نفسي ، وأجد فيها راحتي ، ولكن الباب قرع ، وجاء السيد حيدر الجوادي ، الرجل الذي ملك على الدكتور زكي مبارك أمره ، وأطربه وأعجبه حتى غدا لا يصبر عن سماعه حيثما رآه ، وحتى اضطره الى الغناء في المكتبة العامة ، وقال له : غنّ ها هنا فوالله ليتحدثن بها الناس، وليقولن ان زكي مبارك ابتدع الغناء في المكتبات ••• جاءني فغناني (أبوذية) من (أبوذيات العراق) ، التي ما أظن أنّ انسياً أو جنّياً عرف نغمة أشجى منها ، وأسرع الى القلب وصولا ، وأشد للألم تصويراً• هي قطرات من الدمع صورت نغماً • هي خفقات القلب صيغت نشيداً • هي ••• هي خلاصة الفن العبقري الذي يصور الألم العبقري ••• فهز نفسي هزاً عنيفاً ، فتح صفحاتها جميعاً ، ووصل ماضيها بحاضرها ، وأسلمها الى ذهلة عميقة ، لذّة ممتعة ، ولكنها أليمة موجعة ، ذكرت (العتابا) تلك الأغنية التي ترنّ بها أبداً أودية لبنان ، وتنحدر أصداؤها

على سفوحه وحدوره ، ولا يدري أحد من هو الذي وضعها ونظم مطلعها وألف لحنها ، (العتابا) الخالدة التي يشترك في تأليفها العصر الجديد والعصر الغابر ، ويزيد فيها كل جيل أدواراً ، فيكون منها الصورة الصادقة لعواطف الشعب وهواجسه وأمانيه وذكرياته ، تلك التي تعيش في ترنيمة السواقي المتكسرة على الشعاف والصخور لتبلغ قرارة الوادي ، وفي نور القمر الذي يغمر لبنان بفيض من الشعر والحب والسحر ، الصنوبر الضاحكة ، وفي عطر كل زهرة ، وصمت كل صخرة ، وأشعة الشمس المطلة من وراء الذرى للسلام ، والمشرفة من آخر الأفق للوداع ، وفي نور القمر الذي يغمر لبنان بفيض من الشعر والحب والسحر ، وتعيش في كل ذروة من لبنان !

* * *

رجعتني هذه (الأبوذية) الى سالفات أيامي ، فذهبت أعرض صور حياتي فيها ، وهي تمر بي متتالية متعاقبة كمناظر السينما ملتفة بضباب الماضي ، فأرى مآسيها المغسولة بالدموع وفواجعها الدامية ولكني لا أرى البهجة والسرور ، فهل أرى البهجة والسرور بعد أن أشرفت على الثلاثين؟

كنت أفكر دائباً في المستقبل ، وأنتظر المستقبل ، فها هو ذا المستقبل قد صار حاضراً ، فهل وجدت فيه الا الخيبة والألم ؟

لقد جربت الصناعات والفنون ، وطوّفت في البلدان ، فما أفدت من ذلك كله الا أني تركت في كل بلد قبراً لأمل من آمالي . لقد أضعت الحب والمال ، وأضعت المجد الأدبي ، حتى هذه الألحان التي تدور في نفسي ضاعت مني ... فلم أستطع أن أسمعها الناس أغاني وأصواتاً ، ما سمع الناس الا أقصر أغانيّ وأقبحها ، تلك هي مقالاتي التي نشرتها ، فمتى يسمعون أجمل ألحاني وأطولها ؟

في المستقبل !

يا ويح نفسي ! هل بقي لي مستقبل الا" الموت ، الذي غدوت أحبه وأناديه لو كان يسمع النداء ؟

* * *

لقد وجدت المستقبل عدماً ، فهل عليّ من لوم اذا عدت الى ماضيّ أعش فيه ؟

في هذا الماضي دفنت أمي ، وفيه دفنت أبي ، وفيه دفنت أحلامي ... لقد أحببت كثيراً ، وتألمت أكثر مما أحببت ، ولكن الحب الحقيقي الواحد الذي انطوى عليه قلبي ، والألم الفرد الصادق الذي عرفه ، هو حبي أمي ، وألمي لموتها ، وكل ما عداهما حب كاذب ، وألم عارض .

اني لأنسى البلاد كلها حتى منازل حبي ، وربوع هواي ، ولكني لا أنسى أبداً ذلك الزقاق الضيق ، الذي يمتد من العقيبة في دمشق الى رحبة الدحداح ، لأن سعادتي ولدت في أول هذا الزقاق ، وماتت في آخره حين مات أبي وأمي ...

فيا رب ارحمني بالنسيان ، وأين مني النسيان ؟

اني لأنظر اليها الآن وهي مريضة على فراشها ، كأنما كان ذلك منذ ساعة ، فيبكي قلبي ولا أستطيع أن أكتب عنها حرفاً . لا أحب أن أنشر أحزاني ، حتى لا تلوكها ألسنة الناس ، فليبق الألم في صدري أحمله وحدي ... أنا لا أصدق أن هذه السنين السبع قد مرت على ذلك الحادث ... أأنا أعيش سبع سنين لا أرى فيها أمي ، وقد كنت آلم ان غبت عنها يوماً ؟ أأعيش وهي نازحة لا تعود بعد عام ولا عشرة ، لا تعود قبل يوم القيامة ؟

اللهم صبراً فاني والله ما أطيق الصبر !

يقولون ان المصيبة تبدأ صغيرة ثم تكبر ، ولكن مصيبتي بأمي تنمو في نفسي كل يوم !

لم أعد أجد في الحياة ما يغريني بها ، ويرغبني فيها ؟ وماذا في الحياة؟ كل لذة فيها مغشاة بألم ، فيها الربيع الجميل ، ولكن فيه بذور الصيف المحرق ، والشتاء القاسي • وفيها الحب ، ولكن لذة الوصال مشوبة بمخافة الهجر • وفيها الصحة والشباب ، ولكنهما يحملان الهرم والمرض• فيها الغنى ، ولكني ما عرفته وما أحسبني سأعرفه أبداً •

لقد كرهت الحياة ، وزادها كراهة اليّ هؤلاء الناس ، فلم يفهمني أحد ولم أفهم أحداً • ان حزنت فأعرضت عنهم مشتغلاً بأحزاني قالوا ، متكبر ، وان غضبت للحق فنازعت فيه قالوا ، شرس ، وان وصفت الحب الذي أشعر به كما يشعرون قالوا ، فاسق ، وان قلت كلمة الدين قالوا ، جامد ، وان نطقت بمنطق العقل قالوا ، زنديق ، فما العمل ؟ اليك يا رب المشتكى فما لي في الدنيا بعد أمي صديق !

تلك هي التي كانت تقبلني على علاتي ، والناس لا يقبلون الاّ محاسني • تلك التي كانت تحبني أنا ، والناس يحبون أنفسهم فيّ • تلك هي الحبيبة الوفية التي لا تهجر ولا تخون • تلك هي دنياي ، فوا أسفي ، ان دنياي قد احتواها التراب !

لم يبق من آثار هذا العالم الحافل بالاخلاص والحب الاّ قبر منعزل وساقية صغيرة ، تميل عليها شجرة صفصاف ، وهذا كل شيء •••
اني لأستطيب ذكرى هذه الشجرة ، وأحنّ اليها • ان حركات غصونها لتحرك في نفسي عالماً كاملاً ولكنها لا تبالي ذكرياتي ولا تحفلها • انها قائمة تحنو على اللص الفاتك ، كما تحنو على المحب الثاكل ، وتؤوي المجرم الهارب ، كما تؤوي الشاعر المتغزل • فما أضيع ذكريات المحبين عند الطبيعة ، وما أضيعها عند الناس !

لقد انصرف عني السيد حيدر الجوادي ، ونام عني أصحابي ، وتركوني أتجرع غصص آلامي وحيداً ، فمن هو الذي يعطف عليّ ،

ويشاركني حمل الآلام ؟ لقد أيست من الطبيعة ومن الأصحاب ، فهل تسعدني أنت يا أيها المحسن المجهول الذي لا أعرفه أبداً ؟ أنت يا من يجوز مع الشمس بمقبرة الدحداح يزور حبيباً له طواه الرمس ، هل تمن على غريب متألم فتحيي عنه هذه البقعة وتعطف على ذكريات له فيها ، هي أعز عليه من الحياة ، لأنها كانت جمال الحياة ؟ هل تترفق في سيرك وتتئد وتعلم أن في هذه الرمال التي تطؤها أطلال قلب كان من قبل عامراً سليماً ... ترفق فانك لو ملكت حاسة تدرك بها الذكريات لرأيت في هذه البقعة ما بين رمالها وترابها ، بقايا قلب محطوم ، بقايا دامية حزينة شاكية ، ولسمعت نشيجها .

ما تصدع هذا القلب من هجر الحبيب ، ولا هدته أحداث الغرام ، ولكن عصفت به عاصفة من موت الأم فهدت أركانه ، فأسكب على بقاياه قطرة من الدمع تحيا بها ساعة ، أو قل كلمة تسعد بها روحه الحزينة ، ثم توجه الى القبر المحبوب ، الى قبر أمي وأبي أيها الصديق المجهول ، فأسأل الله لساكنيه الرحمة والغفران ، فما بقي لي بعدهم أحباء ، ولا بعده دنيا ...

لقد تركت تحت أقدامك قلبي وحبي يا أيها المحسن المجهول ، فارفق بهما . أسعد هذا اليتيم الضعيف ، وان كان الناس يدعونه شيخاً .

ربِّ ، رحمة لهذا اليتيم الضعيف ، ابن الثلاثين !

« ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ ، ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً » .

* * *

في الكتاب

أذيعت سنة ١٩٥٩

نويت أن أجعل هذا الحديث ليوم الطفل ، فصحت النية ولكن لم يتم المراد .

أردت أن أتكلم فيه عن مشاكل الطفولة اليوم ، فكان عن ذكريات طفولتي أنا أمس ، وأردته موعظة وعبرة ، فجاء قصة وذكرى ، والقلم قد يجمح بيد الكاتب أحياناً ، كما يجمح الفرس بالفارس ، فيمشي حيث يريد هو ، لا حيث يريد صاحبه .

وذلك أنني قعدت لأكتب هذا الحديث ، وأنا لم أعدّ عدّته ، لأن الوقت ضاق بي ، وأعجلني الموعد ، فشرعت وما ركزت أسس الفكرة ، ولا بيّنت مسالك القول ، وأخذت القلم أنتظر ما يفتح به عليّ فما فتح عليّ باب القول ، ولكن فتح باب الغرفة ، ودخل (مؤمن) الصغير ، ابن بنتي ، وهو محمر العين ، سائل الدمع على الخدين ، ينشج نشيجاً مؤلماً ، فظننت أن قد أصابه شيء ، ووثبت أسأله : مالك ؟ هل وقعت ؟ فهز رأسه ، قلت : هل ضربوك ؟ فهزّ رأسه ، قلت : مالك ؟

فأجاب بصوت مختنق بالبكاء ، تقطعه الزفرات ، قال :

ــ ادُّو (أي جدُّو) ! قلت : نعم .

ــ قال : لوح ...

ــ قلت : لوح ؟ لوح شوكلاطة .

ــ قال : لأ ، لوح دَسِهْ ، أمان .

فلم أفهم ، فجاءت خالته الصغيرة (يمان) تترجم عنه ، قالت بلسانها الناقص :

ـ بدُّو لوح أدّسة ، مع أمان .

ـ قلت : للمدرسة مع أمان ؟

فأشرق وجهه وسكت ، وقال : لوح دسه أمان .

ـ قلت : وتبكي من أجل المدرسة ، أقعدهنا أحسن ، بلامدرسة...

فلما سمع ذلك ، صرخ من كلمتي صرخة مَن قرصته نحلة ، وعاد يبكي ويعول ، فهدأته ووعدته ، حتى سكت ، وجعلت أعجب منه اذ يبكي شوقاً الى المدرسة ، وأذكر كيف كنا نبكي نحن خوفاً منها وكرهاً لها .

وكرّت بي الذكرى الى سنة ١٩١٤ الى أول خطب من خطوب الدهر نزل بي ، لا أعني الحرب العامة فلم تكن الحرب قد أعلنت ، وما كنت يومئذ لأفقه معنى الحرب أو أبالي بها ، ولكن أعني ما هو أشدّ وأفظع ، أشدّ عليَّ أنا ، ذلك هو أول دخولي المدرسة ، لقد كان يوماً أسود لا تمحى من نفسي ذكراه ، ولاأزال الى اليوم ، كلما ذكرته أتصوّر روعه وشدّته ، لقد كرّه اليَّ المدرسة وترك في نفسي من بغضها ذخيرة لا تنفد ، ولقد صرت من بعد معلماً في الابتدائية ومدرسا في الثانوية ، واستاذا في الجامعة ، وعلّمت الكبار والصغار ، والبنين والبنات ، وما ذهب من نفسي الضيق بالمدرسة ، والفرح بالخلاص منها ، والانس بيوم الخميس واستثقال يوم السبت ، وما ذهبت الى المدرسة مرّة الاّ تمنيت أن أجدها مغلقة أو أجد فيها اضراباً يعطل الدروس .

لقد أخذني جدّي معه ذلك اليوم الى جامع التوبة ، فصلى الصبح ولبث حيناً ، ثم أدخلني باباً يقابل الجامع ، وكنت في ضياء الصباح ، وسنا الشمس ، فلبثت في ذلك المكان دقائق وأنا لا أبصر ما فيه ، ولكن أنفي لمس رائحة العفنة المنتنة ، ونشق هواءه الآسن ، ثم أبصرت المكان ، فاذا هو غرفة فسيحة فيها عشرات من الاولاد ، قاعدون على الارض ،

يهتزون ويتمايلون ، يحملون في أيديهم كتباً ينظرون فيها ، ويصوتون أصواتا متنافرة كأنها دويّ النحل منقولا من مكبر للصوت ، وتحتهم دكة واطية من الخشب تنتهي قريباً من الباب وأمامها أرض مكشوفة موحلة ، قد صفت الى جوانبهـا القباقيب ، والى اليسار عجوز مخيف على كرسيّ عال ، بيده عصا طويلة يضرب بها الأولاد ينال بها من كان في آخر المكان ...

هنالك تركني جدي ، فما أغلق الباب وراءه وذهب حتى أحسست كأن قلبي قد ذهب معه ، وكأن قد أُغلق عليّ قبر ، وعراني من الوحشة والفزع ، ما لا أزال أرتجف الى الآن كلما ذكرته ، هذه هي المدرسة التي كانت في أيامنا .

كان على التلاميذ أن يكونوا فيها بُعَيْد مطلع الشمس ، وأن يبقوا فيها الى قُبيل الغروب ، قاعدين لا يتحركون ولا يتكلمون ، ولا يكفّون عن القراءة والتمايل ، يحملون أكلهم معهم فيأكلون وهم قاعدون ، واذا عطشوا قاموا الى البركة فوضعوا أفواههم في مائها الملوّث وعبوا مثل الجمال ، واذا كانت لهم حاجة ذهبوا الى مراحيض المسجد ، والمكان مغلق دائماً ، لا يفتح له باب ولا نافذة ولا يجدّد له هواء ، ولا يمضي على الولد فيه يوم لا تصيبه فيه من الشيخ بليّة ، خفقة بالعصا على رأسه من بعيد ، أو ضربات على رجليه بالفلقة من قريب ، أو (مونولوج) كامل من أبرع الهجاء يقرع أذنيه ...

ولقد كان من المناظر المألوفة كل صباح ، منظر الولد (العصيان) ، وأهله يجرّونه والمارة وأولاد الطريق يعاونونهم عليه ، وهو يتمسك بكل شيء يجده ، ويلتبط بالأرض ، ويتمرّغ بالوحل وبكاؤه يقرّح عينيه ، وصياحه يجرّح حنجرته ، والضربات تنزل على رأسه ، يساق كأنه مجرم عات ، يرى نفسه مظلوما ويرى الناس كلهم عليه حتى أبويه ، فتصوروا

أثر ذلك في نفسه ، وعمله في مستقبل حياته !

وما عجب أن تبكوا يا أولادي رغبة في المدرسة وقد صارت لكم جنات ، وما عجب أن نبكي منها وقد كانت علينا جحيماً .

هي لكم مائدة ، عليها الطعام اللذ الخفيف ، في أجمل الأواني ، وحولها الزهر والورد ، ومن ورائها الموسيقى ، وقد كانت لنا طعاماً دسماً ثقيلاً ، في أوسخ آنية ، وأقبح منظر .

ولكن من استطاع منا أن يأكل أكثر ، وأن يهضم ما أكل ، وأن ينتفع به ؟ أنتم على كل هذه المشهيات ، أم نحن على كل تلك المنفرات ؟!

أنتم تلبسون للمدرسة أبهى الثياب ، ونحن كنا نذهب والله بثوب النوم (السركس) الذي لا يصل لأكثر من نصف الساق ، وفوقه رداء (جاكيت) الأب ، الذي رث وبلى فحوّلته الأم وصيرّته لنـا ، وفي الأرجل القبقاب أو الكندرة المصنوعة في المناخلية ، ولقد صرت في الثانوية وماعرفت دكان الخياط انما ألبس ما تخيط أمي رحمها الله . وما كان فينا من اتخذ عقدة (كرافتة) حتى بلغنا البكالوريا فأين هذه العنايـة التي تلقونها مما كنا فيه ؟

ويراجع التلميذ اليوم درسه في داره على الكهرباء ، وقـد يكون لأولاد الأغنياء مكتب خاص يكتبون عليه ، ونحن كنـا نقرأ على ضوء الكاز نمره (٣) ، وربما هبت عليه نسمة هواء فتحـرك ، فرسم على الجدار تهاويل كأنها صور الجن ، وربما (شحّر) وربما انقلب وسال زيته فأفسد الأوراق والكتب ، لم تكن هذه الكهرباء ، الا في الطرق وفي قليل من البيوت ، ولقد كانت اسرتنا من أسبق الناس الى الاستضاءة بها ، اذ مد الى دارنـا شريط من دار الجيران سنـة ١٩١٦ ، وعرفت ضوء الكهرباء واستمتعت بها ، ولكنها سبّبت لي (فلقة) حامية ، ذلك

أني ذهبت الى المدرسة أحدث التلاميذ أن في دارنا ضوءاً يشعل بلا كبريت ، وينطفيء بلا نفخ ، ووصفته لهم ، فعارضني أحدهم وكذبني ، فشتمته فشتمني فضربته ، فحكم عليّ الاستاذ بفلقة لا أزال أذكر طعمها ...

ويمرض الأولاد اليوم فيجدون الطبيب الحاضر ، والدواء الموجود المسهل قطعة شوكلاطة أو كأس ليموناضة والعلاج حبة صغيرة أو جرعة لذيذة ، ونحن كنا نمرض فلا يكون الدواء الاّ الحقنة والسنامكي وزيت الخروع ، ولا يأتي الطبيب الاّ اذا أتى الخطر ، وما كان للطبيب كبير أثر ، لأن نصف الطب الذي نستمتع به اليوم ، وثلاثة أرباع الأدوية التي نستشفي بها انما عرفت بعد التاريخ الذي كنا فيه أطفالا ، فكانت طفولتنا محرومة من الوقاية ومن العلاج .

وأنتم تعيشون في دمشق الجديدة ذات الشوارع الفساح ، والحدائق الكثيرة ، وعندكم في المدرسة السينمات والمسليات ، وعندكم في الصيف المصايف والجبال ، ونحن كنا نعيش في تلك الأزقة الضيقة ، نخوض الشتاء في الوحل ، ما كان في دمشق شارع واحد وأول شارع شق فيها (شارع جمال باشا) شق أمامنا ، وما كنا نعرف من المصايف الا أياماً تقضيها في بيوت الفلاحين في الجديدة وبسيمة ، وقلّ من يذهب اليهما ، أما السينمات فأنا أحلف أني حملت البكالوريا ، وذهبت الى مصر للدراسة العالية سنة ١٩٢٨ وما عرفت ما هي السينما .

* * *

فاذا بكى هذا الصغير ، وبكى أترابه شوقا الى المدرسة ، واذا تزاحم الآباء عليها ، فلا عجب ، ولا عجب اذا كنا نبكي نحن خوفاً من المدرسة ، واذا كنت وأنا معلم في القرى أنفذ قانون التعليم الاجباري لاجبار الآباء على ارسال أبنائهم اليها .

ولكن عندي كلمة لكم يا أولاد ، أرجو أن تسمعوها وتفهموها ، واذا لم تستطيعوا فهمها ، فلتتلطف الأم أو فليتكرم الأب بترجمتها لكم .

انكم تتمتعون بخيرات كنا نحن محرومين منها ، وتستمتعون بمتع ما كنا نسمع بها ، وما هذا الذي عددت لكم الا الأقل الأقل منها ، ولكنا على ذلك كله كنا خيراً منكم .

كان آباؤنا يضربوننا ، على حين نجد الآباء اليوم يدللون أولادهم، ويلينون لهم ، وكنا نرى طاعة والدينا ، واحترام معلمينا ، فرضاً علينا ، فما كان منا من يجرؤ على مخالفة أمر أبيه ، ولا كان في الآباء من يرضى لنفسه أن يخالف ابنه أمره ، وكان للأب سطوة وسلطان ، لا حكم في الدار الا حكمه ، ولا كلام في الاسرة مع كلامه ، وكنا نقبل يده في الذهاب والاياب ، والقومة والقعدة ، ونجلس في مجلسه خاشعين ساكتين ، لا نتكلم حتى يسألنا ، ولا نخرج حتى يأذن لنا ، وكان الواحد منا يبلغ مبلغ الرجال ثم لا يتأخر في العودة الى الدار عن المغرب ، ولا ينكر على أبيه أن يشتمه علانية أو يضربه في الملأ ، وكنا نبر أمهاتنا ونعلم أن حقهن من حق الله ، وأن برهن من بره ، أما الاستاذ فماكان منا من يفكر في ازعاجه أو التهاون بأمره ، فهل يعرف أبناء اليوم لآبائهم وأمهاتهم ، وهل يعرف تلاميذ اليوم لمعلميهم وأساتذتهم مثل هذا الحق؟ وكانت دروسنا أصعب ، وبرامجنا أحفل وأملأ ، وكنا مع ذلك أكثر منكم اقبالا عليها ، واشتغالا بها ، ونجاحاً فيها ، وكنا نقرأ فوقها كثيراً من كتب العلم ولقد قرأت عشرات من كتب الأدب واللغة والدين وأنا لا أزال في الثانوية ، وكنا نؤم مجالس العلماء في المساجد وفي البيوت ، فنجمع الى علم المدرسة علوم الدين وعلوم اللسان ، ونحفظ من بليغ القول ، ونروي من طريف الأخبار الشيء الكثير ، كنا اذا أردنا التسلية

قرأنا قصة عنتر والملك سيف وحمزة البهلوان وهي كتب أدب وفروسية وبطولة ، لا نعرف هذه المجلات ، ولا هذه القصص ، ولا هذه الأفلام، ولم يكن في أيامنا بحمد الله شيء من ذلك ، ما كان الا المجلات الدسمة النافعة كالمقتطف والهلال (القديمة) ، وما كان في دمشق الا داران للسينما تعرض فيهما الافلام الصامتة السخيفة ، ولم يكن في الدنيا سينما ناطقة ، ولم يكن يدخلهما أحد من أهل المروءات .

لقد كان في دمشق ثانوية واحدة ، هي مكتب عنبر ، ولكن هذه الثانوية الواحدة أخرجت أكثر رجالات الأمة ، ولم تكن تمضي سنة لا تقدم فيها كاتباً أو شاعراً أو نابغاً في الطبيعة أو في الرياضيات أو موسيقياً أو مصوراً أو رياضياً قوي الجسم ، وعندنا اليوم في دمشق أكثر من عشر ثانويات رسمية للطلاب ، فأين الأدباء والعلماء ورجال الفن الذين خرجوا منها .

* * *

وبعد فهل تروني كتبت شيئاً يصلح ليوم الطفل ، لست أدري ، ولكنّ الذي أدريه أني قلت حقاً ، وأنه اذا كان يوم الاثنين القادم يوم الطفل العالمي ، وكانت الحكومة قد احتشدت له ، واستعدت وعملت فان كل يوم للأب هو (يوم الطفل) عليه أن يوليه فيه من نفسه ومن ماله ، ما يجعل من طفل اليوم اللاعب اللاهي ، رجل الغد الذي ينفع نفسه والناس ينفع بعلمه وبخلقه ، وأن يمهد له بحسن التربية طريق السعادة في الدارين، والنجاة في الحياتين ، والسلام .

* * *

في معهد الحقوق

نشرت سنة ١٩٣٢

أمس ... قبل أن تبدأ الدروس .

كان الصف الثالث[1] هادئاً . والطلاب الذين جاءوا الى المعهد في مثل هذه الساعة المبكرة من شهر الصيام — وقليل ما هم — يحفّون بالمدفأة على نظام غريب ، واحد على كرسي الاستاذ وقد ألقى برأسه بين دفّتي مجلة ، وآخر جالس بجانب المجلة على منبر الصف العريض ، يقرع برجليه جانبه ، فيصيح به جاره الذي جذب كرسي المعيد ، فوضعه حيال المدفأة ، وجلس عليه ماداً رجليه الى وجه آخر جالس على المقعد :

— حاجه بقى !

وتمر دقيقة يتبادلان فيها (الشتائم الودّية) المعروفة . ثم يعود الهدوء كما كان ، حتى لا تسمع في قاعة الصف الواسعة الا صلصلة حديد الملقط في المدفأة ، أو قرقعة جريدة الأحرار في يد طالب ، أو سعال آخر في نغمة مزعجة يكون قرارها صوت أحد الطلاب هاتفاً به :

وآخرتها ؟!

واستمرت الحال على ذلك ربع ساعة ، جاء فيها بعض الطلاب ، فجلسوا حول النار صامتين ، بعد أن ألقوا على الحاضرين تحية الصباح ...

* * *

(١) كانت دراسة الحقوق من ثلاث سنوات فقط .

ثم ظهر فجأة دويّ حديث في زاوية الصف ، لم يلبث أن استحال الى ضجة هائلة اختلطت فيها الأصوات وتباينت فيها اللهجات ، فأسرع الحاضرون من هنا وهناك يسألون :

ـ الطالب الشامي : شو ، شو الحكاية ؟

ـ الحلبي : أشو خبر خيُّو ؟

ـ العراقي : شنو هي الكصّة (القصة) .

ـ المصري : طَب° ... ما تقولوا ايه الحكاية ؟

وبعد لأي ما ... استطعنا أن نطفيء لسان النار ، وبدأ الحديث يدور بيننا ، بهدوء واتّساق ، فقال السيد خ .

ـ أرجوكم أيها الاخوان ... لنتكلم بهدوء ، هل تريدون أن تسمعوا ؟

ـ ماذا ؟

ـ أنّ أربعين ورقة[1] ندفعها في هذه الأزمة الخانقة ، رسماً للشهادة ، أمر لا يطاق ، فيجب أن نتوسل بالطرق المشروعة .

ـ لالغاء الرسم .

ـ كلا ... لا تتعجل أرجوك ، ان الغاءه غير ممكن ولكن نطلب انقاصه .

ـ كلام فارغ !

آخر : صَه: ان السيد خ معه الحق .

خ ـ والطريقة المشروعة هي أن ..

ـ أن نرفع عريضة ... أقترح ذلك .

آخر ـ كلا ... ان اقتراحك في غير محله يجب أن نرسل وفداً .

---

(١) كان راتبي وانا معلم ابتدائي يومئذ (٣٦) ليرة في الشهر وكان كيلو الخبز بنصف فرنك .

ــ العريضة أحسن من الوفد •
آخر ــ واذا لم تنجح العريضة •
ــ اذا لم تنجح ؟••• يجب أن تنجح !
ــ منطق ! !
ــ اذا لم تنجح نمتنع كلنا عن دخول الامتحان •
ــ موافق •
آخر ــ بالعكس (غير موافق) فكرة سخيفة جداً •
ــ حافظ على أدبك ••• أرجوك ؟
ــ أنا محافظ على أدبي ، ولكن انت اسحب كلامك •
خ : أنا أسحبه عنه ، لنرجع الى صلب الموضوع •
اننا متفقون على الغاية ، وسنتفق على الطريق التي نصل بها اليها•••
وأرى أن تؤجلوا ذلك الى حين اجتماع الطلاب ، وتسمعوا من الآن القصة :
ــ لا ••• لا نسمعها ، لا نريد أن نسمع قصصاً •
ــ ولا أساطير (ضحك) •
خ ــ انها قصة واقعة وليست أسطورة ثم انها تتعلق بالموضوع •
ــ من كان لا يريد سماعها فليسدّ اذنيه ، تفضل قل القصة •••
سنتسلّى بها ــ على الأقل ــ شهر رمضان تطلب فيه التسلية البريئة •
خ ــ هي قصة طالب في المعهد ، كان منذ عامين ــ أظن أن بينكم من يعرفه ــ هو السيد سلمان الفالح •
أنا أعرفه جيداً ••• رحمه الله •
ــ وهل مات ؟
خ ــ اسمعوا ، سأتلو عليكم قصته ، كان من أذكى طلاب المعهد ، وأعمقهم ثقافة اجتاز فحوص السنتين الأولى والثانية بتفوّق عظيم ، وكان

محل اعجاب الأساتذة والتلاميذ وتقديرهم ، حتى أنَّ المحاضرة التي ألقاها في ردهة المعهد تناقلتها ثلاث من جرائد المدينة ، ولخصتها مجلة المقتطف في مصر ، بعد أن أثنت على صاحبها وتنبأت له بمستقبل باهر .

ـ وكيف مات اذن ؟

ـ كان من اولئك الذين قال عنهم الفيلسوف (وَسَكَتَ يفكر).

ـ اتركه ... مين ما كان . وبعد ؟

ـ الفقراء جيوبا ، الأغنياء نفوسا ، أجل لقد كان فقيراً ، لا يملك من نشب الدنيا وثرواتها ، الاّ هذه الثروة المعنوية التي جاد بها عليه الله . فلما أكمل الصف الثالث ، عرض له رسم الشهادة ، ولم يكن له الى جمعه من سبيل ... فامتنع من دخول الفحص .

ـ باختصار ، جاء الاستاذ !

ـ وبالاختصار ... فقد شعر أنه ضيَّع مستقبله وأنه قد انهار صرح آماله ، فأطلق على نفسه الرصاص في ساعة هياج وانفعال .

ـ مسكين .

ـ مسكين ؟ انه مجنون .

ـ بل أنت المجنون .

ولما وصل (خ) من حديثه الى هذا الحد كان الاستاذ قد دخل الصف ، فأسرع كل الى مكانه ، وعهدوا اليَّ أن أكتب مقالة تكون الخطوة الأولى في سبيل المطالعة بتخفيض « هذا الرسم .. الباهظ » وقد فعلت .

* * *

شهادة ليسانس للبيع

نشرت سنة ١٩٣٣

أنا يا سادتي القراء الكرام ، ليسانسيه في الحقوق من أربعة أيام فقط وقد اتخذت لهذه الشهادة الجميلة الكبيرة المزينة بعشرة أختام وتوقيعات لأصحاب الفخامة والدولة والمعالي ، وما لست أدري ماذا : رئيسي الجمهورية والوزارة ومندوب العميد ورئيسي الجامعة والمعهد .. والداعي ، الفقير اليه تعالى حامل الشهادة ! اتخذت لها اطاراً جميلاً ثميناً حصلت عليه بوسيلة من الوسائل لا أحب أن أكشف سرها للقراء ، ولكن لهم أن يثقوا أني لم أنفق فيها قرشاً واحداً ، وعلقتها في داري في الغرفة التي كان يجب أن تكون غرفة استقبال ، وأن تكون منظمة مرتبة لا كما هي الآن : يضل الداخل اليها بين آكام الكتب المنتشرة فيها ، والتي تدور أبداً كما تدور تلال الصحراء الكبرى ، وينقلب عاليها سافلها كلما فتشت عن كتاب ، علقتها هناك الى جانب أخواتها البكالوريا والكفاءة [1] والابتدائية ... ووقفت سبعاً وسبعين دقيقة خاضعاً أمامها خاشعاً ، وذكرت تلك الأعوام الستة عشر التي أنفقتها في تحصيلها وكان خيراً لي أن أقضيها في حانوت حلاق أجيراً أتمتع بالجمال والمال ، أو ممثلا في جوقة أعيش عيش النعيم والتعظيم ، أو عاملا في مطبعة يدور عليّ الزمان فاذا أنا (صاحب جريدة كبرى) ... أو لو قضيتها في تلاوة الروايات والأقاصيص أنال منها لذة ومتعة ــ اذا لم أنل فائدة ونفعاً ــ

(١) (الكفاءة) لا معنى لها هنا فسموها شهادة (الكفاية) ان لم يكن بد من هذا اللفظ .

وتأملت فيها معظما مبجلا ، وتجرأت فلمستها (أي الشهادة) بيدي في ابتسامة بلهاء ، كما يلمس الانسان تحفة ثمينة ، ليزيد احساسه بها ، أو أثراً مقدساً ، ليتبرك به[1] ...

وجلست بعد ذاك أفكر ماذا أصنع بها ، بعد أن زالت من نفسي رغبة النجاح ، ونشوة الظفر ، وأغلقت الأبواب ، وأطفأت الأنوار ، وأشعلت البخور ... وتلوت أسماء الجن واستصرخت الملك الأحمر والأخضر ، ثم أحرقت الشهادة فخرج من لهيبها مارد طويل ، وقام أمامي في خضوع ... فقلت له :

ـ ما اسمك أيها المارد ؟

ـ ليسانس يا سيدي .

ـ ماذا تقدر أن تصنع ؟

ـ كل شيء يا سيدي : أزحزح لك أصحاب الكراسي الجهال عن كراسيهم ، لتجلس يا صاحب الليسانس عليها .

ـ أتثق من قدرتك على ذلك ؟

ـ نعم يا سيدي على أن تمنع عني عدوي الألد .

ـ ومَنْ هو عدوك أيها المارد ؟

ـ شيطان قوي مرعب ، لا يغلبه أحد ، يقال له (الالتماس) .

ـ لا أقدر أن أمنعه عنك ، فماذا تستطيع غير ذلك ؟

آتيك بالاموال التي كدسها المحتالون والكذابون في خزائنهم ، وأسلمها اليك والى أصحابك (أصحاب) الليسانس .

ـ بارك الله ... هيا اذهب ، هاتها .

---

(١) ليس في الاشياء ما هو مقدس في نظر المسلم يتبرك به للنفع أو للضرر ، حتى الحجر الأسود لا يضر ولا ينفع ، وانما يقبل اتباعا وتعبدا .

ـ ولكني أخاف •

ـ مَن نخاف أيها المارد ؟

ـ شيطاناً قوياً فاجراً ، أعمى له أيدمن نارحيثما ضرب بها ، انفتحت ثغرة الى الجحيم ، ومن رضي عنه هـذا الشيطان ، ملّكه ما يريد ويشتهي •

ـ وما اسم هذا بين الأبالسة ؟

ـ الحظ يا سيدي •

ـ وماذا تستطيع غير ذلك أيها المارد ؟

ـ امنحك يا سيدي الزعامة وانتزعها لك من هؤلاء الجاهلين •

ـ عال عال ••• أسرع •

ـ ولكن أخشى صديق الزعماء ، وهو شيطان بأربعة وأربعين رجلا يمشي الى الجهات كلها في وقت معاً ، ويصيح في الأنحاء كلها : يعيش يعيش •

ـ أعوذ بالله ، هذا شرُّ الأبالسة ••• ما اسمه ؟

ـ التدجيل يا سيدي •

ـ اذن ما جاء بك يا أيها الليسانس الضعيف العاجز ، اذهب من وجهي •

* * *

وبعد فماذا نصنع يا أيُّها الناس بهذه الشهادة ؟

لقد عرضت على أحد المحامين لما لي عليه من الجرأة بأنه استاذي في المعهد ، ليقبلني عنده متمرنا ، فـ ••• أبى !

وقالوا : ان هناك من يقبل المتمرنين ، ولكنه لا يعطيهم شيئاً ، يعني أن المتمرنين يشتغلون على أرواح أمهاتهم ، وينفقون ماء حياتهم ، ويكسرون رؤوسهم وأقدامهم ـ ولا مؤاخذة ـ في اشغال

المكتب الذي يشتغلون فيه ، ليأخذ الأساتذة ثمرة أتعابهم .. لماذا بالله؟ لأنهم أساتذة !... تشرفنا ..

وان ذهبنا نطلب وظيفة قضائية ، وجدنا كل وظيفة مشغولة ، وكل شاغل وظيفة يخشى أن تنزو نزوة في رأس رئيس له ، فيلقيه كما تلقى النواة نزع عنها (حلوها) .

وان تركنا هذا البلد ويممناشطربلد آخر ، أنكروا شهادتناومعهدنا، ولم تغن عنا منهم شيئاً هذه التوقيعات وهذه الاختام .

وان رغمت أنوفنا وعملنا في هذه المكاتب (بلا شيء) ولوجه الله ، على أن نعمل عملا آخر في ذنب النهار ، نشتري بـه خبزنا ، قالوا : لا يجوز .... أي انهم لا يرحموننا ولا يتركوننا الى رحمة الله ، يحسبون أن المحامي المتمرن يشبع ويمتلىء بطنه ، ويكسى ويجد الراحة والدفء اذا أكل المحامي الاستاذ عشرة ألوان ، واتخذ عشر حلل .

* * *

فيا أيها القراء الكرام ... اني أعرض شهادتي ولقبي الكريم للبيع برأس المال (الرسوم والاقساط) ، أما فوسفور دماغي ، وأيام عمري، فلا أريد لشيء منه بديلا ، وأجري على الله .

فمن يشتري ؟... المراجعة في جريدة الف باء الغراء .

شهادة بيضاء ناصعة كبيرة ، خطها جميل ، ذات اطار بديـع ... جديدة (طازة) ! من يشتري ؟

* * *

مشروع مقال

نشرت سنة ١٩٣٥ م

انّ من دأبي اذا كان العيد ، أني أغلق عليّ بابي ، ثم لا أفتحه لداخل الى الدار ، أو خارج منها حتى ينتهي العيد ، الاّ أن تكون صلاة لا خِيَرَة فيها ، أو صديق لابدّ من لقائه ... وأغتنم هذه الأيام في الرجوع الى نفسي ، والأنس بأهلي ، والاقبال على كتبي ودفاتري ، فلما نَدَبني « الاستاذ وحيد ايبش » الى الكتابة في « الشعلة » أجبته ووعدته بفصل اكتبه في أيام العيد ، وأنا متعزِّل متفرِّد ، وأحبِّره له تحبيراً ...

ولكن الشيطان أنساني الاستثناء ، وأمسك بلساني أن أقول : « ان شاء الله » ، وما لم يشأ الله لم يكن ، فلما جلست لأكتب ، سُدَّت في وجهي الأبواب ، وضلَّت عنِّي الموضوعات ، ونفر مني الكلام ، فعدت وكأنني امرؤ يحاول أن يبدأ الكتابة ولمّا يمارسها من قبل ، وعهدي بنفسي أني اذا أردت الكتابة تناولت القلم فأجريته على القرطاس ، فاذا هو يجري قُدُماً حتى أكون أنا الذي أرفعه ، لأقرأ الفصل ، وأضع التوقيع ، وطال بي التفكير وأنا لا أزداد الا انعاطاً وخَرْقاً ، فألقيت القلم ، وعلمت أن قد أُرتج عليّ ... والنفس كالسماء ، تفتح أبوابها ، ويهمي غيثها ، حتى يحيي الله به البلد الميّت ، ويروي به الأرض العطشى ، فتهتزُّ وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ، وقد يغلقها الله ، فتشحّ وتضن بالقطرة الواحدة من الماء ... وعمدت الى شيء ألهو به ، فسألت

أخي ناجي عن درسه الذي يقرؤه وقلت : لعلي أجد فيه موضوعاً أكتب فيه فطفِق يلقي عليَّ كلاماً ثقيلا على السمع ، بغيضاً الى النفس ، ضاق منه صدري وخثرت نفسي ، ولم أفهم منه شيئاً ، ولكني ذكرت أنني سمعته من قبل ، واتضحت الذكرى ، فعلمت أن قد كان ذلك في صف « البكالوريا الثانية » ، وانني استودعته قلبي حتى اجتزت الامتحان ، وأُعطيت الشهادة ، ثم نسيته كما نسيت تلك الاشياء الأخرى ، التي كنا نَهْذي بها في دروس الكيمياء والحكمة والمثلثات والجغرافيا ••• فتركت أخي يُطَنْطِن بهذا الهَذَر الذي يُعلّمه في المدرسة وأقبلت أفكر فيَّ : ما الذي أبقته لي الأيام من هذا البرنامج الطويل العريض ••• الذي أنفقنا فيه من أعمارنا سبع سنين ، هي زهرة العمر ، وهي سنُّ القوة والنشاط ، سنّ الشباب الغريض ، والنفس السامية ••• ما الذي أفدْناه من دروس التجهيز والدراسة العالية ؟ نظرت فاذا أنا قد نسيت كل شيء من الرياضيات ، الاّ أنها علم الكميات وأن هذه الكميات متصلة تبحث فيها الهندسة ، أو منفصلة يبحث فيها الحساب ، وأن من الحساب ما تكون أرقامه حروفاً تدل على أكثر من قيمة محددة ، وهو الجبر ، وان من الهندسة هندسة سطحية ، وهندسة فراغية ، وهندسة نسبية ، وان منها شيئاً لم يفهمه قط بشر ، وهو المثلثات ••• وان الذي أُحسنه من هذا كله هو الأعمال الأربعة التي يعرفها السمان والعطار وكسّار الحطب ••• أما سائر تلك النظريات والدعاوى فشيء عال سام لا يمكث في النفس ، وليس من شأنه أن يمكث فيها وانما سبيله أن « يطير » ! واذا أنا قد نسيت كل شيء من الكيمياء ، الا شيئاً لا طائل تحته ، ونسيت قوانين الحكمة ، ومسائل الجغرافيا ، وما الى ذلك مما درسناه وحفظناه و (شُهِدَ) لنا بأنّا قد أحسناه وأتقنّاه •••

وكل ما أعرفه اليوم ، هو شيءٌ من اللغة والأدب والتاريخ قرأته

بنفسي ، وزاولته بعد خروجي من المدرسة ، أما المدرسة فلم تعلمني الا أسماء العلوم وأوصافها العامة ، ولم أخرج منها الا بالروح التي صبّها فيّ شيوخنا ومعلمونا [١] . انّ المدرسة لا تعلّم التلميذ شيئاً ولكنها تدله على الطريق وترسم له الخُطّة ، أفلا يجب اذن على المعلمين ، أن يدلّوا التلميذ على الطريق السويّ والخطة المستقيمة ، أفلا يجب عليهم قبل أن يعلّموه قوانين الحكمة ، ومعادلات الكيمياء ، ونظريات الهندسة التي سينساها ويجهلها ، أن يعلّموه من هم أجداده ، وماهي حضارتهم ، وأن يصبّوا في نفسه أخلاق العروبة ، وآداب الاسلام ، وأن يحببوا اليه العلم ، حتى يقبل عليه بلذة وشغف ، لا لنيل الشهادة ، والنجاة من الامتحان ، بل ليستفيد منه في ترقية حياته وحياة أمته ، وخدمة بلاده وقومه ... وأن يفهموه « حقائق الحياة » ويعرضوها عليه عارية لا يسترها شيء ؟..

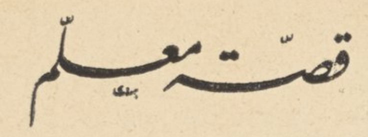
* * *

هذا هو الموضوع الذي كنتُ أنشده وجدته ، ولكن حين لم يبق بدّ من ختم هذا الفصل ، فليبق اذن بلا موضوع وبلا عنوان ...

* * *

---

(١) وقد كانوا رحمهم الله مسلمين شرقيين لم تفتنهم اوربة عن دينهم وعاداتهم !



قصة معلم

نشرت سنة ١٩٣٥ م

قلت لصديق لي أديب :

ــ اني لأقرأ لك منذ عشر سنوات ، فما رأيتك أسففت اسفافك في هذه الأيام ، واني لأشك أأنت تكتب ما تكتبه ، أم يجري بهقلمك وأنت نائم ، فتأخذه فتضع عليه اسمك ؟ فماذا عراك أيها الصديق فأضاع بلاغتك ومحا آيتك ؟

ــ قال : دعني يا فلان دعني ... فان سراج حياتي يخبو ، وشمعتي تذوب ، وما اخالني الآن ميتاً عما قريب ، أو دائراً في الأسواق مجنوناً... انني انتهيت ... بعت رأسي وقلبي برغيف من الخبز .

ــ قلت : أربع عليك أيها الرجل وأخبرني ما بك ، فلقد والله أرعبتني .

ــ قال : وماذا بي الآن أني معلم . اني معلم في مدرسة ابتدائية .. نهاري نهار المجانين ، وليلي ليل القتلى ، فمتى أفكر ، ومتى أكتب ، وأنا أروح العشية الى بيتي مهدود الجسم ، مصدوع الرأس ، جاف الحلق ، فلا أستطيع أن أنام حتى أقرأ مئة حماقة ، وأصحح مئة كراسة ، فأعمي عيني بقراءتها ، والاشارة الى خطئها ، وبيان صوابها ، وتقدير درجاتها ، فاذا انتهيت من هذا كله ــ ولا يقرأ تلميذ من كل هذا شيئاً ، ولا ينظر فيه ــ عمدت الى دفتر تحضير الدروس ، وهو الموت الأحمر ، والبلاء الأزرق ، الذي صبّ علينا هذا العام صباً ، فكتبت فيه

ماذا أنا فاعل غدا في الفصل ، دقيقة دقيقة ، ولحظة لحظة ... وماذا أنا قائل من كلمة ، أو مقرر من قاعدة ، أو ضارب من مثل ، حتى اذا بلغت آخر كلمة فيه ، استنفدت آخر قطرة من ماء حياتي ، فسقطت في مكاني قتيلا ، فحملت الى السرير حملا .. فنمت نوماً مضطرباً ملؤه الأحلام المزعجة ، والصور المرعبة ، فأحسُّ كأن أمامي ركام الدفاتر التي سأصححها غداً ، فلا أنجو منها حتى أبصر المفتش يتكلم من فوق المآذن ، فلا يدع قاعدة من قواعد التربية ، ولا نظرية من نظريات التعليم ، ظهرت في فرنسا أو انكلترا ، الا ّ أرادني على تطبيقها ، في فصل فيه سبعون تلميذاً قد حشيت بهم المقاعد حشواً ، وصفوا على الشبابيك ، ووضعوا على الرفوف ، مما لا يرضى عنه منهج من مناهج التربية ، ولا قانون من قوانين الصحة ، فاذا انمحت هذه الصورة ، رأيت كأني أفهم تلميذاً وهو يصغي اليّ ولا يفهم ، فأكرر وأعيد فلا يفهم ، فأقوم اليه أنظر ما يصنع ، فاذا هو منصرف الى ُدبيرة[1] يربط رجلها بخيط . فاذا شتمته أو أخرجته من الفصل ، ذهب يستنجد القانون فينجده القانون الذي حرّم العقوبات كلها ، وكفّ يد المعلم ، وشدّ لسانه بنسعة ... ولا أزال في هذه الأحلام تنوء بي ، فأتقلب من جنب الى جنب ، أحس كأن رأسي من الصداع بثقل أُحُد ، حتى يصبح الله بالصباح ، فأفيق مذعوراً أخشى أن يسبقني الوقت ، فلا أدري كم ركعت وكم سجدت ، ولا كيف أكلت ولبست ، وأهرول الى المدرسة لا أستطيع التأخر عنها ولو طحنتني الأوجاع ، أو أحرقتني الحمّى ، لأن المعلم لا يسمح له القانون أن يمرض في أيام المدرسة ، وعنده أربعة أشهر « عطلة الصيف » يستطيع أن يمرض فيها ، فاذا خالف ومرض ، حرم الراتب ومنع العطاء[2] !

أغدو الي المدرسة ، فأدخل على تلاميذ السنة الثالثة الأولية ، وهؤلاء

(١) زُلقطة .

(٢) كان هذا قانون تلك الأيام .

هم تلاميذي ، لم يجدوني أهلاً لأكبر منهم ... فلا أنفك أقطع من عقلي لأكمل عقولهم ، وأمزّق نفسي لأرقّع نفوسهم ، ثم لا أفلح في تعليمهم ولا أنجح في تفهيمهم ، ولا أدري من أين السبيل الى مداركهم، فأنفق ساعة كاملة ، أقلّب أوجه القول ، وأستقري عبارات اللغة ، لأفهمهم كيف يكون (الاسم هو الكلمة التي تدل على معنى مستقل في الفهم وليس الزمن جزءاً منه) فلا يفهمون من ذلك شيئاً ، ولا أقدر أن أطرح هذا التعريف السخيف أو أستبدل به ، فأهذي ساعة ثم أقول : مَن فهم ؟

فيرفع ولد أصبعه . فأحمد الله على أن واحداً قد فهم ، وأقول :

– قم يا بني بارك الله فيك ، فأخبرني عن معنى هذا التعريف .

– فيقول : يا استاذ ! هذا داس قدمي .

فأصيح به : ويحك أيها الخبيث ! اني أسألك عن تعريف الاسم ، فلماذا تضع فيه قدمك ؟ ألم أقل لكم أن هذه الشكاوى ممنوعة أثناء الدرس ؟

– فيقول : ولماذا يدوس هو على رجلي ؟!

– فأصيح بالآخر : لِمَ دست على رجله يا شيطان ؟

– فيقول : والله لقد كذب ، ما دست على رجله ولكن هو الذي عضّني في أذني فأغضب وأصرخ في وجهه :

– وكيف يعضك وأنا قاعد هنا ؟

– فيقول : ليس الآن ، ولكنه عضّني أمس .

ويتطوع العفاريت الصغار للشهادة للمدعي وللمدعى عليه ، ويزلزل الفصل ، فأضرب المنصة بالعصا ، وأسكتهم جميعاً مهدداً مَنْ يتكلم بأقسى العقوبات ، ولا أدري أنا ماأقسى العقوبات هذه ؟ ... فيخنسون ويبْلسون فأعود الى الدرس فاذا هو قد طار من رؤوسهم ، على أنه ما استقر فيها قط !

وينفخ في الصور ، فتقوم القيامة ، ويخرج الأولاد الى الفرصة ، ثم نرجع الى درس القرآن . فأقول :

ــ من يحفظ سورة الفاتحة ؟

ــ فيتصايحون : أنا ... أنا ... أنا .

ــ سكوت ! واحد فقط ... اقرأ أنت .

ــ الحمد لله رب العالمين ... اياك نعبِد .

ــ فأقول : اياك نعبُد .

ــ فيقول : نعبِد .

ــ ويحك : نَعْبُد .

ــ فيقول : نَعْبِد .

ــ انتبه يا بني : نَعْ بود .

فيقولها .

ــ حسن . قل نعبُد .

فيقول : نعبِد .

فلا نزال في نعبُد ونعبِد حتى ينتهي الدرس . ولا يلفظونها الا بالكسر لأنهم حفظوها من السنة الأولى خطأ .

* * *

ولا أزال في هذا البلاء بياض نهاري ، ولا يأتي المساء وفيّ بقية من عقل ، أو أثر من قوة ، ثم لا أنا أرضيت الوزارة ، ولا أنا نفعت أبناء المسلمين ، ولا أنا انصرفت الى مطالعاتي وكتابتي .

وهذه مكتبتي لم أدخلها منذ أول العام المدرسيّ ، وهذه مشروعات المقالات والبحوث التي أكتبها ، وهذه مسوّدات الكتاب الجديد الذي أؤلفه مبثوثة في جوانب الغرفة ، ضائعة مهملة . أفتلومني بعد ، على أني لا أجوّد في هذه الأيام ؟ قلت : هذه والله حالي فلست ألومك ، فرّج الله عني وعنك !

* * *

الى حلبون

نشرت سنة ١٩٣١

سألتني أن أحدثك عن رحلتي الى حلبون ، وتالله ما عجبت لسؤالك عجبي من تسميتك مثل هذه الزورة القصيرة رحلة ، انما يرحل الناس يا صاحبي الى باريز أو لوندره لا الى حلبون ؟.. وانما يدوّن الناس قصة فيها لذة أو فائدة وما في قصتي شيء من ذلك ، وما هي بالتي تستحق التدوين ، ولكنك أصررت عليّ فكتبتها لك ، وما أدري ماذا تريد أن تصنع بها ؟ وأخاف أن تتلوها على الناس أو تنشرها بينهم فتفضحني بها ، وما كتبتها لتنشر أو تتلى بل لتقرأها أنت وكفى !

* * *

أنشأت الحكومة في حلبون مدرسة ابتدائية ، كانت في نظر (الحلابنة) أعظم من جامعة السوربون في رأي الباريزيين ، واختارت لها استاذاً من أصدقائنا الشباب ، فدعانا لنراها معه فلبينا الدعوة شاكرين مهرولين ؟؟

كنا يا صاحبي ثلاثة : الاستاذ أعني استاذ الجامعة الحلبونية (١) وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره ، لطيف المعشر ، فكه الحديث ، تجلس اليه ساعات طويلة فلا تشعر بملل ولا تحس الاّ الحديث الطلي المفيد .

وأنا ...

والثالث صديق لنا شاعر ، وهو بيت القصيد من قصتنا ، وأحسبك تفهم من كلمة شاعر كثيرا من صفاته وأطواره . فهو يرى العالم كله

(١) وقد حقق الله ذلك فصار اليوم الدكتور حكمة هاشم مدير الجامعة .

فكرة بديعة ، أو خيالة بارعة ، أو صورة فاتنة ، ولا يني يحدثك عن الحب والجمال ، والذكرى والأسى ... يأتيك بصور (لهوغو) و (لامارتين) الفرنسيين ، وفكر (لملتون) و (بيرون) الانكليزيين ، وأحاديث لـ (شيلر) و (كوته) الالمانيين ، وآراء لداتتي ولومبروزو الايطاليين ، وحكما لتولستوي الروسي ، وفلسفات لطاغور الهندي ، ليس عند واحد من كل هؤلاء علم بها ، وما هي الا بنت ساعتها أخرجها رأس الشاعر الشاب .

❋ ❋ ❋

كان موعدنا للرحيل دار الشاعر ، نلتقي فيها في الساعة الثامنة، فأتيناها على الميعاد ، فاذا صاحبنا ينظم قصيدة .

حثثناه على الاسراع ، وألححنا عليه ، فأجابنا وأسرع ولكنه لبس ثيابه في نصف ساعة ، وقرأ لنا القصيدة مرتلا منغماً في ساعة ، ووصف لنا رواية شهدها في ساعتين . فخرجنا من البيت الظهر فقال لنا الشاعر: الى أين تذهبون ؟ قلنا الى السيارة . قال : هيهات ، انني لم أشتر حوائجي بعد ، انني أريد خبزاً ولحماً وبصلا وفجلا . قلت : وأنا أريد فراشاولحافاووسادةوسريرا قال : ولم ؟ قلت : لأنامفاذا انتهيتأيقظتني! وفارقته على أن نلتقي بعد ساعة . عدت بعد ساعة فاذا هو جالس في زاوية البيت ، واذا هو صامت حزين ، فقلت في نفسي : ماله ؟ أخسر أمواله ؟ أضاعت أشعاره ؟ أهدمت آماله وسألته : هل اشتريتالحوائج؟ فقال : لا ... ولكن أمرا محزنا وقع لي .

ـ وما هو ؟

ـ دجاجة مسكينة سقطت من السطح فكسرت رجلها ، فأنا جالس أنظم فيها مرثية . فقلت : يا ضلالة من يتبع شاعرا ... أبهذا أضعت ساعتك ؟.. قم قم .. فاشتر الحوائج .

❋ ❋ ❋

أسرعنا الى السيارة فاذا هي من سيارات النقل ، واذا السيارة الصالحة قد سافرت ، فلم نجد بدأ من ركوبها ، وليس فينا من يقدرعلى استئجار سيارة خاصة . أنا أفلس خلق الله ولا فخر ، والاستاذ ليس من الموسرين ، والشاعر مشغول عن عد دراهمه والتفكير فيها ، بالبكاء على الفقيدة الغالية : رجل الدجاجة !

كانت السيارة معدة لركوب تسعة نفر ، ولكنهم أركبوا فيها خمسة عشر وخروفا سمينا ، وفراشين وأربعين غرسة مشمش ، وسدوا شبابيكها جميعا خشية البرد ، فدفنا فيها أحياء ، أما مولانا الشاعر فعزم علينا أن نؤثره على أنفسنا بالمكان الأجود (جانب السائق) حتى لا يشغله الازدحام عن اتمام معلقته . ولقد نسيت أن أقول لك ان مع كل راكب سلة أو سلتين وضعوها في الاحضان وبين الأرجل ، ثم سارت السيارة وهي تقوم بنا وتقعد ، فاذا قامت وصلت معدنا الى حلوقنا وضربت رؤوسنا السقف ، وان قعدت آذتنا في مقاعدنا أ جلّك الله ، واذا دارت أو تلفتت ترنحنا ذات اليمين وذات الشمال . فلا ترى الا قائما وقاعدا ورائحة الخروف ، وعطر البصل والثوم يملأ هذا المجلس المبارك ... وفوق هذا كله فتح السائق فمه ، والخروف حلقه ، وراح ذاك يغني ، وهذا (يجعّر) .

وأخيرا وصلنا بالسلامة أو شئت بالموت الأحمر الى التل ، ثم حملتنا السيارة ، وقد قذفت بمن فيها هناك الى (منين) ، دار الشاعر الكريم فدخلت منزله ، واستلقيت على الأرض ، أستعيد ما زهق من روحي ، وأتنشق الهواء النقي بعد أن لبثت ساعة أتنشق زمهرير جهنم، ولولا هذا ، ولولا كاس من شراب الليمون أمر لي بها صديقنا الشاعر لمتُّ لامحالة . صحوت فرحت أتمثل بقول الأول :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

واذا بالشاعر يصيح بي :

أيُّ عين هذه ، سخنت عينك ! لقد قطعت شق الطريق السهل ، وبقي شقه الصعب ؟ ؟

فصحت : ولكني لا أقطعه في سيارة . لا أقطعه في سيارة . أفهمت؟ أبداً .. أبداً .. لا أركب السيارة ؟

فقال : اربع عليك وهوّن على نفسك ، انك ستقطعه راكباً على جحش أو بغل .. فقلت: الحمدلله . والله للحمار خير من هذه السيارة...

وأسرع الاستاذ الى الهاتف فهتف بأهل حلبون أن ابعثوا الينا ثلاث دواب ، للاستاذ ولضيفيه .

واقترب الشاعر من الهاتف ، فقال : ولتكن خيولا عربية كريمة مطهمة حسنة السروج ... والوحى الوحى ... السرعة السرعة ... العجل العجل .

ولكنهم أغلقوا في وجهه الطريق ، لأنهم حسبوا ما يقول من رقي الجن .. فغضب وصاح : آلو . آلو . آلو يا أولاد الكلب يا حمقى آلو ... فلم يردوا عليه فعزم على الانتقام منهم اذا وصل حلبون ، اما أنا فأزمعت على تملقهم والتزلف اليهم ، ليحملوا جثتي الى أهلي اذا رمح بي البغل أو (عنفظ) فكسر رأسي أو دق عنقي ...

ثم عدنا الى منزل الشاعر في منين .

عمّ أحدثك ؟ أنك اشترطت عليّ أن أوجز ، ومثل هذا الحديث من حقه أن يتبسط به ويسهب .. ولكن ماذا أصنع بشرطك ؟

لبثنا ساعة في منين رشفنا فيها من راح الجمال ، ما أنسانا شقاء السيارة ، وغرائب الشعراء ، جلسنا على سطح المنزل مجلسا نشرف منه على ذلك الوادي الفاتن ، وكانت أشجاره عارية ، تبدو من فرج أغصانها ، عين منين ، وهي تجري في الوادي ، تتلوى وتميل تتدفق أمواجها ، فيعلوها الزبد ، ثم تلامسها أشعة الشمس فترى منها اذ تنعكس على تلك الخمائل

الخضراء ، منظرا عجبا ، نثار الذهب على بساط من سندس والجبال الشماء تحيط به ، كأنها هي أم رؤوم تحدب على طفلها .

وكأنما هذه الجبال تطل علينا تحدثنا عن الماضي ، وتصف لنا آثار الروم في بطاحها ، وقصور الغساسنة البلق المنتشرة على سفوحها ، ثم تخبرنا عن المأمون اذ يجر هذا الماء الى قاسيون ، فيبلغ به قمته [1] ، وتفيض علينا من هذه الاخبار ، فنحس كأن أرواحنا تخرج من قيود الزمن ، ثم تتخطى أعناق القرون وتتغلغل في أودية الماضي السحيق .. فتستغرق في هذا الحلم ولا تكاد تفيق منه ، لولا أنها سمعت هذه الجبال تقهقه ساخرة من الانسان ، هازئة من غروره ، يرى نفسه شيئا مذكورا ، ويحاول أن يتكلم بعقله عن كل شيء ، وما هو بقادر على فهم نفسه ، وما عمره في هذه الدهور التي مرت من قبله كأنما لا أول لها ، وتمر من بعده كأنما لا آخر لها الا كحبة من الرمل في صحراء جدباء أو هو أصغر من ذلك ...

ومالي ولهذه الأفكار أتعبك بها ؟... اني راجع الى حديثي :

جاءنا الشاعر بطعام لذيذ كنا أحوج ما نكون الى مثله فحملنا عليه حملة صادقة وحددنا أسناننا ، وشمرنا عن سواعدنا وهجمنا ، فلم يثبت منه شيء أمامنا .

ثم قمنا نجول في منين ، نمشي في الشارع الفرد الذي يمتد على سفح الجبل حتى يصل الى العين ، فيمر فوق منبعها على جسر رفيع الجنبات متين الدعائم ، تنظر اليها منه فترى صفحة من الماء الزلال كأنها مرآة أزلية أقامها الاله جل جلاله لتنعكس فيها العواطف والتأملات ويبدو فيها خيال الحب ، وطيف الذكرى ... ثم ملنا الى الغرب فوقفنا عند مفترق الطرق نراقب طريق حلبون ، ننظر هذه الخيول المطهمة وهذه السروج المحلاة بالذهب ، التي تفضل بطلبها مولانا الشاعر .

(١) قول مشهور لم أتثبت صحته والغالب انه لا أصل له.

وراح الشاعر يحدثنا عن حلبة السباق التي ستقام عند وصوله ، ويصف لنا المجلي والمصلي ، ويعدنا أنه سيعدو بفرسه عدوا لا يدع معه مجالا لسابق ولا شأوا للاحق وانه وانه ... وهو لم يركب فرسا قط !!
أما أنا فقد علمت عجزي ، ورحت أتمثل مصرعي تحت سنابك فرس الشاعر الفارس وأن الأمة ستخسر بموتي فردا منها ، ويربح الأدب قصيدة في الرثاء جديدة ، أحسب صاحبي الشاعر لا يضنّ عليّ بها وقد منحها الدجاجة .

وقفنا على مفترق الطرق ، ننظر وكلما هبّ غبار قلنا هذا غبار الموكب الذي جاء لاستقبالنا ، ولكن الانتظار طال ، ولم نبصر الا راكباً على دابة عجفاء قد ارتفع لنا في الأفق ... فرقبناه حتى اذا ما اقترب منا سألناه ، هل أبصرت موكباً طويلا عريضاً فيه خيول مطهمة وسروج حسنة وحلية مذهبة ؟ فقال : والله ما أفقه حديثكم ، وما أريد الا أن تدلوني على أستاذنا الجديد . قلنا : ومن أنت حفظك الله وأكرمك ؟ فقال : أنا حارس حلبون .

فقلنا : تشرفنا بك ياحضرة حارس حلبون ، هذا هو الأستاذ ونحن.. فولانا ظهره ، قصم الله ظهره ؟ ولم يرد أن يعرف مَن نحن ، ولكن الشاعر لحقه يقول له : أنا .. أنا .. نعم أنا الشاعر ؟؟ وخجل الاستاذ منا ، وحار في أمرنا .. فعزمنا على الذهاب مشياً ، وكنت قد أقسمت على الشاعر أن يصحبنا ، ليسلينا أحياء ، ويرثينا أمواتاً .

سألت حارس حلبون عن الطريق ، فقال : أما السهل البعيد فهذا ، وأما الحزن القريب فهذا . يدور الطويل مع الوادي ويرقى القصير الجبل . قلت : نحن ممن يحب الارتقاء . قال : انه مخيف ، قلت : نحن شجعان ، قال : انكم تملئون ، قلت : معنا شاعر !

وركبت رأسي عناداً وأبيت الا سلوك طريق الجبل ، فأجابني القوم

الى ذلك ••• ورضي الحارس ••• لا أدري أرضي اقتناعاً بحجتي ، أم ضجراً من كلامي ؟!

أركبنا الشاعر الكريم ، وسرنا في ركابه ، وكان الليل قد عـلا في الأفق ، والظلام قد تسرب الى الكون ، وذهبنا نصعد الجبل ••• وكلما قلت هذه هي القمة بدت لي من ورائها قمم ، حتى كدنا نلامس السماء ، وتلفت الى الوراء ، فاذا منين كلها بقدر الدرهم ، واذا هي كأنها في قعر البحر ، واذا أمامنا وعن أيماننا وشمائلنا ، جبال وبطاح لا حدَّ لها ، واذا نحن نبلغ موضعاً ، نشرف منه على غوطة دمشق وقريـة منين ، ووادي بردى في آن • ونرى فيه قاسيون كأنه أكمة تحتنا ، ثم ملأ الظلام الكون فلم نعد نبصر مواضع أقدامنا ، ثم توعر الطريق فأصبح شعباً ضيقاً على يمنة جبل عال كأنه جدار ، وعلى شماله واد لا يبلغ النظر قراره ، كأنما هو وادي النسيان الذي يبتلع كل شيء •

نزل الشاعر عن الدابة وراحت تسير خالية ، وتضاءل كل في عين نفسه ، حتى لقد رأيتنـا أضعف من الديك في يد الأسـد •

انك تقرأ هذا الوصف وأنت في بيتك آمناً مطمئناً ، فلا تكاد تقدر على تصوره ، ولو ألقى بك الدهر في مثله مرة واحدة ، لعلمت ما هو أثره في النفس ، لم يبق فينا من يقدر على النطق وكلما رأينا صخرة أو نبتة من نبت الجبال ، يتراءى لنا في هذا الظلام حسبناه واحداً من هذه الضواري التي نسمع أصواتها •• دَبَبَة حلبون ، وما أدراك ما دَبَبَة حلبون ؟ وربما تلفتنا الى الوراء نبصر هل يتبعنا من شيطان أو وحش فتغوص أقدامنا في الثلج المنتشر من هـذه الجبال كلهـا ، هنالـك يؤمن بالله الملحدون ، ويعلمون انه لا شيء الا الله يتوجه اليه ، أويرجى منه السلامة ؟ ؟

قطعنا هذه الجبال الوعرة في ثلاث ساعات ، لا أذكـر في حيـاتي

ما هو أشد عليَّ منها ، ولقد عرضنا فيها على الموت ، ورأينا عزرائيل يهم بنا مرارا • ولم نبصر أضواء حلبون حتى تقطعت أبــاطين قلوبنــا من الخوف ، واخماص أقدامنا من السير •

هنالك رأينا منظرا أنسانا الشقاء والآلام ذلك هو منظر الاستقبال ، انه كان في الحق استقبالا عظيما لم يحظ به من قبلنا أحد ، لقد خرجوا للقائنا الى مقبرة القرية ، وبلغت أصوات هتافهم لنا قلب الصحراء التي أفلتنا منها ووثبوا للسلام علينا فرحا بقدومنا •

ولكن أتدري مَن هؤلاء ؟

انها يا صاحبي كلاب المقبرة ، رأتنا فعوتنا ووثبت الينا لتقطع ثيابنا وتنهشنا •

فعرفنا اننا قد بلغنا حلبون •



عيدي الذي فقدته

اذيعت سنة ١٩٤٦

يا آنسين بالعيد ، يا فرحين به ، هل تسمعون حديث رجل أضاع عيده ، وقد كانت له أعياد ، أم يؤذيكم طيف الشجى اذ يمر بأحلام أفراحكم الضاحكة ؟ اذا كنتم تصغون الى حديثي فلكم شكري ، وان أنتم أعرضتم عني فما يضرّني اعراضكم ، وان من نعم (المذياع) أنه لا يدري المتكلم فيه مَنْ ينصت له ، ومن يَشغب عليه ، ولا يسمع مدحاً ولا قدحاً ، وما يرى الا (العلبة) يكلمها ، وما ترد علبة على متكلم جواباً ...

ولا تقولوا اذا سمعتم حديثي . هذا رجل لا يتكلم الا عن نفسه. فكذلك الأدباء كلهم ، لا يتكلمون الا عن أنفسهم ، ولكنهم اذ يصفون أحلامها وآلامها يصفون أحلام الناس كلهم وآلامهم ، فهم تراجمة العواطف ، وألسنة القلوب ، وصدى الخواطر ، حتى ليقول القارىء اذ تمرّ به آثارهم : ما هذا ؟ ان في هذا التعبير عما أحسّ به ، انه وصف لي أنا وحدي ... وما هو له وحده ، انه وصف لكل نفس بشرية ...

ألا ما أعظم فضل الأدباء على الناس ! ولكن الناس لا يشكرون...

يا سادة : انه كان لي في حياتي عيد واحد ، ولكن طمس القدم صورته في نفسي فلا أرى منها الا ملامح . لقد وجدت عيدي في (صُرْماية حمراء [1]) أصبحت يوماً فلقيتها الى جانب الفراش ، وكنا نبسط الفرش، وننام على الأرض ، لم تكن قد انتشرت هذه الأسرّة وعمّت ، لم تكن

(١) الصرماية : كلمة شامية معناها « الخف » .

الا" للأكابر ، ولقيت معها (قمبازاً) من (الألاجة [1]) ، له خطوط حمر على أديم أخضر كأنه حقل قمح قد نبتت فيه سطور من شقائق النعمان ، وعقالا (مقصباً) كأنما قد نسج بخيوط الذهب ، يبرق كأنه تاج ملك جديد ، وعباءة رقيقة فيها مناطق حمر ، وأُخر بيض ، وحواش من القصب اللماع ، لها طُرر مختلفات الألوان ... تخطف ببريقها النظر .

فلم أصدق أن ذلك كله لي أنا ، وسألت متحققاً . فقالوا : انه لك ، انه لباس العيد . قلت : وما العيد ؟ قالوا : العيد ؟! ألا تعرف العيد ؟ فلم أعرفه ، ولكني قنعت بما وجدت من نعمائه ، وتخيلته ضيفاً جميلا نزل البلد ...

وذهبنا نبصر العيد ، ومشينا في الطرقات ، واذا الوجوه باسمات الثغور ، منبسطات القسمات ، فكأن أصحابها قد لبسوا مع الثياب البراقة الزاهية حلّة من اللطف والظرف ، ولم نر نحن الصغار مَنْ يزجرنا ذلك اليوم عن حماقة نأتيها ، أو ذنب نذنبه ، بل وجدت كل من أسلم عليه من أقربائي وأصحاب أبي يعطيني نقوداً (نحاسات) صفراً لامعات كالدنانير ، و (متاليك) جدداً ، ولم تكن قد عرفت هذه القروش الورقية القذرة الممزقة التي يأنف المرء من مسِّها ، فاجتمع لديَّ مبلغ من المال ، هو بالنسبة الى طفل مثلي ثروة كثروة بعض مَنْ عرفنا من المحتكرين ، ولكني أخذته حلالا بطيب نفس ، وأخذوا هم ما أخذوه حراماً ، انتزعوه من فم الأرملة واليتيم ، فكان برداً على قلوبهم وسلاماً في لهب هذه الحرب ، ولكنه سيكون من بعد ناراً آكلة في أكبادهم ، وسمّاً هارياً في أمعائهم ، وغصة خانقة في حلوقهم ، ولعنة متسلسلة في ذراريهم ، وجحيماً متسعراً يوم المآب . فارتقبوا ـ أثرياءَ الحرب ـ انا معكم من المرتقبين !

* * *

---

(١) نسيج شامي هو الذي تصنع منه قفاطين مشايخ مصر .

وكانت دارنا في (العقيبة) فكان أول ما لقيت من العيد (جامع التوبة) ، هذا الجامع المأنوس الذي يملأ جوّه دائماً خشوع وأنس ، ولم أكن أدري يومئذ ما الخشوع وما أنس الروح ، ولكني أحسست فيه فرحة شاملة ملأت نفسي ، وذهبنا الى (الأموي) ، وكان صوت التكبير ينبعث منه قوياً مجلجلا ، كأنه هدير (بردى) عند شلال (التكية) ، فشعرت بحال لم أعهدها في نفسي من قبل ولم أعلم ما هي، شعرت بالحماسة التي تغلي منها دماء المسلم حينما يسمع هذا النشيد السماوي الذي لم تسمع أذنا الأرض نشيداً بشرياً أروع منه روعة أو أشد أو أقوى ، هذا النشيد الذي علمت بعد أن أجدادنا كانوا يهدرون به في أشداقهم ، فتتداعى أمامهم الحصون، وتتساقط الأسوار، وتفتح لهم أبواب المجد حتى فتحوا به الدنيا ، هذا النشيد الذي كان من بشائر الرجاء أن اتخذه جنود الاسلام اليوم شعاراً لهم ليصلوا به ما كان انقطع من قلادة أمجادنا التي طوقنا بها عنق الزمان ، ولينشروه مرة ثانية في آفاق الأرض فتردده معهم الجبال والأودية • والمدن والقرى •

دخلت فوجدت في المسجد متعة لم أجد مثلها في لهو كنت أتخذه ، أو متعة كنت أسرّ بها ، وجدت ــ ولم أكن أدري ــ متعة الدين والدنيا اذا اجتمعا : الكثرة والألفة ، والثياب البراقة والنظافة والنظام ، والتقى والاخلاص ، والغنى السمح الشاكر والفقر المتجمل الصابر ، والمعاونة على الخير ، والمواساة والايثار ، وكان في المسجد نساء قد اجتمعن في (المشهد[1]) بالأزر البيض والملاءات الساترة ، ما يظهر منهنّ عين ولا بنان ولا ساق ، قد جئن للصلاة •

---

(١) المشهد في الأموي اسم لحرم صغير فيه جانبي ، وفي المسجد اربعة مشاهد في احدها رأس الحسين . هو فيه لا في مصر والله أعلم .

كذلك كان بلدنا قبل أن تبلغه هذه (الحضارة) الجديدة ، كذلك كان يوم كان أهله متأخرين جامدين ، فياليته يعود كما كان ، يا ليتنا بقينا متأخرين عن هوّة الفساد لم نَتَقدم عليها ، جامدين لم نعرف هذا المَيَع . ان الجامد يتماسك ويثبت ، أما المائع فيسيل ويجري حتى ينصب في البَلّوعة[1] ... أفعرفتم الآن مصيركم يا أيها (المائعون) ؟!

ثم أَمَمنا (مقبرة الدحداح) فاذا الحياة الضاحكة جاءت تزاحم الموت العابس على أرضه ، وتنتزع منه مثواه ، واذا المقبرة دار الوحشة والعبرة ، قد أحالها العيد منزل الفرح واللهو ، ففيها (الدُّوَّيْخات) منصوبات ، و(القلاّبات) قائمات ، والعربات الصغار مزينات بالأعلام الملونات مشدودة في جوانبها الأجراس والجلاجل ، والأطفال بثيابهم التي تحكي زهر الربيع ، منها الأحمر والأصفر والأخضر والفضي والمقصَّب وذو الطرر وذو الحواشي ، راكبون على أفراس (الدويخة) تدور بهم ، أو جالسون في سرر (القلابة) تصعد بهم وتنزل ، أو متعلقون بالعربة ، والنساء قاعدات عند النهر ، والرجال مجتمعون عند التلّ ، وعلى القبور الآس الأخضر معقود بشرط الحرير يخيل للرائي من كثرته أنه في جنة ملتفة الأفنان ، وخلال الآس الخيام المنقوشات والسرادقات ، وباعة (القضامة) و (اللب) و (عرق السوس) يجولون بين الناس ينادون أعجب النداء ، وبياع (الفول النابت) قد أوقد ناره ورفع قدره ، ونصب مائدته ، وحفّ به الصبيان والبنات ، وصاحب (صندوق الدنيا) قد حطّ صندوقه ، وقعد حوله الأولاد ، ينظرون فاذاهم يسيحون في البلاد ، ويرون عبلة وعنتر بن شداد ، فلا يكادون يستمرئون الحلم ويستغرقون فيه حتى يرخى الستار فيهبطوا الى أرض الواقع ، فاذا الذي كانوا فيه قد مرّ كما تمرّ الأحلام لم يخلف الاّ ذكرى مشوبة بألم الفقدان .

---

(١) البلوعة البالوعة من **العامي الفصيح** .

كذلك كانت المقبرة أول ما عرفت العيد . انها صورة المقبرة يوم نفخ ابليس في بوق الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

صبركم يا أيها المستمعون ، ودعوني أطل وقوفي على هذه المقبرة ، فانكم لا تعلمون منزلتها في قلبي ، ولا أستطيع أن أعلمكم ، وكيف؟ أو تصدقون اذا قلت لكم ان لهذه المقبرة صوراً في نفسي أحلى من صور الرياض ، وذكريات أجمل من ذكريات الحب ؟ وان نهرها هذا الصغير القذر أعزّ عليّ من بردى ودجلة والنيل ، وأشجارها هذه المنحنية عليه أبهى عندي من صنوبر فالوغا ونخيل الأعظمية ، وكراسيها هذه الواطية أفخم في عيني من أسرّة (أوريان بالاس) و (شبرد) ؟

ان في هذه المقبرة بقايا من قلبي ، ان لها تاريخاً في نفسي ، يعرف أكثره أخي أنور . فسلوا أنور متى يقوم بحق الوفاء لهذه الذكريات فيخلدها بقصائد بارعات من شعره العبقري ؟ فما أحسن أنا تخليدها ، لا أطيق أن أفي لها هذا الوفاء ؟ سلوه أنسي ليالي نمشي فيها لنزور قبور الأحبة في ظلمة الليل : أبي وأمي وأمه وأبيهَ ، ونبكي عليها، والمقبرة ساكنة خالية ، ما ترانا الاّ عيون النجم ، وما تسمعنا الاّ الشواهد الشواخص ... ونحدق في سدفة الزمان نرقب أن نرى طلعة الأحباب الذين اشتد اليهم الشوق وطال الغياب ، فلا نرى الاّ ظلاماً متراكباً ، ونعود فنحاول أن نخترق حجاب الآتي لنبصر طيف الأمل الحلو فلا نبصر الا الظلام ... ليالي كنا نعود وقد برّح بنا الألم ، وهدّنا الحزن ، فأستمع من أنور بواكير أشعاره ويسمع مني بوادر رسائلي، تلك البواكير التي قرأها الناس فرأوها ندية بالدمع ، فياضة بالحزن . فقالوا : ما لهذا الشاب والألم ، ماله لا ينظم الا الشعر الباكي ، ما دروا أن هذا الشعر قد نظمت حباته على قبر الوالدين ، في ليالي اليتم الكوالح ...

مساكين الأدباء . يجبلون فلذات قلوبهم بدموع عيونهم ، ليقيموا منها تماثيل الأدب فيأخذها الناس عابثين ، وينظرون اليها لاهين ، ويعيبونها ظالمين ، ثم يملّونها كما يمل الصبي لعبته فيرمونها فيحطمونها، ويفتشون عن لعبة جديدة ...

مساكين الأدباء !

يا سادة :

لقد مشيت بعد في الزمان ، وسحت في البلدان ، فكبرت ورأيت أياما قال (التقويم) انها أيام عيد ، رأيتها في دمشق بلدي ، ورأيتها في الأعظمية في بغداد ، ورأيتها في البصرة ذات الشط والنخيل ، وفي الحرش من بيروت ، وفي القاهرة أم الدنيا ، ولكني لم أعد أجد في ذلك كله تلك البهجة التي كانت للصرماية الحمراء والعقال المقصّب ، والعربة ذات الشراع الأحمر والجلاجل والثياب الملونة الزاهية التي تحكي زهر الربيع ؟ أفتغيرت الدنيا أم قد أضعت عيدي ؟

أتغيرت الدنيا يا ناس أم الناس قدفقدوا فرحة العيش حينما تركوا تلك الحياة السمحة القانعة الطاهرة المبرأة من أدران حضارة الغرب ؟ تلفتوا أيها السادة حولكم ، واسألوا من تلقون من الكهول عن ذلك الزمان... تجدوا في عيونهم عَبْرة ، وفي قلوبهم حسرة ، وعلى ألسنتهم جواباً واحداً : رحم الله تلك الأيام لقد كانت أيام انشراح ...

كانوا لا يعرفون دسائس السياسة ، ولا التزاحم على الرياسة ، ولا شبه العلم ، ولا رذائل الحضارة ، لا يختلفون على مذهب اجتماعي ولا يقتتلون لمصلحة حزب سياسي ، ولا يقرعون أبواب الوظائف ، ان تعلموا العلم تعلّموه لله لا للشهادات ، وان طلبوا المال طلبوه من التجارة لا من المضاربات والاحتكار والرشوات ، وان أرادوا تسلية ولهواً ، قصدوا الربوة أو الميزان أو الشاذروان ، ينصبون سماورات الشاي ، وسماط

الأكل ، وبساط الصلاة ، لا يعرفون سينما ولا ملهى ولا ماخوراً ولا (نادي دمشق) ، المساجد ممتلئة بهم ، ومدارس العلم حافلة بأبنائهم ، والعلماءهم الأمراء ، طلبوا العلم للآخرة لا للدنيا فأعطاهم الله الدنيا والآخرة ، والبيوت جنان الأرض ، والنساء حور تلك الجنان لا يعرفن التبرج ولا التكشف ولا يراهنّ أحد في الطريق ، الا خارجات لضرورة لابدّ منها ، ومعهنّ الزوج أو الأب ، يسبقهن وهنّ يتبعنه ، لا يعرفن بيوت الفجور ، ولا أماكن العصيان ، ولا (دوحة الغضب) ، ولا يخطر على بالهن أنّ الدنيا ستبلغ من الفساد أن سيكون فيها (فرق مضلاّت) ...

كذلك كانوا ، فكانت أيامهم كلها أعياداً ، فأين أعيادنا نحن ؟

أربحنا من هذه المدنية .. وهذا العلم ... أم خسرنا ؟ سلوا هذه الحرب عما صنعته علومهم بسعادة البشر ، وسلوا التاريخ عما صنعت بها علومنا وشريعتنا ؟

يا سادة :

اننا صرنا اليوم نلبس (البذلة) بدل (القنباز) ، وننام على السرير ، ونأكل بالشوكة والسكين ، ونقرأ أخبار أمريكا وأوروبا ونتكلم في الجغرافيا والكيمياء وفي السياسة ، ونركب السيارة والطيارة ، ونسمع الرادّ ونبصر أفلام السينما ، هذا الذي ربحناه ولكنا خسرنا التقى والعفاف والاطمئنان ، لقد كان أجدادنا أبعد عن حضارة أوربا ، ولكنهم كانوا أرضى لله منا ، وأقرب اليه ، وكانوا أقوم أخلاقاً ، وأطهر قلوباً ، وأصفى سرائر ، وأصدق معاملة ، وكانوا أسعد منا في الحياة ...

لا يا سادة : اني لم أعد أجد للأعياد بهجة ، فردوا اليّ ماضيّ ،

أرجعوني الى عيد المقبرة ، والمسجد فاني لم ألقَ السعادة الا ّ فيه ، أنقذوني من هذا العلم وهذه الحضارة ، فأنا جامد ، أنا رجعى، رجعى ، رجعى ! !

والعفوَ يا سادة : لقد نغّصت عليكم بهذا الحديث القاتم المضطرب عيدكم ، لقد نسيت قواعد الآداب الاجتماعية فكدرتكم يوم الصفاء، وكنت عندكم فاسد الذوق سيء الاختيار ، فلا تؤاخذوني ... وأقبلوا على عيدكم وسروركم ، ودعوني أبكي يوم العيد ماضيات أيامي . وكل عام وأنتم بخير !



على أبواب الثلاثين

نشرت اول سنة ١٩٣٩

نظرت اليوم في سجل ميلادي ، فوجدتني على أبواب الثلاثين ، فتركت عملي وجلست أفكر ، ماذا بقي لي من هذه السنين الثلاثين يا أسفي ! لم يبق الا ذكريات واهية تحتويها بقية قلب تناثرت أشلاؤه على سفوح قاسيون في دمشق ، ومسارب الأعظمية في بغداد ، وغابات الصنوبر في لبنان ... اي والله ، وعلى طريق الأهرام في مصر ، وضفاف (الشط) في البصرة ، وحوائط النخيل في يثرب أشلاء من قلبي وأشلاء ... فماذا أفدت من عمري الضائع وشبابي الآفل ؟ لاشيء ! لا مجد ولا مال ولا بنين . لم أفد الا اسماً مشى في البلاد فحمل قسطه من المدح والذم ، والتمجيد والشتم . ولكني كنت في معزل عن هذا كله فلم ينلني منه شيء . ان اسمي ليس مني . انه مخلوق من حروف ، ولكني انسان من لحم ودم . فهل تشبعني الشهرة ، أو يكسوني الثناء ؟ ولم أملك الا قلباً أحب كثيراً ، وأخلص طويلا ، ولكنه سقط كليماً على عتبات الحب والاخلاص ، ورأساً حشوته بما وجدت من العلوم والمعارف فأثقلته علومه عن التقدم ، فاحتلت مكانه الرؤوس الخفيفة الفارغة ...

فياليتني علمت من قبل أن الحياة مثل اللجة ، يطفو فيها الفارغ ويرتفع ، وينزل الممتليء ويغوص .

* * *

اني لأتصور الآن كيف كنت أنظر في طفولتي الى أبناء الثلاثين ،

أولئك الشباب الكمّل الذين بلغوا قمة الحياة وعرفوا الاطمئنان والاستقرار ، فأجد بيني وبينهم بوناً شاسعاً ، وأرى أني لن أبلغ الثلاثين أبداً ... ذلك لأن كل ما أعلمه أني ولدت وأنا ابن أربع سنين. فأدخلت المدرسة . فكنت أعيش فيها سنة لأنجح في الامتحان ، وأرتقي من صف الى صف ، وأستمتع بالعطلة . فلما أكملت دراستي العالية ولم يبق من مدرسة ، ولم يبق امتحان وقفت فلم أتقدم ، وفقدت غايتي فلم أعد أحسُّ أني أعيش ، ثم تلفتُّ الى الماضي أعيش بذكراه ، فأصبحت كلما انقضى عليّ عام رجعت فيه سنة الى الوراء ، فأنا أصغر كلما كبرت ، وأدنو من الطفولة كلما نأيت عنها . فمتى أبلغ الثلاثين ، وأين أحط رحالي بعد هذا المسعى ؟

* * *

وغشيت قلبي غاشية من غمٍّ ، فأشعلت عوداً من الكبريت لأوقد المدفأة ، وكنت في ذهلة فسرت النار في العود ثم تأججت وتوقدت ، وأنا أنظر الى اللهيب جامد العين محدقاً في عالم بعيد الغور حتى أحسست بحرارة النار في يدي ، فانتبهت وألقيت العود ، فاذا هو قد استحال الى فحمة سوداء ضعيفة تطير مع النسيم ... فقلت : هذه هي الحياة . ان الألم الذي أحسسته يلذع نفسي هذه العشية كلذع النار اصبعي ، سينتهي بي الى مثل هذا المصير . سأمضي كما مضى هذا العود ، ولكني لا أخلّف ورائي شيئاً . لن أدع مالاً ولا جاهاً ولا عملاً ، لأني اشتغلت واحسرتى بالأدب ..

ويا ليتني تفرغت بعدُ للادب ، ولم يستغرق حياتي الكدح للعيش ... اني لم أعمل شيئاً . ان في رأسي وقلبي شيئاً كثيراً ، ولكنّ قلمي مكسور ، ودواتي جافة ، ولساني مشدود بنسعة ، فأنا لا أستطيع أن أقول ..

عندي ألحان كثيرة ، فأنا أحب أن أغني ، ولكن الغناء يستحيل من

الضيق الى زفرات تخرج مقالات ، فيحسبها الناس ألحاني كلها ، الا أن ألحاني لا تزال في صدري لم يسمعها بشر . وماذا ينفعني أن يسمعها الناس فيطربوا ويصفقوا وأتفرد أنا بالخيبة والألم ؟ ان الناس لا يألفون الا الأغاني الفارغة المدوية ، فلتبق أغاني العذبة في صدري ، أسمعها وحدي من غير أن يتحرك بها لساني ، لأن لساني مشغول بالقاء الدرس.

كل ما أكتب زفرات متألم واشارات أخرس ، فهل يأتي اليوم الذي تنحسر فيه الزفرات عن الأغاني ، والاشارات عن الألفاظ والمعاني ...؟

* * *

على أن هذه الزفرات وهذه الاشارات عزاء نفسي ، فكم لهذه (الرسالة) من فضل علي ، وكم من الفضل لهؤلاء الأدباء الذين يستطيعون أن ينقلوني من دنياي هذي الضيقة ، الى دنيا واسعة تطير روحي في أجوائها حرة طليقة أمثال الرافعي ومعروف والزيات ! فهل يدري الزيات ، أو هل يدري معروف الارناؤوط ، أني طالما أصرمت الليالي الطويلة في فرتر ورفائيل وسيد قريش وعمر بن الخطاب[1] وأني طالما لجأت اليها أقرع أبوابها وأتوارى وراء أسوارها في جنان سحرية، لا أستطيع أن أصفها بأكثر من اعلان العجز عن وصفها ؟ فأي عالم في رأس معروف ، وأي دنيا في صدره ؟ وأي نبل وسمو في هذه اللغة ، لغة معروف ولغة الزيات ولغة الرافعي ، هذه التي تتيه بجواهرها ولآلئها، على حين تمشي لغات كتاب العصر بأسمالها البالية ومزقها المخرقة ... لغة فخمة تشعرك بالسيادة والعظمة ، لا كهذه اللغات الهزيلة العارية...

وكم من الفضل لهيكل علي ، فلقد سلخت في قراءة كتابه (منزل الوحي) أياماً كنت أعيش فيها في عهد النبوة ، ولقد مررت بهذه البقاع التي يصفها ، وأثارت في نفسي عوالم من الذكريات والآمال

(١) ثم رايت ذلك كله عبثاً . وان النافع ما نفعك في آخرتك .

والخواطر ، فاذا أنا أجدها كلها ، وأجد أكثر منها في كتاب هيكل ...

* * *

يا رحمة الله على تلك الأيام . أيام كنت أغلق فيها بابي عليَّ .. ثم أقبل على كتبي أجالس فيها العلماء والأدباء ، وأجد في حديثهم الصامت لذة ومتاعاً . كنت أقرأ لأني كنت أجهل الحياة ، فلما عرفتها لم أعد أطيق قراءة ولا بحثاً . ولماذا أقرأ ؟ ولماذا أتعلم ؟ ولماذا أكون فاضلاً ؟ والحياة حرب على أهل العلم والفضل ، والناس كالحياة لأنهم أبناؤها وتلاميذها

ألا يحيا الكاذب المنافق سعيداً موقراً ، ويموت الصادق الشريف فقيراً محتقراً ؟ ألا يصدق الناس الشيخ المشعوذ لأنه يدخل الى نفوسهم من باب الدين ويكذبون العالم الفاضل ؟ أليس طريق الشعبذة وادعاء الكرامات والمخرقة على الناس بعلم أسرار الحروف ، واستحضار المردة، واستخراج الجنّ من أجسام بني آدم ، آثر عند عامة الناس من العلم الصحيح والأدب المحض ؟ ألا يتمتع هذا اللص بالثقة التي لا يحلم بها عالم متخصص أو باحث مدقق ، وتنهال على يده الأموال ، وتزدحم على يده الشفاه ؟ ألا يبلغ المنافق ذو الوجهين أعلى المراتب وأسماها ويبقى الصادق الشريف في الحضيض ؟ ألا يركب الجاهل السيارة الفخمة ، ويسكن القصر العظيم ، ويحتل المرتبة العلمية العليا ، ويمشي العالم الى بيته الحقير لا يدري به أحد ؟

أليست أسواق الرذيلة عامرة دائرة ، وأسواق الفضيلة داثرة بائرة؟

ألا يظفر الكاذب المفتري بالبريء ؟ ألا يغلب القوي الضعيف ؟ ألا ينتصر المال على العلم ؟

فلماذا أقرأ ؟ ولماذا أتعلم ؟ ولماذا أكون فاضلاً ؟

* * *

وقمت وقد صفَّيت حسابي مع الحياة ، فاذا أنا قد خسرت ثلاثين سنة هي زهرة عمري وربيع حياتي ولم أربح شيئاً ...

* * *

صورة المؤلف بقلمه

نشرت سنة ١٩٣٦ وقد ظنها أحد الشعراء صورته هو فاودعها صدر ديوانه !

... كان معروفاً بالشذوذ والخروج عن المألوف ، لا يبالي اذا اتجه له الرأي ما يقول فيه الناس ، ولا يحفل اذا أزمع الأمر نهي ناه ولا نصيحة ناصح ، وكان يعرف ذلك من نفسه ولا يغضبه أن يوصف به ، بل كثيراً ما سمعناه يتحدث به ويطيل الحديث ، يجد في كشف دخيلته للناس لذة وارتياحاً ، كأنما هو يلقي عن عاتقه حملاً ثقيلاً .

يجمع في نفسه المتناقضات : فبينا هو منغمس في لج الحياة المضطربة المائجة يفزع من الوحدة ، ويكره الهدوء ، ويركب متن المغامرات في الأدب وفي السياسة ، يخطب في المجامع ، ويناقش في الصحف ، وبينما هو مطمئن الى هذه الحياة ، مقبل عليها ، اذا به قد استولت على نفسه « فكرة صوفية » ، فغمرت الكآبة روحه ، وفاض اليأس على قلبه ، وأحس الحاجة الى الفرار من الناس ، والرغبة في العزلة المنقطعة ، وأصبح يكره أن يرى أمس أصحابه به ، وأدناهم الى قلبه ، ويحب الحياة الساكنة الهادئة ، ويجد الأنس في حديث قلبه ومناجاة ربه .

وهو أسرع الناس الى المزاح والفكاهة ، وأضيقهم بمجالس الجد ، وأبعدهم عن تكلف الوقار ، واتباع (الرسميات) ، فلا يكون في مجلس الا حركه بحديثه واشاراته ونكاته ، وأفاض عليه روح المرح ، والود الخالص ، ولكن موجة من الحزن المفاجيء ، قد تطغى على قلبه في أشد

الساعات سروراً ، وأكثر المجالس طرباً فاذا هو حزين كئيب . قد ضاق بالناس وتبرم بمزاحهم وهزلهم ، وغدا راغباًفي الجدمحباً للوقار ، متلبساً بالصرامة والحزم ، منصرفاً عما كان فيه منذ لحظة واحدة ، لا يعرف الناسُ ولا يعرف هو ، ماذا أصابه ، فنقله من حال الى حال .

تغلب عليه العاطفة حيناً فيمسي أرق الناس شعوراً ، وأرهفهم حساً، يرى المشهد الجميل من مشاهد الكون ، أو يسمع النغمة العذبة الشجية، أو يقرأ البيت الغزلي الرقيق ، أو القصة العاطفية المحزنة ، فتوقظ في نفسه عالماً من الذكريات ، فيخفق لها قلبه ، ويهفو لها فؤاده ، ويحس بها تلذعه لذعاً ، وتفيض على نفسه شعوراً طاغياً ، بحب مُبهم غامض ، لا يجد طريقاً ينبعث منه ، فيزلزل كيانه زلزلة ، كما يزلزل البركان الأرض ، ان يجد فوهة يندفع منها ، ويدعه شخصاً متهافتاً ، لا يقوم الا على أعواد من العواطف الرقيقة المتداعية[1] . ويسيطر عليه العقل أحياناً فيحتقر العاطفة ، ويدعو الى أدب قوي نافذ ، ويسخر من الحب ويهزأ بالعاشقين، ويزدري هذه القصص وهذه الأشعار التي كان يرقص لها قلبه ، وتفيض لها مدامعه ...

ويقبل على العمل بهمة عجيبة ورغبة قوية ، فيطالع ويكتب ، ويعمل كآلة دائبة الحركة ، لا يأخذه ضعف ولا خور ، ثم يشعر فجأة بكراهية العمل والنفور من المطالعة الجدية والعزوف عن الكتابة والتأليف ويستولي عليه كسل عقلي عجيب ، لا يطيق معه عملاً من الأعمال .

* * *

كان يعمل في مدرسة ابتدائية ، نزلوا به اليها ، فلا يكلفه العمل فيها جهداً ولا مشقة ، ولا يشغل من تفكيره شيئاً ، فكان يستمتع بوقته

---

(١) هذا شيء قد كان وزال .

ونفسه كما يشاء ، ويشتغل بالأدب للّذة والمتعة الفنيّة • فيقرأ ما طابت له القراءة ، ويكتب ما رغب في الكتابة ، ويؤلف ما مال الى التأليف • فكره هذه الحياة وَهوى الحياة العقلية المنظمة التي تضطره الى نوع من الدرس بعينه ، وتجبره على نوع من الكتابة بذاتها •

كان يعيش في أسرة رفرف عليها الحبّ ، وسادها الاخلاص وأسبغ عليها ثوب السعادة ، بين اخوة له ما رأى الراؤون مثلهم في ذكائهم واستقامتهم وطاعتهم اياه ، وحبّهم له ، وحرصهم على رضاه ، وصحابة له ما فيهم الاّ أريب طيب النفس ، صادق الودّ صافي السريرة حسن السيرة ، وكان له في بلده منزلة يحسده عليها من هو أكبر منه سناً وجاهاً ، وأكثر علماً ومالاً ، فملّ هذه الحياة ومال الى الهجرة وانتجاع أفق جديد ، فأزمع السفر الى بغداد ، تاركاً عمله في وزارة معارف الشام، عاصياً الناصحين والناهين من الأهل والأصحاب • وجاء الى بغداد ، فلم يكد يلقي فيها رَحلَه حتى عراه اكتئاب وملل لا يعرف له سبباً ، وأحس الحنين يحز في قلبه والشوق يدمي فؤاده ، وانتابته احدى نوباته العاطفية، فلم تدع في رأسه الاّ فكرة واحدة ، هي الرغبة في العودة ، لا يبالي معها ماذا قيل عنه ، وماذا ضاع منه ، ولكنه لم يكد يستجيب لها ، حتى أدركه مدَد من عقله ، فصحا من نوبته ، وتخلص من عاطفته ، فآثر البقاء وأقبل على العمل ، فلم يمض عليه يوم حتى سمع من ينشد :

فيم الاقامة بالزوراء ؟ لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي!

فنشطت عاطفته المكبوتة من عقالها ، تصرخ في وجه العقل ، أن : فيمَ الاقامة بالزوراء ؟ فغلب العقل واستخذى وذهب يستعد لمعركة أخرى •

ولقد وجد في بغداد من الاكبار فوق ما كان يرجو ، ووجد اسمه قد سبقه اليها ، وحفّ به قراؤه والمعجبون به ، وأسرعوا للسلام عليه

والاجتماع به ، فلم يكن أبغض اليه وأشد عليه من هذه الاجتماعات ، فكان يعرض عنهم ويرتكب في هذا الباب أشد الحماقات ، حتى انه ليدع الجماعة من علية القوم في ردهة الفندق ويفر منهم ، وما جاءوا الا من أجله ، فيقوم من غير استئذان ولا اعتذار ، ويذهب الى غرفته فيعتصم بها • وانه ليعلم ما في عمله من الجفاء ، ولكنه يضطر اليه اضطراراً ، فهو يشعر أن جو هذه المجالس ثقيل عليه حتى ليوشك أن يخنقه ويغدو فيه كمن سد أنفه وفمه ، وانا لنلومه ويلام ، فلا يدفع عن نفسه لوماً ولا يحاول انكاراً ، ويعترف بالضعف ، ويقر بالعجز •

انه لا يستطيع أن يحمل اسمه ، لا يقدر أن يتلقى بوجهه وجسمه هذا الاعجاب الذي يزعمون أنهم يوجهونه الى الشخص الآخر الذي ينشر في (الرسالة) كأن له شخصيتين ، فهذه التي يأكل بها ويشرب ويمشي ويضحك ويمزح غير تلك التي يفكر بها ويكتب ويؤلف وليس بينهما من صلة ولا يربطهما سبب من الأسباب • والعجيب من أمره أنه يضيق بالكلام في مثل هذه المجالس ويتهيبه ، وتظنه أول ما تلقاه حَيياً عَيياً لا يفصح ولا يبين ، فاذا أنت اتصلت به وعلقت حبالك بحباله ، رأيته مفوهاً طلق اللسان شديد البيان • وان أنت خالطته وعرفت دخيلته أبصرته لا يتهيب موقفاً خطابياً مهما كان شأنه ، ولا يخشاه ما يخشى الرد على ألفاظ المجاملة ويتهيب مجلس تعارف وانتساب •

* * *

كان يأمل أن يجد لذة في تدريس الأدب ، ولكنه لم يكد يمارسه حتى اجتواه وملّه ، وعلم أن الاشتغال بالأدب للذّة لا يستقيم مع هذا العمل النظامي المستمر ، انه يصبح وفي رأسه فكرة يريد أن يكتب فيها فصلاً ، فيدركه وقت المدرسة ، فيذهب وتذهب الفكرة في طريقها ، أو

يصبح وهو يكره الكلام ويميل الى الصمت ، يحب أن يفكر فيطيل التفكير ، ويحلم فيغرق في الأحلام ، فيراه ملزماً بالكلام خمس ساعات أو ستاً ، وهو يحب الشاعر أو الكاتب ويميل اليه فيكرهه المنهج على درس شاعر آخر لا يحبه ولا يفهم أدبه ، ويضطره الطلاب الى اطالة الحديث حين ينبغي له الايجاز ، أو ايجازه حيث تطلب الاطالة ، أو لا يفهمونه ولا يسايرونه فيهبط من سماء متعته الأدبية ، ليمشي مع أفهامهم وعقولهم ...

* * *

انه رجل شاذ الطباع متناقض العواطف ، يشتاق الى بلده فان عاد ندم على العودة ، وان أقام هاجه الشوق ، وان لجأ الى عقله ثارت عاطفته ، وان اتبع عاطفته أبى عقله ...

لا يفهمه أحد ، ولا يفهم هو نفسه ، انه اديب ! .



زفرة مصدور

نشرت سنة ١٩٤٠

الى صديقي (فلان) :

أنا الآن في شرفتي أطلُّ على دمشق من فوق خمس جوادَّ علوُّها مائتا متر ، فأراها كلها كصفحة الكف ، وقد انتصف الليل ، وانصرف السامرون آنفاً بعد ما أحيوا ليلة من الليالي التي تعرف مثيلاتها في دارنا ، وسكن الكون وشمله الجلال ، وأنا جالس وحدي أفكر ، لا أفكر في دمشق التي حننت اليها ، وشاقتك ذكراها ، دمشق التي باكرها الربيع فضحك في غوطتها الزهر ، وغمر جوَّها العطر ، وماست في جناتها الحور الفاتنات ، من الحور والصفصاف ومن بنات أمنا حواء ، لا أفكر فيها لأن قلبي لا يتفتح الآن لأدراك الجمال ، وقريحتي لا تنشط لوصف الربيع ، ومكان الشعر من نفسي مقفر خال . وما لي لا تخمل قريحتي ، ويذوي غصن الشعر في نفسي ، وقد عدت الى دمشق ، على طول شوقي اليها وازدياد حنيني ، وتركت أهلاً في العراق كراماً ، وبلداً طيباً ، وأمة حية ، تحمل اللواء ، وتهز العلم ، وتتقدم لتجمع الشمل الشتيت شمل العرب المتفرق ، وتوحد الشعب وترجع المجد والجلال ، وتؤلف بين أهل الضاد من حاضر وباد ... تركت ذلك كله وعدت الى بلدي الأول ، ويا ليت بغداد كانت هي بلدي الأول ... فلم أجد في دمشق الا النكران والأذى ولم أجد الا ما يسوء ويؤلم .

ولكن هل يشكو امرؤ بلده ؟ هل يهدم بيده داره ؟

ان تكلمت قال الحساد : بغى وظلم ، وان سكت قال الشامتون: رضي

أو عجز ، والقلب بالسكوت يتفطر ، والصدر من الصمت يتمزق ، والكلام ... هل يجوز لي الكلام ؟

يا ليتني بقيت بعيداً أقنع من بلدي بهذه الصورة الحلوة التي تتراءى من خلال أحلام المشوق الولهان ، ويوحي بها الحنين الطاغي ، يا ليتني ، وهل تنفع شيئاً ليتني ؟

لقد عمي أولو الأمر والنهي عن أدبي وعلمي وعما نشرت في الكتب والمجلات والصحف وهو شيء يملأ ثلاثة آلاف صفحة على أقل تقدير[1] هب أن فيها كلاماً مرصوفاً لا معنى وراءه تجد أني حملت في كتابتها ورصفها عناء ، فكيف وكلها ثمرة التأمل الطويل ، ونتيجة كد الخاطر وعصر الدماغ ، وما منها شيء سرقته من أديب من أدباء فرنسا ولا انكلترا ! عمي أولو الأمر عن هذا كله ولم يعدلوه بهذه الورقة السحرية التي جاء بها أولئك من ديار العجم يشهد لهم فيها مَن يسكن هناك ، بأنهم صاروا يفهمون العربية ، وغدوا أهلاً للتصدر لتدريسها.. ولم يجدوني أهلاً لأكثر من « أستاذ معاون » !

أفيكون ظلماً مني وعدواناً ، اذا أعلنت ما أصابني ، وشكوته الى القراء ، وهم أصدقائي ، لم يبق لي من صديق غيرهم ؟ لم يبق لي صديق في هذه الحياة ، انك لتعلم ذلك ، ولكني لا أشكو !

انهم يقولون اني عنيد ، واني مشاغب ، واني أثير المشاكل ، ولست أفهم لهذا كله الا معنى واحداً ، هو أني أؤثر الصدق وأعلنه ولا أفعل ولا أقول الا ما أطمئن الى أنه الحق ...

وهل كان ذنباً أني حَمِيت للفضيلة تمتهن ، وللأخلاق تهان ، فناضلت عنها وقاتلت ، وقلت لتلاميذي : ناضلوا عنها وقاتلوا ؟

وهل كان ذنباً أني غضبت لمحمد أن ينكر نبوّته ويجحد رسالته ،

---

(١) وقد بلغ المطبوع مما كتبت الى اليوم عشرة آلاف صفحة ونسوا أن يذكروني في المجلس الأعلى للآداب وفي لجانه .

جاهل غرير ، في حفلة أقيمت لتكريم محمد وتمجيد ذكراه ؟ وهل كان ذنباً أني لا أقول لسواد الليل أنت أبيض مشرق ، ولا أقول لـ (للأعور) ما أحلى عينيك ؟ .

هذه هي ذنوبي التي خسرت من أجلها صداقات الأصدقاء وكسبت عداوات الرؤساء ، وربحت خصومة الجاهلين ، وعُددت بها من كبار المشاغبين .

* * *

لقد قارب الفجر ، وانطفأت أنوار المدينة ... لقد مرّ عليّ ساعتان وأنا أفكر ، وكل شيء من حولي ساكن ميت ، وكذلك حياتي !... انها خالية منذ سنوات ، ليس فيها شيء متحرك ... فأنا أعيش عيش الحالمين ، أرقب أبداً الحادث الذي يهز حياتي الساكنة ، ويحرك مواهبي الخاملة ، ويدفعني الى العمل ، ولكن انتظاري قد طال حتى كدت أيأس من الانتظار .

انك تعزيني بما حصلت من شهرة وما نلت من مكانة ، ولعل في ذلك تسلية لي لو كنت أحسّ به أو ألمسه ، انني لا أحس والله بهذه الشهرة ، انني كالمغني الأصم الأعمى ، يطرب الناس فيصفقون له ويهتفون ، ولكنه لا يسمع ولا يرى ، فينصرف حزيناً يحسب أنه خاب وأساء ...

ان أهل بلدي ينكرون عليّ كل شيء حتى الأدب .

لقد قرأت أمس مقالة سقطت اليّ عرضاً ، فرأيت فيها مقالاً يخبط فيه صاحبه خبط عمياء ، فيعد أدباء دمشق أو الذين يراهم هو أدباء ، فيذكر فيهم كل موظف في وزارة المعارف ، وكل تلميذ يدرس في أوربة ، وكل مدرسي التاريخ والجغرافيا ، ولكنه لا يذكر علي الطنطاوي ولا سعيد الأفغاني ، أفسمعت أبلغ من هذا الجهل وهذا النكران ؟

هذه حالنا في دمشق التي كنا نحنّ اليها في مصر ، ونحيي الليالي

نفكر فيها ، وتتراءى لنا صورتها حيال الأفق من عند قنطرة الزمالك أو من ذروة الهرم ، ونساهر النجم نفكر فيها ونعد الأيام للوصول اليها ، دمشق صارت كالهرة تأكل من حبّها بنيها .

لقد حمل اليّ البريد رسائل جمة ممن أعرف ومن لا أعرف يسألني أصحابها لم لا أكتب في الرسالة في هذه الأيام ؟ فوجدت في هذه الرسائل عزاء ، وشكرت لأصحابها ، وتوهمت حين قرأتها أن في الدنيا من يفكر فيّ ، ويقرأ ما أكتب ، ولكني لم أجب واحداً منهم ، وبماذا أجيبهم ؟ وكيف أقول لهم ان دمشق قد قتلت في نفسي روح الأدب ؟

كيف أشكو دمشق التي أحبها ؟ وكيف أذمُّها بعملها ؟

* * *

ثلاثون سنة ما خرجت منها الا بشيء واحد ، هو أني رأيت الحياة كمائدة القمار ، فمن الناس مَن يخسر ماله ويخرج ينفض كفه ، ومنهم مَن يخرج مثقلاً بأموال غيره التي ربحها ، ومنهم مَن يقوم على الطريق يمسح الأحذية ، ومَن يمد اليه حذاءه ليمسحه له ، ومَن ينام على السرير ، ومَن يسهر في الشارع يحرس النائم ، ومَن يأخذ التسعة من غير عمل ، ومَن يكد ويدأب فلا يبلغ الواحد ، وعالم يخضع لجاهل ، وجاهل يترأس العلماء ، ورأيت المال والعلم والخلق والشهادات قسماً وهبات ، فربَّ غني لا علم عنده ، وعالم لا مال لديه ، وصاحب شهادات ليس بصاحب علم ، وذي علم ليس بذي شهادات ، وربَّ أخلاق لا يملك معها شيئاً ، ومالك لكل شيء ولكن لا أخلاق له ، ورأيت في مدرّسي المدارس مَن هو أعلم من رئيس الجامعة ، وبين موظفي الوزارة مَن هو أفضل من الوزير ، ولكنه الحظ الأعمى ، أو هي حكمة الله لا يعلم سرّها الا هو ، ابتلانا بخفائها لينظر أنرضى أم نسخط .

ولكن ما أضيع أيامي في مدرسة الحياة ، ان كان هذا كل ما تعلمت منها في ثلاثين سنة !

* * *

لقد أذّن الفجر وأنا ساهر ، وأضيئت منارات دمشق التي لايحصيها عدّ ، ورنّ صوت المؤذنين في أرجاء الوجود صافياً عذباً : الله أكبر .. الله أكبر .

الله أكبر من كل شيء ، اللّهم اني أرفع اليك شكاتي ..

اللّهم اني قد نفضت يدي من الناس ، واني أسألك أمراً واحداً ، ألاّ تقطعني عنك ، وأن تدلني عليك ، حتى أجد بمراقبتك أنس الدنيا ، وسعادة الآخرة .



زفرة أخرى

نشرت سنة ١٩٤٠ م

توالت عليّ الذكريات ، فألقيت كتابي ، وأقبلت على ماضيّ أفتش في حدائقه القاحلة عن وردة أخطأتها رياح الشتاء العاتية ، وثلوجه وأمطاره ، فتوارت في كنف صخرة ، أو في حمى جدار ، تكون صورة من الربيع الغابر ، فلم أجد الاّ رفات الأوراق التي كانت مخضرّة زاهية ، وهياكل الأشجار العارية التي كانت تلبس من حلل الربيع سندساً وحريراً ، قد خيّم عليها الموت ، وشملها برده القارس ، فحولت وجهي شطر المستقبل ، فلم ألق الاّ ظلاماً فوقه ظلام ، ووجدت حاضري راكداً ركود الفناء ، ساكناً سكون العدم ، فضاق صدري ، وأغرقتني في بحرها الهموم فجعلت أفتش عن رفيق يأخذ بيدي ، وصديق أبثه همي ، وأشكو اليه بثي ، فلم أجد لي صديقاً الاّ القراء ، أولئك هم أصدقائي الذين لا أعرفهم ، ولا أنتفع منهم بشيء ، ومالي منهم الاّ اعتقادي بأنهم يعطفون عليّ ، ولا يشاركون الحاسدين المؤذين حسدهم ايّاي وايذاءهم لي ، فكتبت اليهم احدثهم بشكاتي ، وأروي لهم ذكرياتي . ولعل هؤلاء القراء يضيقون بحديثي صدراً ، ويعرضون عنه ويستثقلونه ، ولعلّ اعتقادي بصداقتهم وهم من الأوهام ، غير أني لا أحب أن أرزأ هذا الوهم ، ولا أن أتيقن فساده ، لأني أعيش به في دنيا الحقائق المرة .

ومن كان مثلي غريباً في بلدته التي يعرف نصف أهلها ويعرفه ثلثاهم ، يمشي في المدينة الحافلة بالناس مستوحشاً منفرداً كأنه في صحراء ، لا يلقى الاّ رجالاً ، لا يثني تعدادهم أصابع اليدين ، يجول في هذه

الحلقة المفرغة ، لا منقذ له منها ولا مخرج ، قد خلت حياته من الفرح والألم ، وغدت كالماء الآسن ، لا تموج فيه موجة ولا تحركه ريح ، ومن كان يتمنى أن يجد ما يشغله ، ويحرك سواكن نفسه ، وما يدفعه الى الفكر والعمل ، ولو كان البلاء النازل أو الحريق المشبوب ، أو النفي أو السجن ... ومن كان يصبح فلا يدري ماذا يعمل في يومه ، وكيف يدفع هذا اليوم ، ويمسي فلا يعرف ماذا يضيع في مسائه ، وكيف ينام ذلك الليل ، ومَن يحسُّ بثقل الافكار على عاتقه ، ولكنه لا يجد الى بثّها سبيلاً ، ويرى الوقت طويلاً والقوة حاضرة ، ولكنه لا يعلم فيم ينفق وقته ويصرف قوته ، ومن كان معتزلاً مثلي ، لا زاهداً في الحياة ، ولا هرباً من معاركها ، ولكن يأساً من مقبل أيامها ، وقنوطاً من خيرها ، فهو يخلو الى ذكرياته يتعلل بها ويتمززها ، ويحادثها ويناجيها ، ويحيا في خيالات ماضيه حين عجز عن الحياة في حقيقة حاضره ، ومن كان مثلي لا يشكو الفقر في اليد ولا في النفس ، ولكن الفقر في العمل ، ومن كان يجد بحمد الله من المال ما يكفيه في يومه ويفضل عن حاجته ، ولكنه لا يدري ما يكون في غده ، ومَنْ كانت شكواه فرط الحس ، وحدة الشعور ، وجحود الناس وكان يشكو دنيا يتقدم فيها الهجين ، ويتأخر الجواد الكريم ، دنيا فسد فيها كل شيء حتى غدا عقلاؤها ينتظرون الساعة .

مَنْ كان كذلك أدرك حقيقة حالي ، وفهم مغزى مقالي ، ولم يلمني مع اللائمين ، ولا كان عليَّ مع العداة الحاسدين .

* * *

وكم قائل لي : ألا تنسى هذا الماضي وتستريح من ذكراه ؟ ألا تدع المستقبل وتطرّح التأميل فيه ؟ ألا تعلم أن ما مضى فات والمؤمل غيب ،

ولك الساعة التي أنت فيها ؟ فأقول : بلى ، انّي لأعلم ذلك ، ولكن أين السبيل الى النسيان ؟.

واذا أنا نسيت كل شيء ، فكيف أنسى أياماً عشتها لم أكن فيها الطائر المقصوص الجناح ، ولا الغصن الذي قصفته الرياح ، بل كنت أواجه العاصفة أستند الى الجذع المتين ، جذع السنديانة الراسخة ، وأطير فوقها بجناحين قويين ، فهاض الدهر جناحي ، وكسر جذعي ، حين أفقدني أمي ، وصيّرني عرضة للعواصف ، وجعلني معها كالريشة لا تستقرُّ على حال من القلق والذعر والاضطراب ...

وكيف أنسى أنه لو عاش أبي العالم الوجيه ذو المرتب الضخم ولم تخترمه المنية شاباً ، لاحتمينا به من كيد الحياة ، ولنشأنا في ظلّه كما ينشأ الفرع اللين وسط الدوحة القوية الممتدةالأفنان ، ولما اضطررنا الى مواجهة الدنيا ، والتمرس بنكباتها ، ومعرفة لؤم أهلها ، ونحن فتية صغار ، أطهار القلوب ، مبرؤون من الذنوب ، ولا نلبث حتى تتلوث بأوضار الكيد والمكر ، وتتلقف مبادىء (علم الحياة) كما يتلقف الصبي المخطيء مبادىء (فن الجريمة) في السجن الأول ، فلا يخرج منه حتى يحمل شهادة (البكالوريا) في الاجرام .

وكيف أنسى ما نثرت من قطع قلبي ، وفلذات كبدي ، في أرض الله الواسعة التي لا ترعى مهد العواطف ، ولا تحفظ عهد القلوب ، في سفح قاسيون الحبيب ، وفي الغوطة الغناء ...

وفي حرش بيروت الذي يميس صنوبره ميسان الغيد الحسان ، وقد خرجن متبرجات ، ينظرن الى مياه البحر بعيونلها زرقةمائه ، ولأسرارها بعد قراره ... ذلك الحرش ... لي تحت كل شجرة منه ذكرى لا يدريها الا الله وقلبي وذلك القلب الذي سلا وقلى ... وما سلوت ولا قليت ، وما أذعت له سراً ولا أفشيت .

وفي طريق صيدا ، كم صببت من العواطف ، واستودعت من الذكر؟ سلو تلاميذي طلاب الكلية الشرعية في بيروت ، ألم يشهد لنا هذا الطريق أنّا كنا خير مَن مرّ به من اخوان متوادّين ، قد جمعت صداقتهم قلوبهم فمزجتها كلها ، ثم قسمتها ، ثم أعادتها اليهم ، فعاشوا جميعاً بقلب واحد ، والأصدقاء يعيشون بقلوب شتى .

هؤلاء الاخوان الذي وفيت لهم فوفوا لي ، وأحببتهم فأحبوني ، ورأيت منهم لما مرضت فيهم ما لو تخيله القصصي الأديب لاستكثر وعدّه مبالغة من المبالغات .

وفي العراق ، كم خلفت من حياتي ؟ وما الحياة الا خفقات القلوب ، وتردد الأنفاس ، ومظاهر العواطف .

على طريق الأعظمية ، وفي الكرخ الأقصى في حيّ الجعيفر ، وعلى الجسر وفي الأعظمية ، وفي البصرة ، وفي كركوك ، بقع أعزة عليّ ، وقوم أحبّة اليّ ، لولا خوفي من ألا يصدقوني لحلفت لهم أنه لم يطب لي بعدهم عيش ، فهل يكتب الله عودة لتلك الليالي ، فيجتمع الشمل ، ويلتئم الصدع ، وتلتقي الذكريات بالآمال ؟.

اني أسأل الله ، فنبّئوني ، هل مدّ يديه أديب بغداد الأستاذ الأثري ، فقال : آمين ؟ .

يقولون لي : انسَ ، ولكن كيف السبيل الى النسيان ؟

وكيف أنسى أيامي في مصر ، مصر التي محت صورها السنون من نفسي ، فلم يبق منها (ويا أسفي !) الا صورة ميدان باب الخلق مجازى في غدوي ورواحي ، وحديقة الاستئناف التي كنت أتأملها وأنا في المطبعة (السلفية) عند خالي ، والتي استودعتها من العواطف عداد أوراقها وأزهارها وحبات ترابها ، ودار الكتب التي كان بها الشاعر الكبير حافظ رحمه الله ، وشارع محمد علي ، والعتبة الخضراء (الضيقة) التي لم تكن تخلو يوما واحدا من ميت مدعوس ، وصورة

زقاق حوله أنقاض مهدمة ومنازل حقيرة بالية ، كنت أمر به كل يوم في ترام السيدة ، في ذهابي الى دار العلوم وعودتي منها يسمى شارع الخليج ، زعموا أنه صار اليوم شارعاً عظيماً ، وصار فيه بنيان ...
وجسر الزمالك حيث كان يطيب لي الوقوف بازائه كل مساء ، أتبع ببصري الشمس الغاربة ، علّي أرى فيها صورة بلدي دمشق ، فلا أرى الا بريق الشعاع الحادّ يتكسر خلال الدموع التي تملأ عيني ، دموع ابن العشرين ، وقد هاج في نفسه الشوق الذي يسميه لامرتين « مرض السماء » لو كان في السماء أمراض .

وصورة حديقة الجيزة التي كنت أقضي فيها الساعات الطوال ، آنس بوحوشها وهوامّها ، وصورة بستان الى جانبها فيه عمال يبنون ، قالوا : وقد تمّ البناء ، وصار شيئاً عظيماً يدعى جامعة فؤاد الأول والله أعلم بصحة ما قالوا .

صدقوني اذا قلت لكم اني لم آسف على شيء مما صنعت في حياتي أو تركت أسفي على ترك مصر ، ولا أطمع في شيء طمعي في العودة اليها والحياة فيها ، فهي التي سددت خطواتي في طريق الأدب ، وهي التي علمتني ، وهي بلد اسرتي ، وهي التي جعلتني قبل اثنتي عشرة سنة أكتب وأنشر الفصول في أكرم المجلات ، حين كان هؤلاء المحترمون من تلاميذ الشيخ مارسيه على مقاعد المدرسة الابتدائية .

أفليس عجيباً أني على حبي لمصر كنت في نظر بعض زملائنا المدرسين المصريين في العراق ، عدو المصريين رقم (١) ؟ سامح الله زملاءنا هؤلاء ، وغفر لهم ما كادوا لي ومكروا بي ، وغفر لي ما آذيتهم بلساني السليط !

وكيف أنسى ما أضعت على نفسي من خير ، وما عرض لي من فرص فما افترصتها ؟

ان من رفاقي في كلية الحقوق مَنْ هو اليوم من كبار المحامين الذين يشار اليهم ، ومن ينال على وقفة واحدة في المحكمة مئة جنيه في دمشق

الفقيرة ، فلماذا أعرضت عن المحاماة لم أشتغل بها ، وأقبلت على مهنة آخذ فيها خمسة جنيهات على مئة درس ألقيها على أربعين طالباً ، يحتاج اسكاتهم وضبطهم الى شرطيين مسلحين بالبنادق الرشاشة ...

وان من رفاقي في الثانوية مَنْ هو اليوم ناظر ثانوية كبيرة ، وأنا أستاذ معاون ، فلماذا درست الحقوق اذا كانت الوزارة لا تعرف أقدار الرجال الآن بما يحملون من شهادات الاختصاص ، وكان صاحب الليسانس في الحقوق لا يعد أديباً في نظرها ولو كان شوقي زمانه ، أو رافعي أوانه ، وترى صاحب الليسانس في الأدب أديباً ولو كان أعيا من باقل ، وأجهل من جاهل ؟..

وكيف أنسى أني كنت من عشر سنين أقود طلاب دمشق كلهم وأغامر بهم في ميادين السياسة ، واني لو شئت لكنت نائباً من زمن طويل . ان الناس لم ينسوا ذلك فكيف أنساه أنا ؟ انهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له أحد في باب الارتجال والاثارة ، وايقاظ الهمم وصب الحمم ، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق .

أستغفر الله فما أحب الفخر ، ولكني اضطررت فقلت . وهل أسكت اذا سكت الناس عن بيان حقي ؟

ان للمظلوم كلمة وهذه احدى كلماتي ، فان كانت فخراً فقديماً كان الفخر من فنون الأدب العربي ، والا فهي ذكرى وتأريخ لأخلاق الناس وأطوار المجتمع .

وكيف أنسى أني بين ماض أضعت فرصه ونسيت ذكرياته وفقدت فيه ذخراً من العواطف الجياشة والشعور المضطرم ، وحاضر بددت أيامه بالرجوع الى الماضي ، وصرفت بكره وعشاياه في نبش الذكريات والبحث في أطلالها عن الجواهر والكنوز ... فما كان الا أن دفنت فيها كنز حياتي وجوهر عمري ، ومستقبل لم أعد أرجو منه شيئاً لأني يئست من أن يأتيني منه خير .

ومن يصدق أني أتمنى لو كنت غنياً جاهلاً عيياً لأستريح وأهنأ ، لأني وجدت الذكاء يدفع الي الألم ويؤدي الى الشقاء ، وأني لأهمل القراءة عمداً كي أنسى ما علمت فأغدو جاهلاً فلا آلم ان تقدمني الجهال من أمثالي ولا ألوم الحياة على ظلمها اياي ، فلا أستطيع ، وأراني مدفوعاً الى الازدياد من هـذا العلم ، كأن القدر يسوقني بعصاه الى الاستكثار من القراءة فأزداد بذلك علماً فأزداد بالعلم ألماً حين أرى علمي وبالاً علي وأرى الجهال يسبقوني ويسرقون منزلتي ، ولو أني استبدلت باحياء الليالي في المطالعة والدرس وثني الركب بين أيدي العلماء رحلة واحدة الى (تلك) الديار أعود منها بعد شهرين بشهادة في اللغة العربية لم تكتب سطورها بالعربية لكان ذلك خيراً لي وأجدى علي من علوم الأرض كلها لو حصلتها .

ولكني كرهت أن أتوكأ في سيري الى غابتي على غير أدبي ، ونزهت نفسي عن أن أجعل عمادي ورقة صار يحملها الغبي والعيي والجاهل واللص الذي يسرق مباحث الناس ويسطو على آثارهم .

ان عمادي هذا القلم وانه لغصن من أغصان الجنة لمن يستحقها ، وانه لحطبة مشتعلة من حطب جهنم لمن كان من أهل جهنم .

ولكن ما الفائدة من هذا الكلام ؟

ما الفائدة وقد ولى ربيع حياتي ، وأدبرت أيامي ، واستبدل قلبي بالأصيل المذهب ليلاً حالك السواد ؟ لقد شخت حقاً ، وصرت كالعجوز الذي حطمه الدهر ، وفجعه في أولاده فسيّره في مواكب وداعهم الباكية ، وما أولادي الا أماني ، وما قبور الأماني الا القلوب اليائسة .

فيا رحمة الله على تلك الأماني !

يا رحمة الله على الأيام التي كنت فيها غراً مغفلاً أصدق كل خداع كذاب يزعم أن في الدنيا فضيلة وخلقاً وأن قيمة الانسان بما يملكه منهما . لقد خدعني المعلمون والأدباء ، فلماذا أخدع تلاميذي ؟ لماذا لا أقول

لهم : ان المكر والكذب والنفاق هي في شرع الحياة فضائل ، فأعـدوا قواكم لاصلاح المعوج من شرائعها ، أو فانزلوا على حكمها ، فخاطبوها بلسانها ، وادخلوا من بابها ؟

ان المربين والمعلمين سينكرون ذلك ويكبرونه ويرونه افساداً لعقول الناشئة ، فليكن اذن ما يريد المربون والمعلمون !

يا رحمة الله على تلك الأيام ومن يعيدها اليّ ؟ من يرجع اليّ ثقتي بالحب واطمئناني الى الكتب وسكوني الى النّاس ؟

كنت أرى الحب أساس الحياة ، عليه قام الكون ، وبه استمر الوجود ، وكنت أومن به ، فغدوت لا أومن الا بالبغض ، وصرت أحب أن أُبغض ، وأبغض أن أحب .

فمن يدلني على مصنّف في أساليب البغض حتى أتقنها وأفهمهـا ، فأبغض الناس كلهم ؟ أبلغ الجفاف في القرائح والجدب في العقول ألا يصنّف كتاب واحد في (البغضاء) ، وقد ألف السخفاء ألف ألف كتاب في الحب ؟

لا ، بل من يرشدني الى الفرار من مهنة الأدب والتخلص من الحب والبغض والعواطف كلهـا ؟ من يحسن اليّ فيدعو لي بظهر الغيب أن يصحح الله عزيمتي على ترك الأدب ، أو ينقص من شقائي به ؟ لقد أعطيت عدة الأديب ، ولكنّ الناس آذوني حتى أهملت عدتي فأسلمتهـا الى الصدأ ، فأكلها ، ففنيت غير مأسوف عليها ، لا يأسف الناس لأنهم هم الأُلى أفنوها ، ولا آسف أنا لأني لم أنل منها خيراً .

فلا يغضب القراء ! اذا أنا أودعت الأدب بالتحدث عن نفسي ، فاني أرثيها قبل موتها ، أرثي مواهبي المعطلة ، لقد مت ، فدعوني لا تؤذوني بالانتقاد البارد ، أذكروا محاسن موتاكم ، واذا لم تكن لهـم محاسن فعفوا عن ذكر مساويهم .

ولا تنفسوا على أخيكم « زفرة » يزيح بها عن صدرهما ثقيلا !

كتاب مفتوح

إلى الأستاذ أحمد أمين

نشرت سنة ١٩٤٣

كان هنا شاعر لم يعرفه الناس حتى عرفتهم به هدآت الأسحار ، اذ كان يطوف فيها على مرابع حبه ، يغنيها على ربابه أعذب ألحانه ، وأشجى أغانيه ، وكان ينادي الليل الراحل بأرقّ أسمائه ، فيلتفت الليل ويقف لحظة يصغي اليه ، والفجر يستحثه على الرحيل ، وتنصت اليه قلوب العاشقين ، فان غنى بـ (يا ليل) هاج بها الشجن فأجابت من لوعتها بـ (آه ...) ، ويعرفه القمر ، لأنه كان يسكب في نوره ألحانه ، فتطفو على وجه النور ، ثم تسيل من رقتها فيه ، وتمتزج به امتزاج الخمرة بالماء ، فيشرب فيه أرباب القلوب خمرة نورانية تهيج في نفوسهم سكر الحب الطاهر ، والعاطفة الخيِّرة ... وعرّفتهم به الضمائر المؤمنة ، اذ كان يهتف بها مع الفجر بالنشيد العلوي الذي يوقظ في نفس الانسان الذي يسمعه (الملَك) ، فاذا استيقظ فيه الملَك ، خنس (الشيطان) ، واستخذى (السبع) ، فتعرف بنشيده لذة الايمان ، وما في الأرض لذة كلذة الايمان ... شاعر لم يكن يعرف فضلا[1] من عروض الأوزان ، ولا سُلّم الألحان ، ولكنه يعرف كيف يعتصر قلبه بيد الألم ، وكيف يذيب نفسه بلهيب الذكريات ، ثم يجعل

(١) الفضل : الزيادة

من ذلك أشعاره التي يغنيها على ربابه ، فتميل اليه القلوب ، وتحنو عليه، وتجد عنده الأنس والاطمئنان •

غنى للايمان وللوطن وللحب ، وأكثر الغناء • ولكن النغمة البارعة التي تجيش بها نفسه ، لم يتحرك بها لسانه ، ولا جرت بها يده على ربابه الى اليوم ، من أجل هذا كنت تراه اذ تراه ، حائراً مضطرب الجوانح ، زائغ البصر ، كأنما يفتش في الفضاء عن شيء أضاعه، يفتش وراء أفق الزمان ، عن الشيء الذي لم يجده فيه ، فهو لا يفتأ ينظر الى ماضيه يقبله ، ويجوس خلاله ، علّه يجد فيه ضالّته ، فاذا افتقدها عاد الى الآتي ، يحاول أن يستشف بعين الأمل ما خلف بابه ، فلا يشف الباب عن شيء ، أما الحاضر فلا شأن له به ولا يعنيه أمره •

أعجب به الناس لما عرفوه ، وأحبوه ، ثم ألفوه واطمأنوا اليه ، ثم تعودوا أن يروه ويسمعوه ، فأضعفت العادة شعورهم به ، فكانوا لا يدرون به ان حضر ، ولكنهم يفتقدونه اذا غاب••• ثم أصبحوا لا يعنيهم فقده ، ولا يعز عليهم غيابه •

وطرق الحي (شعراء) ، يضربون على الطبول الكبيرة ، ويصرخون بأغان فارغة مدوّية كطبولهم ، لا تدعو الى فضيلة ، ولا تهز عاطفة ، ولا تمس من النفس موضع الايمان ، ولكنها تدعو الى الشهوة ، وتثيرها في الأعصاب ، لا تعرفهم هدآت الأسحار ، ولا يدري بهم فتون الفجر ولا شعاع القمر ، ولكن تعرفهم أضواء الكهرباء الساطعة في معابد الشيطان ، وهياكل الشهوة ، وتعرفهم موائد الخمور في دور الفجور ، فحفّ الناس بهم ، وصفقوا لهم • عند ذلك كسر الشاعر ربابه ، وانسل خارجاً من الحيّ بسكون ، وأمّ الجبل ليتخذ لنفسه من (الجادة السادسة) ملتجأ ، يعصمه علوه من أن يسمع قرع هذه الطبول ، وعاد كالشيخ الذي صارت أيامه الثلاثة يوماً واحداً ، فطال أمسه حتى شمل

يومه ، وأمتدت ظلاله الى غده ، فلم يعد يعيش ، وانما يعيش خياله في خيالات الماضي ، كالشجرة التي عرّتها لفحات كانون ، فهي تعيش في ذكرى آذار المنصرم وزهره ، وتموز الماضي وثمره ... ومتى رجعت في كانون أزهار آذار ؟

أجل يا سيدي ، لقد مات الشاعر ، ودفن في جبة القاضي ، ولو جاء أمرك اياه بالكتابة للثقافة وفي عاطفته ذلك التوقد ، وفي أعصابه تلك النار ، يوم كانت تناثل عليه المعاني ، وتجيش بالصور نفسه ، ويتحرك بالبيان لسانه من غير أن يحركه ، حتى لكأنه الجواد الكريم يتفلّت من الشكال ، وكأنّ قلمه اذ يجري على الطرس يسابق اليد التي تجريه ، والفكر الذي يمده ، لوجدته أسرع الى طاعتك من السيل الدفاع الى مستقره ، بل أسرع من الطرب الى نفس الكريم ، والحب الى قلب الأديب . يوم كان يعيش في دنيا الناس ، وكأن له دنيا وحده ، يرى فيها ما لا يرون ، ويسمع ما لا يسمعون : يرى في كل مشهد جمالاً ، وفي كل جمال حلماً فاتناً يستغرق فيه مسحوراً ، ويدرك من لذاذاته ومتعه ما لا يعرفه الاّ مَنْ سمع حديث الجمال ووعاه بأُذن قلبه ، وأمضى لياليه حالماً سادراً في أحلامه ، فاذا صحا لم يجد ما يترجم به عن نفسه الاّ لغة ضيقة قاصرة ، خلقت للتعبير عن حاجات الأرض ، لا لوصف أحلام السماء ، وماذا تصنع لغة لا تعرف للجمال كله على ما له من الصور التي لا تنتهي ، والمعاني التي لا تنفد ، الا كلمة واحدة هي كلمة (الجمال) ، وأنّى لها أن تترجم عن عالم كله حياة وقوة وسحر ؟ وكيف تقنعه وللجمال في عينيه صحائف يقرأ منها كل يوم جديداً ؟ فلكل وجه جمال لا يقاس به غيره ولا يشبهه سواه ، ولكل مقلة جمال ، ولكل بسمة ولفتة ، ولكل رنة صوت ، ولكل ومضة ثغر ، ولكل واد وجبل ، ولكل سهل ونهر ، ولكل مقطوعة من الشعر وكل صورة في المتحف ،

وكل زهرة في الروض ، ولكل رائحة وكل نغمة . فجمال ريا الياسمين ، وجمال أريج الورد ، وجمال عبق الزنبق ، وجمال رَوْح الفلّ ، وجمال البيّات والرصد ، والحجاز والصبا ، والعود والقانون والناي والكمان ، وجمال القصة المؤثرة ، والحكمة المتخيرة وما شئت وما لم تشأ من أنواع الجمال في الوجود ، كل أولئك ليس له في هذه اللغات البشرية ، الا لفظ واحد يدل عليه ويشير اليه ... يا ما أفقر لغات البشر !

وكان تذوّق الجمال يهيج في نفسه الأدب ، والأدب هو البثّ ، فلا تتم له متعة ولا يحلو له نعيم حتى يشرك الناس معه في نعيمه ، وكذلك الأديب يجود على الناس بأعزّ شيء عليه : بشعوره وعواطفه ، فيفتح لهم نفسه ، ويكشف لهم عن سرائره ، ولا يستأثر دونهم بشيء ، فهم معه في ألمه وسروره ، ويأسه وأمله ، يتلو عليهم نبأ حبه وبغضه ، وحركاته وسكناته ، فيشاركونه حياته ، ثم يقولون : عجباً لهذا الغبيّ الثرثار الذي لا يفتأ يتحدث عن نفسه ، ولا ينفك مزهواً بها زهو الديك بريشه ، مالئاً الصحائف بأخبارها ، كأنّ الناس لا همّ لهم الا أن يسمعوا خبرها ... ما درى الظالمون أنهم يتهمون بالأثرة رجلاً هو أول المؤثرين !

وكان ينقل ما يحس به من معاني الخلود الى لغة الفناء ، فلا يبقى منه الا الأقل الأقل ، ثم يعدّه للنشر فيضيع أكثر جماله الباقي بين مراعاة آداب المجتمع وقوانين النشر ، وأذواق الناشرين ونزعات القارئين ، ثم ينشر فاذا هو يرضي القراء ، واذا منه المعجب المطرب ، المقيم المعقد ، ولكنه لا يرضى عنه ، ولا يعجب به ، لعلمه بأن خير ما كتب ، ما لم يعبر عنه بلفظ ، ولم يجر به قلم على قرطاس ... وما كان يا سيدي ليفخر أو ليزهى ، وانه لأعرف الناس بنفسه وعيوبها ، وأدبه ونقائصه ، ولكنك فتحت عليه باباً للذكريات أعياه الليلة سده ، وقد كان قبل اليوم مسدوداً .

وذو الشوق القديم وأن تسلى مشوق حين يلقى العاشقينا

وانه لواحد ممن وأد هذا المجتمع ما كان لهم من ملكات ... كانت له « نفس » فماتت ، أفما يترك ليرثي يا قوم نفسه ؟ يذهب مال الرجل فيبكي ماله ، ويحرق بيته فيندب بيته وتودي تجارته فيعول على تجارته ، ويهجره حبيبه فيأسى على فقد حبيبه ، وتموت نفسه ويجف في حلقه لسانه ، فلا يطلق ليبكي نفسه ، وينوح على بيانه ؟

* * *

في أصيل يوم من أيام الخريف من سنة ١٩٢٨ وقف حيال جسر الزمالك في القاهرة ، شاب شارف العشرين من عمره ، كان في السن التي يعيش فيها المرء للهوى والأحلام ، فنظر الى النيل مرة ، والى الفضاء الأرحب مرة ، فذكره الأفق البعيد المتشح بأنوار الغروب بحلته المنسوجة من خيوط الشمس ، بلداً له حبيباً الى نفسه ، هو أضوأ في عينيه من الأفق الذي توارى وراءه ، وأماً له واخوة كانوا هم جمال هذا البلد ، وملاعب الصبا ، ولدات الطفولة ، ذكر دمشق وكان له في كل بقعة منها ذكرى هي قطعة من حياته ، وما حياة المرء الا الذكريات ، ذكر سفح قاسيون الأنيس ، وصخوره الضاحكة ضحك الجبروت ، والربوة منبت الحب ومثوى الأماني ، والغوطة جنة الدنيا وبستان الأرض ، والميزان والشاذروان ، والمزة وكيوان ، فهاج نفسه الشوق وأثارها الحنين ، فنسي مقعده في دار العلوم العليا ، ونسي المطبعة السلفية في شارع الاستئناف التي تشرف فيها بلقاء الأعلام من علماء العصر من أصدقاء خاله الكريم محب الدين : تيمور باشا والرافعي وأحمد أمين وعزام والخضر التونسي والغمراوي ، ونسي جمعية الشبان المسلمين عند دار النيابة ، وولى وجهه شطر المحطة ، فلم تكن الا ساعات حتى كان هذا الفتى يودع القاهرة التي دنت له فيها الأماني ، ويركب متن الشوق الى

البلد الحبيب ، لم يدر أنه ودع يوم ودع مصر ، مستقبله الأدبي ومجده ، ونبوغه واستعداده ، وفارق الأرض الخصبة الريانة ، يحمل بذوره ، لينثرها على الصخر الصلد ، ويرجو لها النبات .. وترك القاهرة ورجع الى البلد الذي يموت فيه الأديب ، وكان ذلك أول سطر في صفحة شقائه .

هذا الشاب الذي كان يتدفق حياة ، ويتوثب نشاطاً ، والذي كان له في كل ميدان جولة ، وكان في كل معمعة فارسها المعلم ، والذي عمل للأدب وللاصلاح ، وللسياسة وللصحافة ، وللتعليم وللتصنيف ، والذي عرفته العراق وعرفها ، وأحبها وأحبه تلاميذه فيها ، وبقي فيهم من يفي له ويذكر عهده ، وبقي هو وفياً للعراق ذاكراً عهدها ، وكان شأنه في لبنان كشأنه في العراق ، والذي مشى الى الحجاز ، وكان له في كل بلد أثر في نفوس أصدقائه وفي قلوب الآلاف المؤلفة من تلاميذه ، الذين ما انفك يوليهم من نفسه وقلبه حتى لم يبق له نفس ولا قلب ... هذا الفتى أعادته الأيام بعد هذا كله شيخاً ولم يبلغ الأربعين ، ميتاً يمشي مكفناً في جبة وضيقت رحاب نفسه حتى أحاطت بها مواد القانون ، وحطمت قلمه فتعثر فهو لا يجري الا في حيثيات القرارات وصيغ المخالفات ، وصغرت دنياه حتى صارت تحدها جدران المحكمة الأربعة .. فماذا يا سيدي يرجى منه بعد هذا ؟

قضى عليه بلده الذي أحبه ، وفارق من حبه مصر بعد ما بسم له فيها المستقبل عن ثنايا بوارق ، ولو أنه بقي في مصر ، ومصر (موطن أسرته الأول) تعرف للأدب حقه ، وللأدب منزلته ، لكان منه اليوم (شيء) !

على أن مصر ان أردت الحق ، لا تحب الا أبناءها ولا تبسم الا لهم . وترى واحد الأديب المصري مئة ، ومئة غيره لا تساوي عندها واحداً . والا فخبرني بالله ، لمَ يحتفل نقادها بأصغر كتاب يصدر فيها

ويشتغلون بالكلام عنه الأيام الطوال . ولا يخطون كلمة ثناء أو نقد للكتاب القيم يصدر في بر الشام أو في العراق ؟

وما له يعتب على مصر ، وهذا بلده طاشت فيه الموازين وانقطعت الأسلاك ، وتبلبل الرأي واختلط الحابل بالنابل ، والمتحليات بالعواطل ، حتى أن الصحف لتجمع على مدح الكتاب وتقريظه ، وتهلل للشعر الجديد وتصفق ، وما ثمّ الاّ منكر من القول قد صيروه معروفاً ، أو ثقيل بارد استحبوه ، أو غث متهافت رأوه قوياً بليغاً ، كأن الأدب صار لهواً وعبثاً ، وكأن العربية انحلت عراها ، وانفرط عقدها ، ولم يبق لها هذا (الكتاب) تعتصم به ، فيحفظ عليها وحدتها ، ويكون بين أولها وآخرها السبب الموصول والحبل المتين ، فقديمها به حديث أبداً نفهمه اليوم وتتذوقه ، وحديثها به قديم ، لو نشر الله العرب الأولين لفهموه وتذوقوه ، وكأن الأديب هو من ينزع عن جسمه جلده ليلبس جلداً مصنوعاً في المعامل التي هي (هناك) ، ومن يود لو خلع رأسه ليركب له رأساً فيه عقل من (هناك) ، والذي يفرق بالجهات بين الحق والباطل ، فما جاء من حيث تشرق الشمس كان باطلاً كله ، ولو كان الدين والأخلاق والشرف ، وما جاء من حيث تغيب ، فهو حق كله ولو كان الكفر والفسوق والعصيان ... وحتى آن هذا البلد لينكر الأديب الصريح ، الثابت النسب ، الموصول السبب ، ويحفل بكل لصيق دعيّ ... ولكن هل يشكو امرؤ بلده وأهله ؟

بلادي وان جارت عليّ عزيزة وأهلي وان ضنوا عليّ كرام

فلا عليك يا دمشق ما صنعت بمن لم يكد يحبك أحد مثلما أحبك ، ولم يصف من جمالك كاتب مثلما وصف ، ولا أشاد بذكرك مثلما أشاد ، وهذي صديقتنا « الرسالة » أخت « الثقافة » شاهدة على ما يقول . لا يمنّ ويؤذي بالمن ، ولكن يعاتب ويشكو ...

* * *

ولئن كتب الله لهذا (الميت) ولادة أخرى ، والمرء يولد فيه كل يوم رجل جديد ويموت رجل قديم ، وأعاده الى الحياة فليضربن ان شاء الله في سماء الأدب بجناحين مبسوطين ، وليطلعن على آفاق لم يرها من قبل، وليحدثن قراء الثقافة حديثاً هو أحلى من مناجاة الحب ، وحديث القلب، والا" يكتب' له ذلك فعليه رحمة الله ، وما ضر النـــاس بفقده (شيئاً) وهذا اعتذار تضمنته شكوى ، فانشره يا سيدي مشكوراً ، أو فدعه غير ملوم :

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

جواب الاستاذ احمد امين رحمه الله :

ارسلت « الثقافة » الى الاستاذ الأديب الدمشقي ترجوه الخروج عن صمته ، والعودة الى تلحينه ، وقد عرفت منه كاتباً قديراً ، واديباً متفنناً، فبعث بهذا الكتاب ، وأباح لنا نشره ، ولعل هذا يكون سبباً باعثاً للاستاذ أن ينفس عن نفسه ، ويستعين قلمه ، ويمتع القراء بآثاره ويتحرر من الدنيا الضيقة التي يعيش فيها بين القضايا وكتب القانون وحيثيات الأحكام ، الى الدنيا الواسعة ، دنيا العواطف ، ودنيــا الناس ومنازعهم ومشاكلهم واصلاحهم ، فما خلق الأديب وقفاً على مثل هذه الدنيا الضيقة .

والاستاذ يعتب على المجلات المصرية أنها تشيد بالتافه من نتاج مصر ، ولا تشير الى الجيد من نتاج الأقطار الأخرى كالشام والعراق ، وقد سمعنا هذه الشكوى مراراً ، وقد يكون فيها شيء من الحق ، ولكن أكبر الظن أنه اهمال غير مقصود ، ولعل" كتاب الشام والعراق يحملون كثيراً من التبعة ، فالكتب الشامية والعراقية تظهر بين اظهرهم وهم أعلم الناس بها وبملابساتها وبقيمتها ، فلو كتبوا عنها ونقدوها نقداً قيماً ، وعرفوا بها تعريفاً صحيحاً، لما تأخرت المجلات المصرية عن نشر مقالاتهم ومشاركتهم في الاشادة بالآثار القيمة منها . و « الثقافة » على الأقل تلتزم هذا وتتعهد به وتعتقد أنهـا بذلك تسد نقصاً واضحاً فيها ، وفي سائر المجلات ، وهو عدم ايفاء باب النقد حقه ، سواء أكان النتاج مصرياً أو عراقياً أو شامياً . وفي انتظـار مقالات الاستاذ نحييه ونشكره .

* * *

الشفـاء

نشرت سنة ١٩٣٦

... كان مصاباً بالسل ، ولكنه سل غريب قاتل ، لم يكن في الرئة ولا في الأمعاء ، بل كان في النفس ، في الفكر ، فـكان يعطل شعوره وتفكيره ، ويخنق حياته ، ويهد كيانه ... كان مصاباً « بداء الحب » .

خمدت جذوة قريحته ، وتعطلت ملكاته كلها ، وضاع ذكاؤه وبادت فطنته ، وضاق كل شيء في نظره ، فأصبح يراه مقتضباً مختصراً : المسرات كلها اختصرت في لقاء مَن يحب ، والآلام في فراقه ، والواجبات كلها في ارضائه ، والمحرمات كلها في اغضابه ، واختصر كتاب حياته ، وطمس اسمه وعنوانه ، فكان حاشية صغيرة على هامش حياة التي يحبها، واختصرت الدنيا الطويلة العريضة المليئة بالفضائل والأمجاد ، الفياضة بالجمال والحقيقة والخير ، فكانت كلها هذه المرأة ..

وأقهمَ عن الطعام واجتواه ، وأصبح خالفاً لا يشتهيه ولا يميل اليه، واذا اضطر أكَلَ أكْلَ من قزّت نفسه واكتفى بلقيمات ما يقمن صلبه، كأنّ هذا المرض لا يرضيه ما يفسد من النفس ، حتى يحطم الجسم ، وأصابه الأرق ، فأمسى يبيت ليله سهران مسهداً ، واذا رنق النوم في عينيه ، وغلبته حاجة جسمه خفق خفقة ، ثم أفاق فزعاً ، يفكر في هـذا الانسان ، يخاف أن يطير مع الأنفاس ، أو يسيل مع الدمع ، أو يغرق في بحر عينيه !

فهزل جسمه وخارت قواه ، وتراخت مفاصله ، وشحب وجهـه ،

وآض ساهماً رازماً ، ضعيفاً مُخَبْخَباً ، ولم يعد يعيش الا على المجاز، يعيش بذكرى أيامه الماضية قبل أن يصيبه هذا السل ، أيام كان ذا جسم قوي ، وفكر ثاقب ، وقلب شاعر .. ولم يعد ينتفع بنفسه ، أو ينتفع بها الناس بشيء ، لأنه أصبح لا لنفسه ولا للناس ولا للحياة ، ولكن لانسان واحد يحبه ..

وهكذا الحب أبداً : مرض في الجسم ، وضيق في الفكر ، وفرار من حومة الحياة !

* * *

وكـان أمس ، وكان يومـاً من أيـام الخريف في بغـداد ، هبت فيه الرياح خرقاء هوجاء معصفة ، تذعذع[1] الأشجار ، وتثير الأوراق ، وتكسر الأغصان ، وتمتد الى كل شيء في الطبيعة ، فتعيث فيه وتعبث به ، وتدفعه من ههنا ، وههنا ... معتكرة تسفي التراب . وتحمل هذا الغبار الناعم الدقيق[2] الذي يملأ الجو ويخالط كل ذرة من ذرات الهواء، وينتشر في السماء كمثل السحاب ، يمنع الشمس ، ويحجب المرئيات ، ولا يمنع منه شيء ، فهو يدخل الغرف مهما أحكمت اغلاق الباب وضبطت النوافذ ، وينفذ من خلال الثياب مهما كانت حصيفة محكمة ، ويخش[3] في العيون والمناخر والآذان ، وفي أصول الشعـر ، ويمر الى أجواف الصناديق ، وبطون الخزائن ، وقلوب الساعات ... بل انه لدقته وخفته وسرعته ليكاد يدخل في نفسه ...

وكان على صاحبنا أن يغدو الى عمله في بغداد ، وكان ينزل ضاحية من ضواحيها ، فتردد ثم لم يجد من الأمر بداً ، فتحزم وتدثر ، وتعطف بمعطفه الثخين ، والتحف فوقه بالممطر (المشمع) يتقي به المطر ، ولف شملة على عنقه ، ولبس قفازيه ، وأخذ عصاه فتوكأ عليها ، وسار الهوينى،

(١) أي تميل. (٢) ويسمونه الطوز واللفظة أصلها تركية. (٣) قال في القاموس : خششت في المكان دخلت !

لا يطيق حراكاً ، لكثرة ما يحمل من ثياب ، ولطول الطريق ، وشدة الرياح ، وما به من الضعف والاعياء .

* * *

وكان وحده في طريق (الصُّلَيْنخ) ، لم يجد سيارة يركبها ، ولا قوماً يصحبهم ، فنزل ماشياً ، وكان الطريق طويلاً على طرفيه النخيل ، تعبث به الرياح فتميل بجذوعه وتحرك أغصانه . فتفرقها ثم تجمعها ، فتبدو كأنما هي مراوح ضخمة ، تحركها يد لا ترى ، فترَوِّح بها على وجه الدنيا ، وكانت تظهر أوائلها ، وتغيب أواخرها في هذا السحاب الترابي الذي يغطي على كل شيء ، ويصل الأرض بالسماء ، فترى الطريق كأنه صاعد اليها ، أو تراها كأنها هابطة اليه ، وكانت الرياح زعزعاً شديدة ، تميل بالأشجار وتعصف بالغصون ، ولم يكن ثابتاً وسط الرياح الا صاحبنا بعصاه وضعفه وأحماله ... ولحظ ذلك من نفسه ، وأعجبه أن يلحظه ويفكر فيه ، وعراه شيء من الاعتداد بالنفس ، وازداد حتى ملأه الشعور بقوته ، فجعل ينظر في عطفيه زهواً وتيهاً ، وجعل يتأمل دخيلته ، ويفكر في نفسه ، مَن هو ؟ وما هذه الحياة التي يحياها ؟...

واشتدت الرياح وعزفت ، ثم صفرت صفيراً ، فلم يبال بها ولم يحفلها ، لأن زوبعة أخرى أشد هولاً قد هبت في نفسه ... تنطح هذا الجبل وتريد أن تنسفه ... فوقف يفكر : لماذا يضيّق حياته بيده ؟ لماذا يعطل فكره وملكاته ؟ أكل ذلك لأنه وجد انساناً جميلاً ظن أنه يحبه؟

لتكن جميلة أو قبيحة ، ما شأنه هو بها ؟ ومَن قال انه لا يعيش الا بها ؟ ماذا كان يصنع قبل أن يعرفها ؟ ألم يكن يعيش ؟ ألم تكن حياته أجمل وأحفل بالعظائم ، وأملأ بالفضائل ؟ هل كان هذا الحب الا مرضاً عضالاً هدّ جسمه ومحا مواهبه ، وفلّ عزيمته ، وأقام بينه وبين الحياة سداً من لحم ودم ؟

يا للسخف ! أيحكم على نفسه بالألم الدائم ، والقلق المستمر ليحظى ذلك الانسان بالسرور والاطمئنان ؟

أيوجب على نفسه الشحوب لأنها موردة الوجنتين ؟ أيختار المرض والهزال لمجرد أنها صحيحة بضة ؟...

يا للخجل ! ألا يرى الدنيا الا في عيني هذا الانسان ؟ أيقنع من السعادة والمجد والعلم والبطولة والدفء والنور والحياة بابتسامة واحدة ؟

وبدا له الحب كأسخف شيء يكون ...

* * *

وكانت الدنيا قد استطير لبها ، وجن جنونها ، وهطلت الأمطار سريعة قوية ، تضرب وجهه ... فأحس بالقوة والنشاط ، وجعل ينشق ملء رئتيه ، وتبرق عيناه بريق العزم ، ثم ألقى عصاه وشملته ، ونزع عنه هذه الأحمال من الثياب ... وانتفض وضرب الفضاء بقبضتيه ، وصاح صيحة الفرح : قد شفيت !

ثم انطلق نحو الدنيا الواسعة . لم تعد محرمة عليه ، لأنه لم يعد يحب!



الوحـــدة

« ... ان كل عناء في الحياة مصدره أننا نحيا منعزلين . وكل ما نبذل من جهودنـا لا نريد به الا" الفرار من هذه العزلة » .
جي دوموباسان (الرسالة ٢١٠)

نشرت سنة ١٩٣٧

ما آلمني شيء في الحياة ما آلمتني الوحدة ٠ كنت أشعر كلما انفردت بفراغ هائل في نفسي ، وأحس بأنها غريبة عني ، ثقيلـة علي" لا أطيق الانفراد بها ، فاذا انفردت بها أحسست أن" بيني وبين الحياة صحارى قاحلة ، وبيداً ما لها من آخر ، بل كنت أرى العالم في كثير من الأحيان وحشاً فاغراً فاه لابتلاعي ، فأحاول الفرار ، ولكن أين المفر" من نفسي التي بين جنبي" ، ودنياي التي أعيش فيها ؟

ان نفسي عميقة واسعة ، أو لعلي أراها عميقةواسعة لطول ما أحدق فيها ، وأتأمل جوانبها ، فتخيفني بسعتهاوعمقها ، ويرمضني أنه لا يملؤها شيء مهما كان كبيراً ... وهذا العالم ضيق أو لعلي أراه ضيقاً لاشتغالي عنه بنفسي ، وشعوري بسعتها ، فأراه يخنقني بضيقه ...

اني أجمع العالم كله في فكرة واحدة أرميها في زاوية من زوايـا نفسي ، في نقطة صغيرة من هذا الفضاء الرحيب ، ثم أعيش في وحدة مرعبة أنظر ما يملأ هذا الفضاء ...

اني كلما انفردت بنفسي ، فتجرأت على درسها ، والتغلغل في أعماقها ،

بدت لي أرحب وأعجب . فما هذا المخلوق الذي يحويه جسم صغير ، لا يشغل من الكون الآ فراغاً ضيقاً كالذي يشغله صندوق أو كرسي ... ويحوي هو (المكان) كله ، ويشمل (الزمان) ، وينتقل من الأزل الى الأبد في أقل من لحظة ، وينتظم (الوجود) كله بفكرة ، وتكاد الحياة نفسها تضل في أغواره ؟

من المستحيل أن نفهم هذا المخلوق الذي ندعوه (النفس) لذلك نخاف الوحدة ونفر منها . اننا نخشى نفوسنا ، ولا نستطيع أن ننفرد بها ، فنحب أن نشتغل عنها بصحبة صاحب ، أو حب حبيب ، أو عمل من الأعمال ... ونخشى الحياة ، ونحب أن نقطعها بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو غير ذلك مما نملأ به أيامنا الفارغة . واذا نحن اضطررنا مرة الى مواجهة الحياة ، ومقابلة الزمان خالياً من ألهية نلهو بها ، كما يكون في ساعة الانتظار مللنا وتبرمنا بالحياة وأحسسنا بأن الفلك يدور على عواتقنا . أفليس هذا سراً عجيباً من أسرار الحياة : يكره المرء نفسه ويخشاها ، وهي أحب شيء اليه ، ويفر منها ... ويضيق بحياته ، وهي أعز شيء عليه ، ويسعى لتبديدها واضاعتها ؟

* * *

عجزت عن احتمال هذه الوحدة ، وثقل عليّ هذا الفراغ الذي أحسه في نفسي ، فخالطت الناس ، واستكثرت من الصحابة . فوجدت في ذلك أنساً لنفسي ، واجتماعاً لشملي ، فكنت أتحدث وأمرح وأمزح وأُضحك وأَضحك ، حتى ليظنني الرائي أسعد خلق الله وأطربهم ، بيد أني لم أكن أفارق أصحابي وأنفرد بنفسي ، حتى يعود هذا الفراغ الرهيب ، وترجع هذه الوحدة الموحشة .

انغمست في الحياة لأملأ نفسي بمشاغل الحياة ، وأغرق وحدتي في لجة المجتمع ، واتصلت بالسياسة وخببت فيها ووضعت وكتبت

وخطبت ، فكنت أحسُّ وأنـا على المنبر بأني لست منفرداً وانما أنـا مندمج في هذا الحشد الذي يصفق لي ويهتف ... ولكني لا أخرج من الندي ويرفضُّ الناس من حولي ، وأنفرد في غرفتي حتى يعود هـذا الفراغ أهول مما كان ، وترجع الوحدة أثقل ، فكأنها ما نقصت هناك الا لتزداد هنا ، كالماء تسد مخرجه فينقطع ، ولكنك لا ترفع يدك حتى يتدفق ما كان قد اجتمع فيه ... فماذا يفيدني أن أذكر في مئة مجلس أو يمر اسمي على ألف لسان ، وأن يتناقش فيَّ الناس ويختصموا ، اذا كنت أنا في تلك الساعة منفرداً مستوحشاً متألماً ؟..

وجدت الشهرة لا تفيد الاّ اسمي ، ولكن اسمي ليس‌مني ، ولا هو (أنـا) فأحببت أن أجد الأنس بالحب وأن أنجو به من وحدتي ، فلم أجد الحب الاّ اسماً لغير شيء ، ليس له في الدنيا وجود ، وانما فيهـا تقارب أشباح :

أعانقهـا والنفس بعـد مشوقة	اليهـا وهل بعـد العناق تدان ؟
وألثم فاها كي تزول صبـابتي	فيشتـد ما ألقى مـن الهيمـان
كـأن فؤادي ليس يشفي غليله	سوى أن يرى الروحين تلتقيـان

ولكن أنى تلتقي الأرواح ؟ وأين هذا الحب الجارف‌القوي الخالص الذي يأكل الحبيبين كما تأكل النار المعدن ، ثم تخرجهما جوهراً واحداً مصفى نقياً ما فيه (أنا) ولا (أنت) ولكن فيه (نحن) ؟..

فنفضت يديَّ من الحب ، ويئست من أن أرى عند الناس الاجتماع المطلق ، فعدت بطوعي أنشد الوحدة المطلقة .

* * *

صرت أكره أن ألتقي بالناس ، وأنفر من المجتمعات ، لأني لم أجد في كل ذلك الاّ اجتماعاً مزيفاً : يتعانق الحبيبان ، ولو كشف لك عن نفسيهما لرأيت بينهما مثل ما بين الأزل والأبد ، ويتناجى الصديقان ،

ويتبادلان عبارات الود والاخاء ، ولو ظهر لك باطنهما لرأيت كلا منهما يلعن الآخر ، وترى الجمعية الوطنية ، أو الحزب الشعبي ، فلا تسمع الا خطباً في التضحية والاخلاص ، ولا ترى الا اجتماعاً واتفاقاً بين الأعضاء ولو دخلت في قلوبهم لما وجدت الا الاخلاص للذات ، وحب النفس ، وتضحية كل شيء في سبيل لذة شخصية أو منفعة !

وجدتني غريباً بين الناس فتركت الناس وانصرفت الى نفسي أكشف عالمها ، وأجوب فيافيها وأقطع بحارها ، وأدرس نواميسها وجعلت من أفكاري وعواطفي أصدقاء وأعداء ، وعشت بحب الأصدقاء وحرب الأعداء ...

* * *

انَّ مَن حاول معرفة نفسه عرضت له عقبات كأداء ، ومشقات جسام ، فان هو صبر عليها ، بلغ الغاية ، وما الغاية التي تطمئن معها النفس الى الوحدة ، وتأنس بالحياة ، وتدرك اللذة الكبرى ، ما الغاية الا معرفة الله .

وسيظل الناس تحت أثقال العزلة المخيفة حتى يتصلوا بالله ويفكروا دائماً في أنه معهم ، وأنه يراهم ويسمعهم ، هنالك تصير الآلام في الله لذة ، والجوع في الله شبعاً ، والمرض صحة ، والموت هو الحياة السرمدية الخالدة . هنالك لا يبالي الانسان ألا يكون معه أحد ، لأنه يكون مع الله .



ذكريات

نشرت سنة ١٩٣٧

هما موقفان لا أزال أذكرهما ، أو تغمض عيني كف الغاسل :
أما الأول فعلى ضفاف بردى ، في الثامن والعشرين من ايلول ١٩٣٦ .
وأما الثاني فعلى شاطىء دجلة في الخامس من أيار ١٩٣٧

* * *

كان بردى يخطو على مهل ، متهللاً منطلق الوجه ، يرد على الشمس الوليدة أول تحياتها ، وهي تغمره برشاش من عطر أشعتها الحمراء ... وكنت في السيارة الفخمة ، أنظر الى جموع المودعين من الصحب والرفاق ، الذين خرجوا من بيوتهم في هذا الصباح ، ليودعوني قبل نزوحي الى العراق فأقلب النظر في وجوههم ، شاكراً لهم فضلهم ، حزيناً لفراقهم ، ثم أتأمل بردى صديق الصبا وسمير الوحدة ونجي النفس ، فأبصر في خلاله ظلال الحور والصفصاف تميس دلالاً وتيهاً ، وأرى ظلال المآذن البعيدة السامقة تضطرب في الماء فأبصر فيهـا ذكرياتي حيـة تطالعني وتحدثني ، وتعيد على مسمعي قصة حياتي ، وتتلو عليّ تاريخي فأحس بلوعة الفراق ، وأشعر في تلك السـاعـة بأني أحب دمشق ... دمشق مثوى ذكرياتي ، ودنياي من الدنيا ، وغاية أملي في حياتي... ثم يطوي المرج هذه الصور كلها ، ولا يدع حيال عيني الا صور اخوتي ، فأتأملها بعين دامعة وقلب واجف خائف من الفراق ، ثم تجتمع كلها في وجه واحد ، هو أحبُّ الوجوه اليّ وأدناهـا الى قلبي ... وألمح في المـاء مشهداً

طال عليه العهد ونأى به الزمان . فأراه ينفض عنه غبار السنين العشر ، ويعود حياً جديداً ...

... رأيتني في محطة الحجاز ، آية الفن الحديث في دمشق ، والمحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه ، فمن مسافر عجل ، ومن مودع باك ، ومن بائع يصيح ... ومن آت وذاهب ، وطالع ونازل ... وكنت منزوياً في ركن من أركان القطار المسافر الى حيفا، والى جانبي أختي الصغيرة .. أنظر الى بعيد ، فأرى هناك ، في أخريات الناس امرأة تمسك بيديها طفلين ، متلفعة بملاءة لا تبدي منها شيئا ، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع عالقتين بمكاننا من القطار ، وخلال تلك الضلوع قلبا يخفق شوقا ، ويسيل دمعا ، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة نارا تضطرم في الجوف ، وزلزالا شديدا يدك نفسها دكا ...

وصفر القطار الذي يحملنا الى مصر ، فازداد القلب خفقانا واضطرابا، ثم قذف الى الجو بدخانه كأنما هو حي قد أخذ بموقف الوداع ، فزفر زفرة الحزن الدفين ، والألم الحبيس ثم هدر وسار وراحت المحطة تبتعد عنا وعيني عالقة بيد تلك المرأة التي تلوح لي بمنديل أبيض ، حتى غاب عني كل شيء ...

هنالك تلفت فرأيتني وحيداً ، ورأيت القطار يجد لينأى بي عن أهلي وبلدي ، فهممت بالقاء نفسي من نافذة القطار — لولا أن تعلقت بي أختي التي كانت على صغرها أكبر مني ، وعلى أنوثتها أقوى وأجلد...

أردت أن ألقي بنفسي لأني لم أكن أتخيل أن في استطاعتي الحياة يوماً واحداً بعيداً عن أمي التي كان تعلقها بنا ، وتعلقنا بها لا يشبه ما نرى من الأمهات والأبناء ، وكان ... آه ماذا تفيد (كان) ، وقد كان ما كان ؟...

تلك هي أمي ، التي مرّ على (غيابها) عني سنوات طوال ، ولكني

أحسُّ كأن الحادثة كانت أمس ، فتحز في نفسي ولا أطيق أن أكتب عنها حرفاً .

تلك هي أمي التي كانت لي أماً وأباً ، بعد أبي رحمهما الله ، وكانت حبيبة ، وكانت أستاذة ، وكانت دنياي ، وكانت آخرتي...وكانت أمي .

تلك هي أمي التي فوجئت كما تفاجأ الشجرة الغضة الفينانة في ربيعها الزاهر ، حين تعصف بها العاصفة فتدعها جذعا مقطوعا جافا ...

تلك هي أمي التي ما نسيتها ــ علم الله ــ أبداً ، ولم أذكرها أبداً ، انها تملأ نفسي ولكني لا أجري ذكرها على لساني . أراها في أحلامي حية فأشعر كأني عدت حيا ، وأهم بعناقها وأفتح عيني فأجد على وجهي حرّ لطمة الدهر الساخر ، ولكني أحمل اللطمة ، وأغضي على القذى ، ولا أخبر اخوتي بشيء ، لئلا أذكرهم ما هم ناسون ، أو أجدد لهم بالمصيبة عهداً ، فأهمل ذكرى أمي ويهملونه ... ولعلّ كل واحد منهم يحسُّ مثلما أحس ويكتم مثلما أكتم !

ذكرت ذلك ساعة الوداع ، لأني كنت متألما ، وليس لآلامي كلها الاّ معنى واحد هو أني أذكر وفاة أمي ، ذلك هو الألم عندي لا ألم سواه .

فلما صحوت نظرت في وجوه المودعين فلمحت وجه أمي مرة ثانية ، ولكني لمحته حياً ماثلا في وجوه اخوتي الأحباء . فودّعته بدمعة من العين ، وابتسامة على الفم ، واشارة بالكف ، ثم سارت بنا السيارة تطوي الأرض وتستقبل الصحراء ..

ذلك هو الموقف الأول !

* * *

أما الموقف الثاني فقد كان على شطّ دجلة في الهزيع الأول من الليل ، وكانت محطة بغداد الغربية زاخرة بعشرات من خير شباب بغداد

وزهرة فتيانها تركوا دروسهم وامتحانهم القريب وخرجوا من دورهم في هذا الليل ليودعوا صديقاً أحبهم وأحبوه ، وأخلصوا له الحب وأخلص لهم ... ذلك الصديق هو أنا ، وأولئك هم تلاميذي بل اخوتي ، جاءوا يودعونني لا قياماً بواجب رسمي ، ولا رغبة في ثواب ولا رهبة من عقاب، ولكن وفاء وحباً . والحب أجمل ما في الوجود ، والوفاء أقدس ما فيه بعد الايمان ... وكنت مستنداً الى نافذة القطار الذي سيحملني الى البصرة ، أصغي الى خطبهم وأشعارهم التي صبوا فيها عواطفهم ، وكتبوها بمداد قلوبهم ، أتأمل فلا أرى (والله) الا بردى ودمشق واخوتي .

وغبت عني في شبه ذهول ، فما انتبهت الا وأنا وحيد في القطار . أضم الى قلبي هذه الهدية التي قدمها الي تلاميذي . وأطللت من النافذة فلم أجد الا الظلام ...

* * *

لما دخلت عليهم الصف أول مرة كنت مشتاقاً الى بلدي كارهاً لغربتي متألماً ملتاعاً ، فلم أر في الصف الا عيوناً جامدة وقلوباً معرضة وأفواهاً مغلقة ، وكانوا عندي من العدم لأنه لم يكن لهم في ذاكرتي وجود . ولكن لم ألبث أن وضعت بين أيديهم قلبي فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه ، (أحبهم في مجموعهم لا أحب واحداً منهم ...) وأخلص لهم ، وأحرص على رضاهم وأحس الفرح يغمر نفسي اذا قدمت لواحد منهم خيراً ، أو درأت عنه شراً ، ويتصدع فؤادي ان وجدت أحدهم متألماً ، فلا أني[1] أخفف ألمه ، وأدفع عنه حزنه ، وكنت أعيش بهم ولهم ومعهم .

ووضعت بين أيديهم رأسي أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال . أستغل أضعف المناسبات لأطلعهم على جمال الأدب العربي ، وعظمة التراث الاسلامي ، وقيمة التفكير الحديث ، واتجاه

---

(١) من ونى يني .

النقد الجديد ، وأعلمهم الاستقلال الفكري ، وأحفزهم الى المناقشة ، ولا أستعمل في اقناعهم سلطة المدرس لأن ذلك ضعف ، ولكن أستعمل قوة الحق ولسن الجدل النظار . وأعترف لهم بالحق اذا ظهر على لسانهم ، وأقر بأني لا أدري ما لا أكون أدريه ... وأبعث فيهم ملكاتهم المهملة، وأشجعهم على الانتاج والنشر ...

وكان زملاؤنا من المدرسين يحذرونني عواقب هذه الطريقة لأن الطلاب (في رأيهم) لا يقدرون قيمة الحرية واللطف ، ويحسبونها عجزاً وضعفاً ويتخذونها سبيلا الى الشغب ولكني وجدتهم يقدرون قيمتها ، ويحترمون المدرس العادل العالم اللطيف ، أكثر مما يحترمون المدرس الجبار العنيف ، ووجدت هذه الطريقة قد أجدت جَدىً كبيراً ، فأقبل الطلاب على الأدب وقد كانوا عنه منصرفين ، وصار أحب الدروس اليهم وقد كانوا يكرهونه ، ونشأ فيهم كتاب وشعراء ونقاد يؤمل منهم بعث الحياة الادبية في العراق في بضع سنين ...

وضعت بين أيديهم رأسي وقلبي ، فلما أثمر الثمرة ولما تحركت هذه العيون بالاخلاص ، وأقبلت هذه القلوب بالحب ، وتفتحت هذه الأفواه عن أجمل أحاديث العلم والأدب والود .. ولما محيت تلك الفروق كلها ، وزال التكلف بين المدرس والطلاب ، ولم يبق الا اخوة يعيش الواحد منهم للجميع ، ويعمل الجميع للواحد ... جاء الأمر بنقلي الى البصرة..

* * *

وها أنذا الآن في البصرة في هذه الغرفة الصغيرة أذكر مجالسنا على شاطيء دجلة ، فيخفق قلبي خفقاناً شديداً ، وأتمثل أمامي صورة أخي الشاعر وهو ينشدنا أعذب أشعاره التي تشبه في رقتها نسيم الماء الرخي اللين ، وفي انسيابها دجلة التي خلع عليها الغروب ثوباً منسوجاً من خيوط النور فيه مئة لون ... واذكر (ليلة المطر) ... ليلة جلسنا في هذه

الحديقة التي تنبسط وراء المطار المدني في بغداد ، وأمامنا الفضاء الذي يمتد الى ... دمشق ، لا يحجبه شيء ، وكان مصباح المطار الأحمر القوي يريق ضوءه على الحديقة ومن فيها فيجعلها كأنها بقعة من عالم مسحور ، لا يشبهه شيء ، ولكنه جميل أخّاذ يملأ النفس نشوة وسكرا ، وكانت الطبيعة تبدو أمامنا كأنها لوحة خطتها ريشة أبرع المصورين ، فهذه الحمرة العجيبة ، وزرقة السماء الصافية ، وسواد الليل عند الأفق ، والنساء بثيابهن الملونة المبرقشة ، والنادلون بقمصهم البيض ، يمشون على الحشائش . لا يسمع لهم صوت ، يتكلمون همساً ...

وكان النسيم رخياً ناعشاً ، تميل منه الأزهار فتفوح من أثوابها رائحة العطر ، فتطفو على هذا النسيم ، والأضواء البعيدة ، كأنها تائهة في الظلام فهي ترتجف من الخوف ، وقد جمعت الطبيعة في تلك الليلة سحرها كله : صفاء السماء ، وسكون الليل ، والربيع الذي زخرف هذه الحديقة ورصعها بالورد والزهر ، ووضع فيها خلاصة فنه وتاج عبقريته .

وكان كل شيء عاشقاً قد سكر بخمرة الجمال ، وراح يحلم . فالصحراء الواسعة قد سكرت وتغلغلت في الظلام منفردة تحلم بالظل والماء ، والسهول المجاورة راحت تحلم بربيع دائم ، وعاد الأمس حياً حالماً بالخلود ، وأطلّ الغد نشوان يحلم بليلة مثل هذه الليلة ...

وكنت أحلم ... فما راعني وهبط بي من سماء أحلامي الا ضحكة عذبة رقيقة كأنها رنين الذهب ، لم أسمعها بأذني ولكني رأيتها بعيني تتدحرج طافية على وجه النسيم الأحمر حتى غاصت في الظلام الساكن ، وعاد الصمت ... وكانت ضحكة عاشقين قد نسيا الوجود وما فيه ، وغابا في حلم حي يقظان !

فهاج ذلك صديقي الشاعر فانحنى عليّ ، وألقى في أذني احدى أغانيه (الجديدة) .

« زرعت روض شفتي بالقبل فأزهر وأينع ، ولكن لم يقطفه أحد فذوى وجف » .

« وأعددت سرير الحب في قلبي وضمخته بالعطر ، ولكن لم يهجع عليه أحد فعلاه الغبار » .

« كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافاً ، ثم نثروا في الحياة ، فمن وجد نصفه صار انسانا ، ومن وجد غيره كان مسخاً ، ومن لم يجد بقي نصف انسان » .

« فأين أنت يا نصفي الآخر ؟ » .

« لقد ضاع النصف الذي فيه قلبي ، فمن هي التي يخفق قلبي في صدرها » .

« من هي التي تنظر بعيني ، وتسمع بأذني ؟ »

« من هي التي لم أرها أبداً ، ولا أرى غيرها أبدا ؟ » .

* * *

شعرت بأن أغاني الشاعر قد سمت بي الى عالم كله خير وجمال ، وشعرت بنشوة عجيبة ، وعلمت أن ما أنا فيه غاية السعادة ونهاية السمو ، واذا أنا أسمع نغمة موسيقية فاتنة عادت تسمو بي ، حتى رأيت ما كنت فيه أرضاً وهذي سماء ، فذكرت كلمة فاجنر : « تبدأ الموسيقى حيث ينتهي الشعر » [1] .

واختلط علينا الجمال ، فصار طاقة واحدة ، قد اجتمع فيها همس الحب وألحان الموسيقى بعبق الزهر ، وأريج العطر ، بخيوط الأشعة ،

---

(1) وسنرى قراء الرسالة ان شاء الله في مقال آخر ان الايمان يبدأ حيث تنتهي الموسيقى .

وروعة الألوان ، فصرنا نسمع مايرى ، ونشم مايسمع ، وصارت الحواس كلها حاسة واحدة ... هي حاسة الجمال !

* * *

وها أنذا أذكر مئات من الذكريات ، وأتمثل طلابي كلهم أمامي حتى اني لأمدُّ يدي أصافحهم فلاتقبض يدي الا الهواء فأرتدُّ مذعوراً وأجلس يائساً ... لقد غدا هؤلاء الفتيان جزءاً مني لأنهم عاشوا في نفسي ذكريات كما عشت في نفوسهم ذكرى ، فنحن مجتمعون ولو نأت بنا الديار ...

وها أنذا آلف هذا البلد الذي كرهته واجتويته ، وأصبر على شظف العيش فيه من أجل هؤلاء الطلاب الذين أحبوني هم أيضاً ، و أحببتهم، وتعلقوا بي ، فلا يأتون المدرسة الا لسماع درسي ، فان لم يكن لي درس أقاموا في بيوتهم يجدُّون ويستعدون للامتحان ، ولا يدخرون وسعاً في اسداء يد اليَّ أو دفع الألم عني ... ويحرصون على راحتي أكثر من حرصهم على نجاحهم في امتحانهم ، ويفضلون كلمة مني على كلمة يقولها القانون ...

أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم في قلبي لأنتزعه منه غداً وأدعه جريحاً ... أفهذه حياة المعلم ؟ ماذا يبقى من قلب في كل مدرسة منه قطعة ؟

هنيئاً لمعلم ليس له قلب ...

ويا ويل المعلم اذا كان انساناً ...

* * *

مماحدث لي

اذيعت سنة ١٩٤٥

أنا رجل يتصورني القراء من بعيد (شيئا) أكبر من حقيقتي ، فلماذا أفضح نفسي عندهم ؟ وعم أتحدث اليهم ؟ والأحاديث كثيرة ، وماحدث لي يملأ كتبا ؟

ثم قلت : لماذا لا أتحدث عن هذا . عن حقيقتي في نفسي وصورتي عند القراء . ولي في هذا الباب طرائف عجيبة . وأنا أكتب من أكثر من عشرين سنة في جرائد الشام ومجلات مصر ولبنان كتابة شيخ مكتهل ، فكان القراء يحسبونني شيخاً أشيب الشعر محني الظهر يدبُّ دبيباً . وعلى وجهه من كتابة الأيام والتجارب سطورا من (الأخاديد) فـوق سطور ، وما كنت أحب أن أذيع هذه الطرائف لأنها لا تنفع السامعين وان كانت قد تلذ لهم . ولكن المحطة أرادت أن أحدث المستمعين عـن بعض ما حدث لي مضحكا كان أم غـير مضحك . ولا بأس فالضحك ينفع الجسم ويدفع الدم . ويزيد الشهية ، أما المصيبة أن تجيء النكتة باردة لا تضحك .. أو أن أكون ثقيلا يتخفف ، والثقيل اذا تخفف صار طاعونا ... والعياذ بالله .

سيداتي وسادتي : مما وقع لي -

أن جاءني مرة وكنت في عنفوان الشباب أكتب في أوائل كتابتي في الرسالة (عام ١٩٣٣) ثلاثة من الغرباء عن البلد ، لم يعجبني شكلهم ، ولم يطربني قولهم ، فوقفت على الباب أنظر اليهم فأرى الشكل يدل على

أنهم غلاظ ، وينظرون الي ّ فيرون في ّ (ولدا) ، فقالوا هذه دار فضيلة الشيخ الطنطاوي ؟ قلت : كارها : نعم ... فقالوا : الوالد هنا ؟ قلت : لا ... قالوا : فأين نلقاه ؟ قلت : في مقبرة الدحداح على الطريق المحاذي للنهر من جهة الجنوب . قالوا : يزور أمواته ؟ قلت : لا . قالوا : اذن ؟ قلت : هو الذي يزار ... فصرخ أحدهم في وجهي صرخة أرعبتني وقال : مات ؟ كيف مات ؟ قلت : جاء أجله فمات ... قالوا : عظم الله أجركم انا لله وانا اليه راجعون . يا خسارة الأدب . قلت ... ان والدي كان من أجل أهل العلم ولكن لم يكن أديبا ... قالوا : مسكين أنت لا تعرف أباك .

وانصرفوا وأغلقت الباب وطفقت أضحك وحدي مثل المجانين ، وحسبت المسألة قد انتهت فما راعني العشية الا ّ الناس يتوافدون علي ّ فأستقبلهم ، فيجلسون صامتين ان كانوا لا يعرفون شخصي ، ومن عرفني ضحك وقال : ما هذه النكتة السخيفة ؟ قلت : أي ّ نكتة ؟ فأخرج أحدهم الجريدة وقال : هذه ؟ هل تتجاهل ؟ فأخذتها واذا فيها نعي الكاتب ال... كذا وكذا .. علي الطنطاوي — هذه واحدة !

ومما حدث لي أنني :

لما كنت أعمل في العراق سنة ١٩٣٦ نقلت مرة من بغداد الى البصرة أثر خصومة بيني وبين مفتش دخل على الصف فسمع الدرس . فلما خرجنا (نافق) لي فقال انه معجب بكتابتي وفضلي . (ونافقت) له فقلت اني مكبر فضله وأدبه . وأنا لم أسمع اسمه من قبل . ثم شرع ينتقد درسي فقلت : و َمن أنت يا هذا ؟ وقال لي وقلت له ...

وكان مشهداً طريفاً أمام التلاميذ..رأوا فيه مثلا أعلى من (تفاهم) أخوين ، وصورة من التهذيب والاخلاق . ثم كتبت عنه مقالة كسرت بها ظهره ، فاستقال و (طار) الى بلده ، ونقلت أنا عقوبة الي البصرة .

وصلت البصرة فدخلت المدرسة ، فسألت عن صف «البكالوريا» بعد أن نظرت في لوحة البرنامج ورأيت أن الساعة لدرس الأدب . وتوجهت الى الصف من غير أن أكلم أحداً أو أعرفه بنفسي .

فلما دنوت من باب الصف وجدت المدرس ، وهو كهل بغدادي على أبواب التقاعد ، يخطب التلاميذ يودعهم وسمعته يوصيهم (كرما منه) بخلفه الاستاذ الطنطاوي ، ويقول هذا وهـذا ويمدحني ... فقلت : انها مناسبة طيبة لأمدحه أنا أيضاً وأثني عليه ونسيت أني حاسر الرأس وأني من الحر أحمل معطفي على ساعدي وأمشي بالقميص وبالاكمام القصار ، فقرعت الباب قرعا خفيفا ، وجئت أدخل . فالتفت الي وصاح بي ايه زمال وين فايت ؟ (والزمال الحمار في لغة البغداديين) فنظرت لنفسي هل اذني طويلتان ؟ هل لي ذيل ؟... فقال ــ شنو ؟ ما تفتهم (تفهم) أما زمال صحيح . وانطلق بـ (منولوج) طويل فيه من ألوان الشتائم ما لا أعرفه وأنا أسمع متبسما .

ثم قال تعال لما نشوف تلاميذ آخر زمان . وقف احك شو تعرف عن البحتري . حتى تعرف انك زمال ولا" لأ ؟

فوقفت وتكلمت كلاما هادئا متسلسلا ، بلهجة حلوة ، ولغة فصيحة . وبحثت وحللت وسردت الشواهد وشرحتها ، وقابلت بينه وبين أبي تمام وبالاختصار ، ألقيت درسا يلقيه مثلي .. والطلاب ينظرون مشدوهين ، ممتدة أعناقهم ، محبوسة أنفاسهم ، والمدرس المسكين قد نزل عن كرسيه وانتصب أمامي ، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما من الدهشة ، ولا يملك أن ينطق ولا أنظر أنا اليه كأني لا أراه حتى قرع الجرس ...

قال : مَن أنت ؟ ما اسمك ؟ قلت : علي الطنطاوي ؟

وأدع للسامعين الكرام أن يتصوروا موقفه !

والبصرة (بندقية العرب) فيها مع كل شارع قناة . فأنت ان شئت

انتقلت بحرا . وان شئت سرت برا ، وفيها شط العرب ، لا يعدل جماله وأنت تخطر فيه العشية بهذه الزوارق الحلوة مكان في الدنيا . والبصرة كانت دار الأدب ، ومثابة الشعر ومنبع العربية ، وتاريخها تاريخ البيان العربي ، ولكن أيامي في البصرة ، كانت شقاء دائماً ، وكانت ازعاجا مستمرا . ولي فيها أحاديث مضحكات ، وأحاديث مبكيات ، ولولا أن أجاوز هذه الدقائق التي منحتني اياها المحطة لعرضت لأحاديثها .

ولكن لا ولك أيتها الاذاعة الشكر على أن حددت الوقت ، فتركتني أتعلل بذكريات امسي وحدي ، وأن أعيش في ماضي على هواي ، لا يراقبني المستمعون ولا يشاركني لذة الادكار احد .



مقدّمة ديوان

هذه مقدمة ديوان شاعر (كان) لي صديقاً و (كان) اخاً ـ انشرها كما كتبت سنة١٩٤٨ لم ابدل فيها حرفاً وان كانت الدنيا (تبدل) الاصدقاء ، وتودي بالصداقات!

لقد وعدت الاستاذ أنور العطار بهذه المقدمة منذ خمس وعشرين سنة من يوم أسمعني أول مقطوعة له . قلت له : ستصير يا أنور شاعراً كبيراً . وسأصير أنا كاتباً وأكتب مقدمة ديوانك .

ولقد صار أنور شاعراً كبيراً فهل صرت أنا كاتباً ؟ انني كتبت الى اليوم أكثر من خمسة آلاف صفحة ، أنشأتها انشاء ولم أجمعها جمعاً ، ونقلتها عن قلبي لم أنقلها عن الكتب ، ولكني لم أصر كاتباً ، لأنني أعجز الليلة عن انشاء أحب الفصول الي ، وأوجبها علي : هذه المقدمة التي وعدت بها أنور من خمس وعشرين سنة !

لقد قعدت لأكتبها ، فأحسست أنها قد عادت لي أيامي المواضي التي افتقدتها وأيقنت أنها لن تعود ، ورفع لي الستار عن عالم كله حب وطهر وجمال . عالم عشت فيه أنا وأنور أمداً ، ثم أضعناه وضللنا طريقه . عالم كان حقيقة فصار (مع الأسف) ذكرى ، وكان واقعاً فغدا خيالا ، وكنا فيه ، فصرنا غرباء عنه ، لا نراه الا بقلوبنا من خلال ضباب الماضي.

فتحت علي أبواب الذكريات ، وكر علي هذا الماضي ، كأنما هو (فلم) حافل بكل جميل ونبيل ، (فلم) طويل عرض في لحظات ، وقد تصرمت في تأليفه واخراجه ثلاثون سنة ، فلم كنا نحن أبطاله وكنا نحن ممثليه ، فصرنا نرى فصوله تعرض علينا من بعيد :

رأيت الفصل الأول من هذا الفلم ، وكان في المدرسة الثانوية الوحدة في دمشق (مكتب عنبر) في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، عندما أبصرت أنور العطار أول مرة . أبصرت تلميذاً رقيق العود ، دقيق الملامح ، أنيق المظهر ، من غير أن يبدو عليه أثر الغنى ، شارد النظرات ، يمر في ظلال الجدران ، خفيف الوطء ، حالم الخطى ، كأنه طيف يمرُّ على خيال نائم ، يعتزل التلاميذ لا يكاد يشب وثبهم ، ولا يلعب لعبهم ، فسألت عنه من يعرفه ، فقال : هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار . وما كنت أؤمن يومئذ بغير شعراء الجاهلية والشعراء الاسلاميين ، ولا أرضى لنفسي أن أقرأ شعر المتنبي ولا يرضى ذلك لي مشايخي ، لئلا تفسد (قالوا) ملكتي ، ولم أسمع بعد باسم شوقي ولا باسم المنفلوطي ، فما أبهت لهذا الشاعر الذي اسمه أنور العطار ، ولا طلبت صحبته ، ولا ظننت أنه سيكون بيني وبينه اتصال ، حتى كانت تلك المصادفة المسعدة التي كان لها في حياتي وفي حياته أبلغ الأثر :

كانت هذه المصادفة على باب (المدرسة البادرائية) ، في ليلة من ليالي رمضان ، أيام كان رمضان يزور دمشق حقاً ، وكانت تدري دمشق بزيارته وتحتفل بلقياه ، وكنت خارجاً منها فواجهت أنور داخلا اليها ، فوقف يحييني ووقفت أحييه ، وكلمني وكلمته ، واتصل الحديث ونحن قيام تحت مصباح الشارع ، حتى جاء ذكر شوقي ، فأنشدني قصيدة له ، قرأها بصوت عذب حالم حنون ، فأحسست أنه كان يمس بكل كلمة من القصيدة حبة القلب مني ، فأحببته . وأنت تلقى المرء أول مرة فتحس بأنك تحبه أو أنك تكرهه ، لا تدري لحبك ولا لكرهك سبباً . سر ركّبه الله في نفس الانسان .

وفهمت منه أنه يسكن في (السمّانة) وكنت أقيم في (الديمجية) فاصطحبنا ، وذكرت له موت والدي في تلك الأيام ، فطفق يحدثني عن

موت والده وهو صغير ، واجتزنا سوق العمارة ، والعمارة في دمشق كحي الحسين والأزهر في مصر ، ان ضاع منك رمضان ببهائه وجماله وجدته في الحسين أو في العمارة ، وان خفيت عنك معالم حسنه في كل مكان وجدتها في العمارة أو في الحسين ، ولكنني ما أدركت تلك الليلة شيئاً من هذا البهاء ، لقد كان ما أسمع من أنور أبهى عندي مما أرى ، وجعلنا طريقنا على (الدحداح) ، وهنالك ، على قبر أبيه وعلى قبر أبي ولدت هذه الصداقة التي أثمرت شعراً ونثراً وحباً واخلاصاً ، وكانت من أسعد الصداقات . وهنالك في مدينة الأموات ، عاشت هذه المودة التي لا يستطيع أن يعدو عليها الموت ، لأن الأدب أكسبها الخلود .

وكرّت فصول (الفلم) تتتالى ، فرأيتني غدوت صديقه وغدا صديقي ، يبثني شكاته وأبثه شكاتي ، ويجد في حياتي مشابه من حياته وأجد في حياته مشابه من حياتي ، قد ألف بيننا الأدب وألّف بيننا اليتم ، واننا كنا مستورين ، على حالة هي فوق الفقر ودون الغنى ... حتى كأنني هو وكأنه أنا .

وصار يسمعني شعره ، فأجد بواكير شاعر متمكن ، لا محاولات طالب مبتدىء ، وأجد في هذه (البواكير) قوة في التعبير ، وجدّة في التفكير ، وأبياتاً سائرة ، وصوراً رائعة ، فهو يقول في الدموع :

عجبي من لغة غامضة   تطرب الناس على شتى لغاها

وهو بيت نبيل في مبناه وفي معناه .

ويقول في وصف العمر (عمر البائس) :

والعمر يحكي مستغيثاً علا   أنينه ثم تولّى صداه

وطفق أنور يرسل قطع الشعر ، شعر القلب ، تترا . يستقيه من معين صاف لا ينضب ، فتتناقله الألسنة ، وتمشي به الصحف ، وتستقبل فيه العربية شاعراً جديداً ملهماً ، ويفتح له أستاذنا محمد كرد علي

أبواب المجمع ، فيقيم له ولاخوانه الثلاثة[1] حفلة تكريمية ينشد فيها أنور قصيدة من الشعر الجيد ، عنوانها (الشاعر) ، يحسن اختيار موضوعها وألفاظها ومعانيها ، وتشق له هذه القصيدة الطريق الى مجلة (الزهراء) التي كان يصدرها في مصر خالي محب الدين الخطيب ، والتي كانت أرقى مجلة أدبية في تلك الأيام ، وكنت أودُّ أن ينشرها الشاعر في هذا الديوان (الذي لم يضمَّ الا الأقل من شعره) ، ليعرف منها القراء كيف كان أنور ينظم الشعر قبل عشرين سنة ، وكنت أودُّ اذ لم تكن في الديوان أن أرويها كلها ، ولكنها طويلة تملأ صفحات من هذه المقدمة .

وشعر أنور في تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً ، ودموع صاغها البيان شعراً ، ومقطعات حلوة ، ما أدري ما ذا زهد الشاعر فيها فلم يثبت منها في هذا الديوان الا مقطوعة (الحمامة) .

* * *

ورأيت فصول (الفلم) تتتالى ... فرأيت فيها كل دقيق وجليل من حياة اخي في الصغر وفي الكبر ، ورفيقي في السفر وفي الحضر ، وأنيسي في المسرة وفي الكدر : أنور .

رأيت أيامنا في المدرسة ، ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال ، اذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو اليه وتتمناه لا نصدق متى ينقضي النهار ، وننجو من هذيان جماعة الرياضيات ، وطلاسم أصحاب الكيمياء ، حتى نفر الى كتب الأدب ، نقرأ كل بارع من القول ، وتتدارس كل رائع من البيان .

ورأيت أنور وقد بذ الأدباء جميعاً في (العلم ...) بالرياضيات ، حتى لقد عرف قطر الدائرة ، وأضلاع المثلث ، ولم يبق عليه ليبلغ نهاية العلم الا أن يعرف القاسم المشترك الأعظم الذي لم يسمع به امرؤ القيس ... رأيته دائباً يكد ذهنه ، ويمسح عرقه ، يحاول أن يفهم سر

(١) جميل سلطان وزكي المحاسني وأبو سلمى عبد الكريم الكرمي .

المعضلة الكبرى التي لا يفهم لها سر ، ويحل المشكلة التي لا يعرف لها حل : الجذر التكعيبي . وأشهد أني جزت الأربعين من عمري ، ورأيت أياماً سوداً ولقيت شدائد ثقالا ، وسلكت البوادي المقفرة ، وركبت البحار الهائجة ، وعلوت متون السحب ، فما رأيت في البر ، ولا في البحر ، ولا في الجو،شيئاً أشد ولا أصعب ، من هذا الجذر التكعيبي..

ورأيتنا وقد فرقت بيننا الأيام أمداً ، فاشتغلت أنا بالصحافة ، وغامرت في السياسة ، وآثر أنور التعليم ، فكان مدير المدرسة الأولية في (منين) ، في هذه القرية النائمة في حجر (القلمون) الأدنى ، ترى مواكب الأحلام بأجمل (عين) وأشدها سحراً ، وأكثرهافتوناً : عين منين مَن لم ير عين منين ، ما عرف سحر العيون ، ولا رأى جمال الينابيع ولا رشف خمر الجمال على مائدة الطبيعة ... فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعم ، أسكر فيها سكرين : سكر الجمال وسكر البيان ، وأخضع فيها لسحرين : سحر الطبيعة وسحر الشعر ، وأجمع فيها الماضيَ البهي ذكرى حلوة ، والآتي الشهي أملا مرتجى ، في حاضر ضاع في نشوة اللذة حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه وندركه ، نقضي الأصباح نستمع الى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور ، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من قلوبنا الحياة فصارت تحنو علينا ، وتولينا الحب ، وأرقناعليها البيان فأمست تحدثنا ، تتلو علينا أحاديث الغابرين ، وتقص قصص الأسلاف، من غسان أصحاب المجد المؤثل ، فنحس كأن قد عاد الماضي ، ورجعت (القصور البلق) عامرة وبعث المجد وعاش الحب ، حتى لكأننا نسمع همس العشاق ، وآهات نشواتهم ، ووسوسة قبلاتهم ، ونرى خيالات العناق من وراء الأستار .

أيام سعدنا بها ، وماسعدنا بالصخر ولا بالماء ، ولكن بأحلام الشباب. رحمة الله على شبابنا ، وعلى تلك الأيام ...

ورأيتنا وقد صرت أنا معلماً في الجبل من دمشق (في المهاجرين) ، وصار هو معلماً في السفح (في الصالحية) ، فكنا نرتقب المساء ارتقاباً، فاذا حل انحدرت أنا من هنا ، وانحدر هو من هناك حتى نلتقي عند (العفيف)، نفرح بهذا اللقاء فرح حبيبين التقيا بعد طول الفراق .

ورأيت أيام العراق ، زهرة أيامنا أنا وأنور وزينتها ، أيام بغداد ، سلام المحبة والوفاء منا على بغداد ، وسلام على أهليها ، وسلام على الأثري والجوادي وروح الراوي وعلى اخواننا وعلى تلاميذنا[1] فيها .

ويا ما كان أحلى أيام بغداد ، ويا ما أبهى لياليها ، ويا ما أطيب ما حملنا منها من ذكريات . على دجلتها سلام بردى ، وعلى نخيلها سلام الحور وعلى أبوذيتها سلام العتابا ، وعلى أعظميتها وكرادتها ورستميتها سلام الربوة والمزة والشاذروان ...

لقد كنا فيها معاً أبداً ، يدرّس أنور في صف وأنا في صف ، وربما دخلت فدرّست مكانه وقعد فاستمع ، وربما دخل فدرّس مكاني وقعدت فاستمعت ، ونمشي على الجسر معاً ، وما في الارض مكان أحفل بذكريات المجد والشعر والغرام من جسر بغداد . وتتبع الشط ، ونرتاد الرياض ، نزور قصور الخلفاء ، ومواطن الشعراء ، وخلوات المحبين ، نؤم الديارات والأطلال والمقابر ، تتنسم عرف الأجداد ، ونستروح رائحة الماضي ، نستنطق دجلة ، ونستخبر الآثار ، ونسأل النخيل ، ونسمع من الأرض ومن الناس أخبار الماضي الفخم ، وأحاديث الجدود العبقريين ، وقصص المجد الذي لم تر عين الزمان ولم يحمل متن الأرض مجداً أجل منه ولا أعظم ، ولا أرسخ آساساً ولا أعلى ذرى . ولم يكن يرانا الناس الاّ معاً ، ولا يقولون الا أنور وعلي وعلي وأنور ، وربما خلطوا فقالوا علي العطار وأنور الطنطاوي ...

---

(١) ومنهم عبد السلام عارف والحاج سري الشهيد وأخوه العقيد مدحة والعقيد نعمان والدكتور مصطفى كامل عميد كلية الحقوق سابقاً ومنهم وزراء ومحامون ومنهم الصديق الوفي العقيد جهاد عبد الوهاب والأديب نجدة فتحي صفوة وآخرون لا يحصيهم العد .

لقد كانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور ، ففيها اختزن في نفسه أجمل الصور ، وفيها نظم أروع القصائد ، وفيها ابتدأ في حياة الشاعر عهد جديد هو عهد الشعر القومي : شعر الحماسة الوطنية ، فازدادت بذلك هذه القيثارة السحرية وتراً جديداً ، خرجت منه أطيب النغمات .

رأيت هذا كله فأحسست أن الدنيا تدور بي ، واختلطت عليّ الصور وتداخلت المشاهد ، فلم أعد أستطيع أن أتبين شيئاً ، ولم استطع أن أكتب شيئاً ...

* * *

ورأيت فصول (الفلم) تتتالى ، فاذا نحن في سنة ١٩٣٠ ، وقد بقيت بلا عمل (عقب عودتي من سفرتي الثانية الى مصر) ، فأخذني أنور الى ادارة فتى العرب ، فقدمني الى معروف الأرناؤوط لأعمل معه في الجريدة ، وقد عملت معه شهوراً ، وصارت الجريدة ملتقانا أنا وأنور ، وصارت مدرستنا الثانية نأخذ فيها من نفس معروف ، ومن أدب معروف .

وما رأينا في الأدباء ، مَن هو أحلى حديثاً ، وأظهر صفاء ، وأملأ بالأدب الحق من فرعه الى قدمه من معروف ، اذ كنت تشعر وأنت معه أنه يعلو بك عن المادة ، ويسمو عن المطامع ، ويوصلك بحديثه وابتسامته وطفولته ، الى عالم كله حب وعاطفة وتجرد ، وشيء آخر كنت أحسه ولا أملك التعبير عنه ، شيء مثل الذي تحسه وأنت تقرأ في رواية معروف (عمر ابن الخطاب) ، ومثل الذي تحسه وأنت تسمع حديث أنور ، عندما يكون أنور في سبحاته الشعرية ...

ورأيتنا ، ونحن في مطلع سنة ١٩٣٣ ، وقد لقيت أنور ، فقال لي : لك عندي مفاجأة تسرك ، قلت : وما هي ؟ قال : لا ، الا أن تتغذى معي في الدار ، فذهبت معه فاذا هي مفاجأة تسر حقاً : العدد الأول من مجلة الرسالة .

ومن ذلك اليوم دخل بيننا (نحن الاثنين) صديق ثالث ، أحببناه وأحبنا ، وهو الزيات ورسالته ، وصارت الرسالة مدار أحاديثنا ، وصارت مستقر أدبنا ، وصار الزيات أخاً لنا كبيراً ، وصديقاً عزيزاً ، وان كنت لم أره الا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ، ولم يره أنور الى الآن .

ورأيت أيام المعجزة التي ظهرت على يد الصديق منير العجلاني وكانت تظن من باب المستحيلات ، أيام المجمع الأدبي ، حين ألّف بين رجال ما كنا نتخيل أنها تؤلف بينهم الأيام ، لاختلاف مذاهبهم في الأدب وتباعد مسالكهم في التفكير ، وتباين طرقهم في الحياة ، وكانت أيام ألفة ونشاط وأمل ، فأعقبها أيام افتراق وكسل ويأس ... فياليت منيراً الوزير يكمل ما بدأه منير المحامي .

* * *

رأيت هذا كله ، فحرت ماذا أصف وعمّ أتكلم . وكيف أستطيع أن أجمع في كلمات دنيا من العواطف ، وعالماً من الذكريات وآلافاً مؤلفة من المشاعر كانت أثبت من الزمان لأنها بقيت وقد ذهب الزمان ، وكانت أجمل من العمر لأنها هي جمال العمر ؟

رأيت (هذا) كله وما (هذا) الا تلخيص لحياة أنور ، الشاعر الذي عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الخلص الملهمون ، شعراء القلب والروح واللسان ، لا شعراء الألفاظ وحدها والبيان ، الشاعر في قلبه المتفتح أبداً للجمال المترع بالخير الممتلىء بالحب ، وفي لسانه الذي يفيض أبداً بالبيان ، وينفث السحر الحلال .

وفي هذا التلخيص تحليل شاعرية أنور ، فاذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن صديق الأسى ، قد وقف شعره على تقديس الألم العبقري ، فبكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة في (الخريف) . وخلد مظاهر الأسى في النفس وفي الطبيعة ، فاعلموا أنه لم يكن يستطيع

غير ذلك ، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهي ، ولكن يطبعه الله بطابع البيئة والزمان ، ويكوّن مشاعره في طفولته ، قبل أن يشعر هو ليكوّن مشاعره كما يريد ، ولو استطاع أن يصغر فمه أو يجمل أنفه لاستطاع أن يبدل قلبه ، ويحول عواطفه .

وقد نشأ أنور مثلما نشأت أنا ، وفتح عينيه على الدنيا والحرب العالمية قائمة ، ودمشق في أشدأيامها ، ومظاهر البؤس والألم في كل مكان، فكان يرى الازدحام كل صباح على الفرن ، ولم يكن يفتح منه الا كوّة صغيرة ، يبرز منها رأس الخباز ، ليعطي السعيد من الناس كتلة سوداء لا يعرف ما هي على التحقيق ، وان كان يعرف أن اسمها (الرغيف) ، والجياع ينبشون المزابل ويأكلون قشور البطيخ ، والنساء يعملن من دون الرجال لأن رجال دمشق قد أكلتهم الحرب ، والاسم المرعب اسم جمال باشا يملأ القلوب فزعاً ، ثم رأى المشانق وشهد المآتم، فامتلأت نفسه بهذه الصور القاتمة حتى لم يبق فيها مكان لغيرها ، واذا هو رأى الأعراس والأفراح أيام الشريف ، فان هذه الأيام لم تكد تبدأ حتى انتهت ، ولم نكد نستمتع بفرحة الاستقلال في حفلة التتويج ، حتى ذقنا غصة الانتداب في مأساة (ميسلون) .

فلا تلوموا أنور ان كان الحزن طابع شعره ، وان الفرح فيه مثل الفجر الأول لا يكاد يبدو بياضه في الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل فهذا هو السبب ...

ولا تلوموه ان تغزل ، فتكلم عن الرؤى والأحلام ، وترك الحقائق وعلا الى سماء الخيال ولم ينزل الى ارض الواقع ، وانه عمم وجمجم ، فلم يخصص ولم يصرح ، فان البيئة التقية التي نشأ فيها أنور لم تكن ترى في الحب الا (ذنبا) على صاحبه أن يستغفر الله منه ، وأنا أؤكد أن أنور ، كـ (نصيب) الشاعر الذي سمى قوسه ليلى ليتغزل بها . ان

أنور لم يتصل في حياته بفتاة على نحو ما يفعل شباب اليوم ، وانه كان أعف وأشرف من أن يفكر في هـذا أو يحاوله ، فمن هنا جاء الذي تلومونه عليه .

ولا تأخذوا على أنور انه حبس نفسه في هذه الدائرة الضيقة ، وقصر عليها شعره ولم يخرج الى الفضاء الأرحب ، ولم يعش في الدنيا الواسعة التي يعيش فيها أكثر الشعراء والناس ، فان أنور أمضى صباه كما أمضيت صباي في عالم ضيق كانت حدوده تلك المسالك الملتوية الموصلة الى مكتب (عنبر) ، وتلك الساقية الصغيرة المطيفة بمقبرة الدحداح ، وذلك الطريق الموحش الذي كان ينتهي عنده العمران ، ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص ، والذي كان اسمه (قفا الدور) فصار يسمى اليوم (شارع بغداد) أفخم شوارع دمشق الجديدة ...

ان أنور يخشى اليوم أن يفارق عالمه الشعري الذي أحبه ، أو يتجاوز حدوده كما كان يخشى من قبل أن يتجاوز (قفا الدور) ، أو يتخطى (مكتب عنبر) ولكن عالم أنور الشعري ، عالم واسع على ضيقه لأنه عالم القلب ، ولأنه متصل بالله ، وقد تضيق على المرء الأرض كلها ان اقتصر عليها ، ولا يضيق عليه شبر واحد سما حتى اتصل بالسماء .

وعاش أنور في عهد جد ويقظة ، واقبال على العلم والعمل ، وحفظ أنور عشرات القصائد من جياد أشعار العرب ، فجاء أسلوبه كالماء الصافي فيه عذوبة ولين وفيه ان تدفق قوة ومضاء ، وكان في شعره أثر الجد ومؤهلات الخلود ، لا كأشعار أصحاب المناسبات وطالبي اعجاب العوام ، وكان نسجه كالحرير المتين المفوف المنقوش النقش البارع ، لا كالنسج الرخيص الذي يتمزق من اللمس ، وتذهب ألوانه من رؤية الشمس .

ما مشى أنور على الطريق الذي فتحه له من قبله ، بل على طريق شقه هو لمن بعده ، وكان أنور امام جماعة الشباب ولـم يكن مؤتمـاً تابعاً ، ولولا نفس من شعر شوقي في مثل (ليل الحزين) من بواكيره وروح من الأدب الفرنسي في بعضها ، لقلت بأن أنور لم يقلد في أسلوبه أحداً أبداً ، وهل لشاعر مثل الذي لأنور في وصف الطبيعة وفي وصف البلدان وفي وصف الرؤى والأحلام ، حتى يقلده أنور ؟

* * *

وبعد فهذا ديوان الوفاء للعربية : نخل مفرداتها فاختار أطيبهـا ، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها ، وديوان الوفاء لأقطارها : جرى بردى منذ الأزل ، وقام لبنان ، فهل قال شاعر في بردى مثل الذي قال أنور ؟ هل نظم في لبنان مثل ما نظم ؟ وهل يعرف القارىء في الشعر الحديث قصيدة في وصف الطبيعة أعظم من(لبنان) التي اشتمل عليها هذا الديوان؟ أنا لا أبالغ ولا أغالي ، وهذا الشعر الحديث بين أيدي الناس فمن عرف أعظم منها فليقل ... ولكن (المعاصرة) حرمان ، وأزهد الناس في العالم أهله وجيرانه ، وستمحص السنون هذا الشعر وهذا النثر ، وتميـز الزجاج من الجوهر ، والنحاس من الذهب ، وهنالك بعـد أن يذهب الرجال ، وتنقطع الصداقات والعداوات ، ولا يبقى إلا الأدب الـذي يستحق الخلود ، تعرف قيمة (لبنان) وقيمة (بردى) ، وهنالك بعد أن يعفي النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع ، وتشغل النـاس ، يحتل اسم أنور العطار مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين .

* * *

أستاذنا الجندي

القيت في حفلة الأربعين سنة ١٩٥٥ م

ان من أصعب الصعب أن أقوم لأؤبن رجلاً لا أعرف عنه شيئاً وأصعب منه يا سادتي أن أؤبن رجلاً أعرف عنه كل شيء . أن أختصر ثلاثاً وثلاثين سنة في عشر دقائق ، أن أجمع البحر في قطرة ، والروض في زهرة ، وذكريات استاذي سليم الجندي في كلمة تأبين .

لقد اقتنيتها دقيقة دقيقة ، أجمعها وأحصيها كل يوم ، كما يجمع الشحيح فلساً الى فلس ، ويحفظها ، حتى اجتمع لي في صحبته ثلث قرن ، فهل تروني أفرط فيها ؟ لقد كتمتها سراً في القلب ، ونجوى للنفس ، وزاداً لي في مفازات العمر ، فهل أكشفها اليوم وأعلنها وأبيحها كل سامع ؟

انها ذكرياتي أنا ، وما الحياة لولا الذكريات ؟ وان أنا فعلت فمن أين أبدأ ؟

من أين ؟.. وما أعددت لهذا المقام كلاماً لأني ما كنت أتوقع أن أقوم يوماً فأؤبن الأستاذ سليم الجندي .

كنت أظن أن " حبلي منه لن ينقطع أبداً ، الحبل الذي غزلت خيوطه من مسالك اللحظات في مسارب الزمان ، وكل حبل مودة الى انقطاع ، وكل حي الى ممات ، ولكنها أماني النفوس . حتى جاءني الزميل الكريم الاستاذ نورس الجندي من أربعين يوماً (لا كنت يا هذي الاربعون) فقال لي ، والوجه ملتاع ، وفي الصوت ارتجاف : عظم الله أجرك بالأستاذ

سليم ! ومرّ على خاطري كل سليم أعرفه الا الأستاذ الجندي ، وقلت له: من ؟ قال : أستاذكم سليم الجندي . وشدهت ولبثت دقيقة لا أفقه ما يقول ، لأن هذه الكأس أكبر من أن تساغ بجرعة ، ورحت أتجرعها على مهل حتى فهمتها .

فهمت انه قد مضى الرجل الذي لم يبق تحت أديم السماء مَن هو أعلم منه بلسان العرب : لغة واشتقاقاً ونحواً وبلاغة وعروضاً ورواية وضبطاً ، ولا مَنْ هو أوفى لها وأغير عليها . وانه لم يعد في ديار الشام مَنْ أستطيع أن أذهب اليه أنا والأفغاني والعطار ، كلما دهمتنا عظام المشكلات في العربية ، نحملها اليه ليحل لنا عقدها .

ولم يبق في الدنيا كلها من تقول له في العربية يا أستاذنا . وان علينا بعد اليوم أن نعتمد على أنفسنا ، كما يعتمد الضابط على نفسه حين يفتقد القائد العبقري ، وسط المعمعة الحمراء . وهيهات أن يسد أحد مكان قائد المعركة بين العربية والعجمة ، حجة العرب ، سليم الجندي !

ولم أعد أستطيع أن أقول لهؤلاء الاخوان ، وللزركلي والجيرودي كلما رابنا ريب الحياة ، وشجانا زيف المودات ، وفقد المروءات ، هلم الى الجندي نجد عنده مثل الذي يجده الغريق حين ترفعه يد المنقذ الى طلق الهواء .

لقد تحققت أن سليم الجندي مات ، فأحسست كأن قد زاغ بصري وزلزلت أعصابي ، ومرّ في أذنيّ نهر هدار . لا تظنوا أني أبالغ أو أتخيل خيال شاعر . لا وما أنا بالشاعر ، وما صناعتي نسج التهاويل . ما أنا الا مصور يحمل آلته يطوف بها ، يصور مشاهد الحياة ، وخطرات النفس ، مصور فطوغرافي مسكين ينقل صوره نقلاً ، ولست المصور المبدع الفنان الذي يحمّل لوحاته ما لم يكن ولا يكون . مخلوق يدب على أرض الواقع على حين يضرب الشعراء أمواج الجو بأجنحة النسوز ، وليست

هذه هي الصدمة الأولى لقد عراني مثلها مرات من قبل .

عرتني يوم مات أبي وكان لي أباً ، وكان لي معلماً ، كما كان للعشرات من أكبر رجال هذا البلد اليوم . وما أمدح أبي ، وهل قمت هذا المقام للفخر ؟ ولكني أقرر احدى الحقائق . ويوم مات شيخ الشام واستاذ كل متعلم فيها ، ممن هم اليوم فوق الأربعين الشيخ عيد السفرجلاني . ويوم مات أذكى انسان عرفته لا أستثني أحداً أبداً أستاذنا مسلم عناية . ويوم مات الاستاذان الحبيبان عبد القادر المبارك وعبد الرحمن سلام .

أولئك رجال بكيتهم كما بكيت الاستاذ الجندي بدموع قلبي .

وهل تستكثرون عليّ أن أنضح بالدمع قبور رجال هم ملؤوا قلبي بالعاطفة التي ينبع منها الدمع ؟

وهم غرسوا فيه دوحة الحب التي من ثمارها الوفاء ؟

وهل كان أولادهم الذين خرجوا من أصلابهم أحق ببكائهم مني ؟

لقد صرمت في صحبة الشيخ عبد القادر المبارك مدة أطول من كل ما عاشه في الدنيا نصف أبنائه ؟

لقد عرفت من عبد الرحمن سلام ما لم يعرفه أهله وأولاده ؟

لقد كنت لهؤلاء أكثر من تلميذ بل (ودعوني أقلها) لقد كنت لهم أكثر من ولد .

التلميذ تلميذ ما دام المعلم على منبره ، فان نزل المعلم عن المنبر ، وخرج التلميذ من المدرسة ، سار كل في طريق ، فلم يعد بينهما الا ذكرى أيام مرت ولن تعود .

والولد يرى في أبيه العبقري مظاهر انسانيته التي يشترك فيها الناس جميعاً ، فتختلط بمظاهر العبقرية التي يمتاز بها عن الناس جميعاً ، ومن هنا قالوا : أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه .

والمريد لا يرى منه الا الجانب العلوي الخالد لذلك تخلد صلته به أبداً وتعلو .

والولد يشارك أباه طعامه وشرابه . والمريد يشاركه فكره وشعوره . والولد يرث عن أبيه ماله ، والمريد يرث علمه .

لا أعني أولاد الفقيد الجندي ، فهم جميعاً من النابغين النابهين ، ولكن هل يزعمون أنهم أحق باللوعة عليه مني ؟ هل كانت الصلات بين شيخ الأدباء وبين أنجاله الأطباء أقوى من الصلات الفكرية بينه وبين تلميذه الأديب ؟ وهل ما يمتون به من صلة النسب أمتن في مقاييس الخلود مما أمت به من صلة الأدب ؟

عفو َكم يا سادة عفو َكم . لقد تركت طريق موضوعي لأني أبصرت رياض الذكريات تلوح لي عن يمين وشمال ، فلم أتمالك أن تتكبت طريقي لأقطف منها وردة أو زهرة ، أو أعود بشمّة من رياها وعطرها ، وسأرجع الى هذا الذنب مرات في هذا الخطاب .

وهل لكلمتي هذه موضوع ؟ ان موضوعها ذكريات ومتى حصرت الذكريات أرقام الحاسب وأشكال المهندس ؟ ذكريات وهل في الحياة أمتع من التعلل بكأس الذكريات ، والنشوة بخمرة الأماني ؟ وأنا أعلم يا سادة أن أثقل الكلام في ميزان الأذواق كلمة (أنا) ، ولكني مضطر الليلة اليها . لأن الذكريات لا بد فيها من ذاكر ، فكيف أنشر المطويّ من ذكرياتي ، ان أغفلت ذاتي ؟ فائذنوا لي أن أعود الى مواضي أيامي الى عهد الدراسة الابتدائية ، يوم كان يحكم دمشق الرجل المرعب جمال باشا ، وصحبه الاتحاديون الملحدون ، وكنا نحفظ الاسماء التركية نسردها كل صباح سردا بلا فهم ولا علم ، وكنا نقرأ النحو العربي بالتركية على المعلم التركي ، وكان التركي هو اللسان الرسمي للبلاد ، يخاطب الحاكمون وينشد أغانيه المنشدون . لقد حسب الاتحاديون

أنهم بهذا يقضون على العربية ويرثون أمجادها ، ويدّعون لأنفسهم مكارمها . أرأيتم الصبي الهزيل يلبس ثوب العملاق ؟ أأبصرتم الأحمق الذي يلصق بالصمغ ورقة على وجه أبي الهول ، عليها اسمه ليصحح خطأ التاريخ ، ويثبت أنه هو الذي نحت أبا الهول ، هذا هو مثال الاتحاديين الذين ظنوا أنهم بلغة ملفقة محدثة ، وبمئة قصيدة وقصة ، وبالسيف المصلت على أعناق العباد ، يستطيعون أن يقتلوا اللغة التي كانت معجزة العبقرية الانسانية ، لأنها لم تنشأ كاللغات فالتاريخ يعرف طفولة كل لغة وشبابها ، ويعرف تدرجها في طريق الكمال أما العربية فلم يعرفها التاريخ الا كاملة مكملة ، لأنها أسن من التاريخ ! ولكن مالي ومالهذه التفاصيل الآن ؟ حسبكم أن تعرفوا أننا كنا في أواخر هذا الليل الذي خاضت حندسه العربية ، وكانت تتخبط فيه في مسراها على غير هدى ، لولا من حملوا لها المصابيح تحت طباق الظلام ، اولئك الأعلام من رواد هذه النهضة الجديدة .

وعلى ضوء هذي المصابيح وضح للسارين الدرب ، فسار المركب ، وكان الفجر قد حل ، ولكن سحابة الاتحاديين كانت تحجبه عن العيون ، (قلت الاتحاديين ولم أقل الأتراك) ، فلما انزاحت السحابة ملأ الأفق نور الفجر . ونشرت رسائل وكتب ، وألقيت خطب ومحاضرات ، وكان النادي العربي ، ومن عجب أن قام النادي العربي أمام أوتيل فيكتوريا حيث كان ينزل جمال السفاك ، وعرفنا لأول مرة أن في الدنيا أدباً عربياً ، وشعراً عربياً ، وخطباء يخطبون في غير المساجد ، ومن غير ديوان ابن نباتة المرتب على الشهور والأسابيع ، الذي كان يحفظه السامعون من المصلين ، مثلما كان يحفظه الخطيب . ومرت أيام ، ودفن الاستقلال الوليد في وادي ميسلون ، ولكن النهضة بقيت عائشة ، ولبثت تسير قدماً حتى أثمرت مجلة الرابطة الأدبية التي صدر العدد الأول منها في ١ ايلول ١٩٢١ . وكان والدي من المشتركين فيها ، فكنت أقرؤها ولئن قرأت قبلها كتباً

من كتب الأدب القديم ، ثقفت المعوج من بياني ، وقومت لساني ، فان أول ما قرأته من الأدب الجديد على الاطلاق هو مجلة الرابطة .

ورأيت بين كتابها كاتباً ظهر لي من بحثه ، ظهر لي وأنا في تلك السن — صدقوني — انه من وزن آخر ، وانه أرجح وأوقر ، وأنه كان يمسك هو بمفاتيح القاموس ، ويمتلك كنوز اللغة ، فهو يعطي الألفاظ للادباء يقولون وهو يهذب مقالهم ، ويكتبون وهو يصحح كتابهم ، فتصورته كأستاذ بين تلاميذ بارعين ، ثم رأيت صورته فصدق النظرَ التصور ، لأني رأيتهم شباباً ورأيته كهلا بينهم ، بصلعته وهيبته ولحيته ، أو تخيلته كهلا ، وكانت هذه هي أول مرة سمعت فيها باسم الجندي .

ومن مباحث الجندي في (باب تهذيب الالفاظ) في الرابطة تعلمت أن في الدنيا شيئاً اسمه علم اللغة والتحقيق اللغوي .

وكانت المدرسة السلطانية الثانية التي كنا طلابها فيها على عهد الشريف قد ألغيت ، وذهبنا الى مكتب عنبر ، الثانوية الوحيدة في دمشق ، وهناك عرفنا الاستاذ سليم مدرساً ، وقعدنا بين يديه تلاميذ .

ولكن هل أقفز قفزاً الى حديث الاستاذ ؟ ألا أحدثكم عمن علّمنا قبله ؟ وعن سلفه الشيخ عبد الرحمن سلام ؟ وعن الشيخ عبد القادر المبارك ؟ أيقف شعراء العرب على حفرة طمستها الرياح ، وحجارة سوّدتها النار ، ويبكون على آثار الخيام ، ولا أقف عند ذكرى الرجلين اللذين لولاهما ولولا الجندي ، ما عرفت ، ولا عرف العطار والمبارك والمحاسني والكرمي والأفغاني والجيرودي وسلطان وجمال الفرا ووجيه السمان كيف يكون تأليف الكلام ؟

امنحوني دقائق أحيي فيها من منح هذه العربية حياته كلها ، ومن أعطى الشام هؤلاء الذين تعتز بهم اليوم من شعراء وخطباء وكتاب لما دخلنا مكتب عنبر يا سادة ، وجدنا في درس العربية مفاجأتين :

رجلين من نوادر الرجال ، ولقد قلت مرة ، ان الرجل المهذب الاجتماعي ، كالنسخة المطبوعة من الكتاب منها آلاف ، وآلاف ، ، أما أمثال المبارك وسلام فكالنسخ المخطوطة ، قد يكون فيها خرم أو غموض ولكنها أثمن من كل مطبوع ، لأنها مفردة ليس لها نظير .

أما الشيخ عبد الرحمن سلام ، فما رأيت وما أظن أني سأرى من هو أطلق منه لسانا ، وأحلى بيانا ، لقد كان عجبا من العجب اذا احتاج أن يتكلم في موضوع لم يكن عليه الا أن يفتح فمه ، ويحرك لسانه ، فاذا المعاني في ذهنه ، والألفاظ على شفتيه ، والسحر من حوله ، والأنظار متعلقة به ، والأسماع ملقاة اليه ، والقلوب مربوطة بحركة يديه ، وكان يرتجل الشعر كما يرتجل الخطب ، وكان يرمي الكتاب (كتاب النحو) لا يباليه ، ويتكلم من أول الساعة الى آخرها ، في اللغة وفي الأدب وفي كل شيء . كان يريد أن يربينا على السليقة العربية بالمحاكاة والمران ، وينفخ فينا من سحره ليجعلنا أدباء قبل الأوان .

وأما المبارك ، فما رأيت وما أظن أني سأرى مدرساً له مثل أسلوبه في الشرح والبيان ، وفي امتلاك قلوب الطلاب ، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخص في جملة واحدة بحثاً من البحوث .

وكان يعلمنا الفقه ؟ ماذا قلت ؟ الفقه ؟ هذا هو اسم الدرس في عرف المدرسة ، أما الدرس في حقيقته ، فكان فقها وتفسيراً وحديثاً ولغة وشعراً وأخباراً ، وما شئت من كل نافع مفيد وكل طريف جديد .

وكان الأول هو الذي جرأني على امتطاء صهوات المنابر ، ومقارعة الفرسان في ميادين البيان ، وكان هو الثاني الذي أخذ بيدي فأطلعني على كنوز الثقافة العربية ، وطبع نفسي بطابعه ، حتى لأستغرق أحياناً في

الدرس فاذا بي أتكلم بلسان المبارك ولهجته ، وأتحرك مثل حركته والطلاب ينظرون مدهوشين ؟

وفي يوم من أيام سنة ١٩٢٣ ، دخل علينا الشيخ عبد الرحمن سلام ولكن لا كما كان يدخل كل يوم ، وألقى خطبة ، ولكن لا كما كان يلقي ، دخل حزينا ، وألقى خطبة الوداع ، وذهب وذهبت معه قلوبنا .

وجاءنا مدرس جديد ، فقعد على الكرسي ، وما كان الشيخ ليقعد عليه أبداً ، وفتح كتابه يقرر الدرس بصوت خافت ، وكلام لا يكاد يسمع .

وكان الأفغاني الى جنبي فقلت له : من هذا ؟ قال آسفاً : هذا والد سيدنا .. وأشار الى نجم الدين ، قلت : الاستاذ سليم الجندي ؟ قال : نعم .

أهذا هو الاستاذ سليم الجندي ؟ أهذا الذي أعجبت به لما قرأت له في مجلة الرابطة ؟

يا ضيعة الأماني ، ويا حسرتا على استاذنا الذي أضعنا ، على الشيخ سلام . سلام على سلام .

بل سلام على العربية ، لقد زهدت فيها وعزفت عنها ، وعزمت لأتوجهن بالاهتمام الى درس آخر .. من دروس المدرسة . مالي وللعربية وهذا مدرسها ؟ مدرس لا يخطب ولا يرتجل الشعر ، ولا يتلاعب بمهج السامعين ؟! ومربي الدور . فأخرجني الاستاذ فأقامني على اللوح . وأملى عليّ بيتين للمعري وقال : اقرأ وفسر واعرب . فانطلقت كما علمنا سلام ، انطلقت أخطب في موضوع البيتين ، خطبة حماسية مجلجلة ، فاذا بالاستاذ يبتسم ابتسامة أحسست كأنها سكين في قلبي ، وكأنها دلو ماء ألقي على جمرة حماستي ، وقال : بعدُ بعدُ ، فسر أولاً معاني الكلمات الغريبة .

ووقفت ، كما وقف حمار الشيخ في العقبــة . وسألني عن دقائق الاعراب ، فوقفت وقفة أخرى .

قال : أرأيت ؟ أتَبني الدار قبل نحت الحجارة ؟
ورأيتني حقاً أبني الدار قبل نحت الحجارة أبني دوراً في الهواء !
وصغرت عليّ نفسي بقدر ما كبر الاستاذ .

وعدت أبدأ قراءة النحو والصرف من جديد ، وكان الكتاب الذي نقرؤه ، قواعد اللغة العربية (الجزء الرابع من الدروس النحوية لحفني ناصيف وأصحابه) ، وهو كتاب يغني المتأدب ، بل الأديب عن النظر في كتاب غيره ، وهو أعجوبة في جمعه وترتيبه وايجاز عبارته ، واختيـاره الصحيح من القواعد ، وهو أصح وأوسع من شذور الذهب ومن ابن عقيل التي كنت أقرؤها على استاذيّ الجليلين الشيخ أبي الخيرالميداني والشيخ صالح التونسي .

وعكفنا عليه ، وملأنا حواشيه البيض ، ثم ألحقنا بين صفحاته صحائف نملؤها بفوائد الاستاذ وشواهده وزياداته ، وعرفنا يوما بعــد يوم ، مقدار النعمة التي أنعم الله بها علينا ، حين جعلنا تلاميذ الاستاذ سليـم الجندي .

وكنا نفاخر اخواننا الذين يقرئهم الشيخ الداودي ، ونأتي بالمعضلات ، والصعاب نتصيدها من كتب الأدب وأفواه العلماء ، فنطرحها عليــه ، فنحظى بأجمع الجواب بلا مراجعة ولا كتاب ، ويرجعون هم بلاجواب .

وما انتقص الداودي رحمه الله ، فلقد كان معلماً فاضلاً ، وكانت له أخلاق ، أعطر من زنبق الحقل ، وأطهر من ثلج الجبل . وله قلب من الذهب ، ولكنه لم يكن من بابة الجندي . ان الذهب ذهب ، ولكن ان قابلتـه بالجوهرة المفردة وأرى بريقه حياء .

وأحببت الأستاذ الجندي حب الولد أباه ، وعرفت قدره ، فكنت

لا أكف عن سؤاله ، أسأله في الصف ، وألحقه في الفرصة ، وأدخل معه غرفة المدرسين ، أشرب من معين علمه ولا أرتوي ، أتزود من هذا العذب لسفري الطويل في صحراء الحياة ، أسأله عن الغريب ، فلا تغيب عنه كلمة منه ، كأنه قد وعى المعاجم وغيّبها في صدره ، وأسأله عن التصريف والاشتقاق ، فيجيب على البديهة ما يعيي العلماء جوابه بعد البحث والتنقيب ، وأسأله عن النحو ، فاذا هو امامه وحجته ، وألقي عليه بالبيت اليتيم وجدته في كتاب ، فاذا هو ينشد القصيدة التي ينمي اليها ، ويعرف بالشاعر الذي قالها .

لقد كان مدرساً للعربية ، ولكنه كان أكثر من مدرس . وكان عالماً من علماء البلد ، ولكنه كان أكثر من عالم ، وربّ مدرس لا يكون عالماً، وربّ عالم لا يكون عالماً الاّ في بلده ، وبين أقرانه ، وربّ عالم لا يكون عالماً ، الاّ بالنسبة الى عصره وزمانه .

أما الجندي ، فقد كان أعلم علماء العربية في هذا العصر ، وكان واحداً من أعلام العربية الأولين ، ولكنه ضل طريقه في بيداء الزمان ، فجاء في القرن الرابع عشر الهجري ، لا في القرن الرابع .

أقرر هذا ، بعد ما مشيت في البلاد ، وجالست العلماء ، فما ثمّ عالم مشهور في العربية ، في مصر والشام والعراق والحجاز والهند والملايو وأندونيسيا الاّ عرفته . عرفت في مصر ، علماء الجامعة المصرية وعلماء الجامع الأزهر ، والأدباء والكتاب ، وأنا أؤكد لكم القول ، أني لم أجد فيهم من يفوق في حفظه ، وضبطه ، وأمانته ، وملكته ، الاستاذ الجندي .

وكشفت فيه يوماً بحر علم آخر ، لم أكن أعرفه من قبل .

سألته عن مسألة من الدين ، فاذا هو فقيه أصولي ، يروي الحديث ويعرف المقالات ، ومن هنا ، من هنا يا سادة ، جاء حفاظه على اللغة ، ومعرفته بقدرها ، وغيرته عليها ؟ لقد كتبت مرة أن انكليزي القرن

العشرين يقرأ أدب انكليز القرن السادس عشر فلا يفهمه الا بترجمان .
ونحن نقرأ شعراً عربياً من ألف وأربعمئة سنة فنفهمه كما نفهم شعر شعرائنا اليوم ؟

فمن أين للعربية هذه المزية ؟

وكيف ثبتت العربية برغم النكبات الثقال التي مرت بها ؟ كيف عجزت الدول التركية والفارسية التي تعاقبت على بلاد العرب ، من أيام الواثق عن أن تقضي عليها ؟ بل كيف استطاعت هي أن تقضي على عجمتهم ، وتدخلهم تحت لوائها ؟ وما هو السر في قوة العربية وثباتها ؟

ان السر في هذا الحصن المتين الذي حصنها الله به : القرآن يا سادة، القرآن .

وهذا هو سبب نبوغ الجندي ، حتى كان امام العربيةوهوابن عصر، حاول الأتراك أن (يتركوا) فيه كل عربي .

السبب ، معرفة الجندي أن (العربية لغة القرآن) ، وان من أراد أن يكون اماماً فيها ، فليكن خادماً للقرآن ، ولست أنا الذي يقول عنه هذا ، بل لقد قاله هو بلسانه .

قال في العدد الأل من مجلة الرابطة الأدبية ، في مقدمة باب تهذيب الألفاظ :

« منيت اللغة العربية ، بضروب من النكبات ، لو أنزلت على جبل شامخ لتصدع ، ولو أصاب غيرها من اللغات ، معشار ما أصابها منها ، لعفت رسومها ، واندرست معالمها ، ولكن الفضل في سلامة هذه اللغة الكريمة ، ونجاتها من براثن الفناء والموت ، يرجع الى القرآن الكريم» .

وقال بعد قليل :

« وغايتنا ، ارشاد الألسن والأقلام ، الى مواقع الفصاحةوالصواب، وصرفها عن مظان الغلط ووجوه الركاكة ، ولسنا نزعم في كل مانكتبه

السلامة من الزلل والعثار ، لأن العصمة لله وحده » .

أسمعتم هذه الجمل الثلاث ؟

لقد لخص فيها الجندي منهاجه كله .

المنهاج الذي يشتمل الدين ، والعلم ، والخلق ، لقننا مع العربية الدين ، وقصد التقرب الى الله بخدمة لغة القرآن .

وأخذنا من أول يوم ، بالبعد عن الجرائد والمجلات ، وهذا الأدب الجديد ، ولم يكن يملي علينا في الاعراب والاستظهار ، الا الشعر الذي يحتج بعربيته ، من الجاهلي والاسلامي ، ويخرج لنا الألفاظ تخريج المحدثين الأحاديث ، فيميز لنا الصحيح من الدخيل ، والفصيح من الشاذ .

وهو على ذلك كله ، متواضع حيي ، غاض الطرف والصوت ،حاضر النكتة صافي القلب ، حسن المعشر ، رضي الخلق ، مستقيم لا تستطيع مغريات الدنيا أن تحوله عن طريقه .

ولقد سار على هذا المنهج ، حياته كلها ، ولكنه قاسى في هذا السير الأهوال ، لم يكن يوضع برنامج للعربية في المدارس و يبدل أو يؤلف كتاب أو يعدل ، الا دعوا الجندي ، فاذا جاء وجد أعداء العربية وخدمة الاستعمار متربصين له ، يريدون أن يجهلوا أبناء العربية بالعربية ، حتى يبعدوهم عن القرآن ، فيسلبوهم أقوى سلاح يحاربون به الاستعمار ، يسلكون لذلك أدق المسالك ، ويتخذون لذلك أخفى المكر ، وكان عليه أن يحاربهم وحده ، يدفع مكرهم بأخفى منه ، ويسلك لذلك أدق من مسالكهم ، فينال ذلك من أعصابه ومن صحته ، ولكنه يحتسبه جهادا عند الله .

وسيكون له ان شاء الله أجر المجاهدين .

لقد كان الجندي جندياً يحمي حمى العربية ، أن يدخله لص من

باب البرامج أو الكتب أو الامتحانات العامة ، أو من باب اختيار الجهلة للتدريس ، ما غفل يوماً ولا فارق مكانه ، فلما سقط شهيداً ، صريع المعركة استبيح الحمى ، ورتع اللصوص ، ودخلوا من كل باب من هذه الأبواب .

لقد بدّلت البرامج ، وغيرت الكتب ، وعيث في الارض الفساد ، وصار بعض مدرسي العربية اليوم ، أضعف من بعض طلاب البكالوريا في تلك الأيام .

لقد تساقط الحماة واحداً اثر واحد ، المبارك ، والبزم ، والجندي ، وخلا من أسوده العرين ، أفليس في الشبال من يحمي الذمار ؟

بلى يا أستاذي ، بلى !

هؤلاء هم تلاميذك ، يقسمون على قبرك الطريّ ، انهم ماشون على طريقك ، حافظون لعهدك ، محامون عن لغة القرآن التي صرمت حياتك كلها تحامي ، وتربي المحامين ، عنها ، وما بحولنا وقوتنا ، ولكن بحول الله وقوته ، وثقة بوعده ، (انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون) فكلما فتحوا للشر باباً ، من تسهيل قواعد العربية ، أو درس اللهجات العامية ، كان هو الذي يسده ، وكلما أوقدوا ناراً للحرب ، أطفأها الله والظفر للقرآن ، برغم ما هو خامد من نارهم وما هو(ساطع) .

يا سادة ، لقد صحبت الجندي ، تلميذاً ، وزميلا في التجهيز ، وفي الكلية الشرعية ، وسامرته ليالي طوالا ، وكنت معه في السفر والحضر ، وفي نفسي عنه ذكريات ، ما كشفت لكم الا طرف الطرف منها ، ولو أردت أن أسردها كلها لأبقيتكم هنا الى الصباح .

لقد كانت له على جلالة قدر أوهام ، وهل تعيش الأوهام الا في القلوب الكبار ؟ ومن أوهامه أنه لم يكن يطيق أن يزور مريضاً ، أو يعزّي بفقيد ، مخافة أن يسمع باسم الموت .

وهذا هو الموت قد نزل به .

الموت ، لو نجا منه أحد ، لكان أفضل الخلق محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الموت ، ولكن هل مات الجندي ؟ هل مات من مشى في موكب المؤرخين المحققين بكتابه (تاريخ المعرة) ؟ ومن كان مع أئمة اللغويين بـ (اصلاح الفاسد) ، ومع أعلام النحويين بـ (كتاب النحو) ، ومع مؤرخي الأدب بـ (تاريخ أبي العلاء) ؟

يا أستاذي ، ان الموت حق ، ولكنك ستحيا مرتين : مرة في هذه الدنيا ، باسمك وعلمك ما بقيت الدنيا . ومرة عندالله ، بايمانك وخلقك، ودفاعك عن لغة القرآن ، وتلك هي الحياة الخالدة حقا .

اللّهم اني لا أتألّى عليك ولكن نبيك محمداً قال :

« اذا مات ابن آدم انقطع علمه الا من ثلاث ، صدقة جارية ، وعلم نافع ، وولد صالح يدعو له » .

اللّهم وهذا علمه نافع أبدا ، وهؤلاء أولاده ، ونحن جميعاً أولاده، وما نحن بالصالحين ولكنا ندعو دعاء الصالحين :

اللّهم ارحمه ، واعف عنه ، وأدخله جنتك ، اللّهم عوض هذه العربية منه ، اللّهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنّا بعده ، واغفر لنا وله ، اللّهم آمين .



أوّل مقالة نشرتها وأوّل درس ألقيته

نشرت سنة ١٩٤١ م

اني لأخط عنوان هذا الفصل وأنا أسخر من نفسي ، اذ أحدث الناس حديث مقالاتي ، والناس في شغل عني وعن مقالاتي بهذا الهول الهائل ، والبلاء النازل ، والغلاء الشامل ، وبالله العوذ مما هو أشد وأعظم .

ولعمر القراء ما أكثر الحديث عن نفسي لزهو ، ولا لكبر ولا غرور ، ولكنها صناعة الأدب يسوغ معها ما لا يسوغ مع غيرها . واني « اذا أردتَ الجد » لمن أشد الأدباء زهادة في الأدب ، وإخال أن الناس في أدبي لأزهد ، ولولا كليمات أسمعهن أحياناً فيهن تعليق على ما أكتب أو ثناء عليه ، أو رسائل في مثل ذلك قد تأتيني ، أو فقرات قد أقرؤها في صحيفة فيها تنويه بي ، لولا ذلك « وما ذلك ؟ ! » ما ظننت أن أحداً يقرأ مقالاتي !

وما قصدت هذا الموضوع قصداً ، ولكني نبشت أوراقي أفتش عن ورقة أريدها ، فخرج في يدي « عدد » من المقتبس قديم ، تاريخه سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف ، ففتحته أنظر فيه ، ففتحت لي دنيا من الذكريات اللذة ، وقرأته فقرأت فيه تاريخ نفسي : رأيتني في الصفوف الأوائل من الثانوية ، وحولي رفقة ما رأيت بعدهم مثلهم في اقبالهم على الدرس وجلدهم عليه ، وفي رسوخ ملكاتهم الأدبية ، وقوة طبعهم في الأدب ، وسليقتهم في اللغة ، وتسابقهم الى مطالعة نفائس المصنفات ، ومعرفة المصادر والأمهات[1] ، ولم يكونوا كشباب اليوم الذين يحاولون

(١) والأجود في مثل هذا الموضع الامات وفي الوالدات الحقيقيات الامهات .

الكتابة قبل القراءة ، ويغترون بالنشر فيحسبون أنهم أنداد وأقران لكل من يكتب في الصحيفة التي تنشر لهم ، ويعلن أحدهم عن كتابه الذي سيصدره قبل أن يكتب منه عشر صفحات ، وينتقد الكاتب الكبير وهو لا يحسن أن يقيم لسانه في قراءة مقالة من مقالاته ، ويخدع المجلة عن أدبه فتظنه شيئاً فتخدع به القراء ، وما لم أذكر من صفاتهم آلم وأنكى ...

وكنت قد قرأت طائفة من الكتب أذكر أن منها (حياة الحيوان للدميري) . وهو أول ما طالعت من الكتب ، وهو دائرة معارف (كما يسمونها اليوم) أو هو مَعْلَم[1] جامع فيه فقه ولغة وأدب وقصص وتاريخ وخرافات وعلم وحقائق أفدت منه كثيراً ، (والصاحبي لأحمد بن فارس) وقد ألقى في نفسي اجلال العربية والايمان بسعتها وجلالها ، وحبب الي جزالة الأسلوب وفحولة اللفظ ، ولا أزال الى اليوم أعجب برسالة ابن فارس هذا الى من أنكر فضل الجديد لأنه جديد ، ومال الى تقديس كل قديم لأنه قديم ، وأعدها من نفائس الآثار ، وهي في مقدمة الكتاب ، و (بلوغ الأرب للألوسي) وقد أورثني التعصب للعرب والمبالغة في ذلك ، ثم علمت أن قد كان فيه زيف كثير كما كان فيه صحاح كثير ، وما زلت أحفظ جملة صالحة من أخباره صحيحها وباطلها ، و (الأغاني) قرأته كله ، أعني أخباره وقصصه دون ما فيه من أسانيد وأصوات وأشعار وأنساب ، وهو رأس مالي في الأدب ، وقرأت (الكشكول)و(المخلاة) و (مراقي الفلاح) في الفقه الحنفي ألزمني والدي قراءته ، أسبغ الله عليه رحمته ، (وشرح رسالة ابن زيدون) المطبوع على هامش (الغيث المنسجم) ، وكانت طريقتي في المطالعة أني اذا فرغت من دروس المدرسة دخلت مكتبتنا فتخيرت كتاباً فأخذته فنظرت فيه ، فان أعجبني مضيت فيه لا أدعه حتى أتمه والا أخذت غيره ، لا أستعين على ذلك بمرشد ،

---

(١) معلم على وزن معجم خير عندي من معلمة التي سمو بها الانسكلوبديا.

ولا أستهدي بهاد ، الا ما كان شيخنا الأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك يسميه لنا من الكتب ويرشدنا اليه . وكنا نأخذ الأدب عن الأديب الضليع المتفنن الأستاذ سليم الجندي ، وكان يحذرنا (جزاه الله خيراً) أن نقرأ الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر ، على اعترافه أن فيهم من أطفأت شمسه بدور البلغاء من الأوائل ، خشية أن نسيء الاختيار فتصيبنا عدوى الركاكة وهي شر من عدوى الكوليرا والجذام . فدخلت الجامعة وأنا لا أعرف من العصريين الا المنفلوطي رحمه الله ، وكنت أظنه أبلغ كتاب العصر ، ولا أعدل بأسلوب (نظراته) شيئاً حتى وقع في يدي (رفائيل) للزيات ، فوجدته كنزاً من أغلى كنوز النثر ، وصغرت معه (عبرات) المنفلوطي حتى صارت كلا شيء . ثم عرفت الرافعي وقد أصدر كتابه (تحت راية القرآن) رفع الله به درجاته في الجنة ، فعلمت أن الله قد خلق من هو أبلغ من المنفلوطي ، اي والله ، ومن عبد الحميد وابن المقفع وابن العميد ، ومن كنا نراهم يومئذ أئمة البلاغة واللسن . على أني لم أنس المنفلوطي وترجمت عن شكري له ولأستاذي الجندي والمبارك باهداء الثلاثة كتابي (الهيثميات) وهوأول كتاب ألفته (١٩٣٠) .

أقول ، اني أحسست بعد قراءة ما ذكرت من الكتب بشيء تجيش به نفسي ، فنفست عنها بمحاولة الكتابة فاستوى لي مقال ، نسيت اليوم موضوعه ، قرأته على رفيقي أنور العطار وكان يومئذ يجرب قول الشعر ، فأشار علي أن أنشره فاستكبرت ذلك ، فما فتىء يزينه لي حتى لنت له ، وغدوت على (ادارة) المقتبس ، وكانت في شارع السنجقدار العظيم الذي صار خرائب وأطلالاً . فسلمت على أبي بسام الأستاذ أحمد كرد علي رحمه الله ورحم جريدته ... ودفعت اليه المقال ، ولم يكن من اخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها . وكنا يومئذ متلبسين بجريمة الحياء التي أقلع عنها شباب اليوم والحمد لله الذي

لا يحمد على المكروه سواه • فنظر في المقال فرأى كلاماً مكتهلاً ناضجاً، ونظر في وجهي فرأى فتى فطيراً ، فعجب أن يكون ذاك من هذا ، وكأنه لم يصدقه فاحتال عليّ حتى امتحنني بشيء أكتبه له زعم أن المطبعة تحتاج اليه فليس يصح تأخيره ، فأنشأته له انشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني ووعدني ينشر المقال غداة الغد ، فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبي أنظر هل نبتت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني السرور • ولو أني بويعت بامارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد • وسرت بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً • وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة ، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أيّ جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد ••• أيّ كنز سأجده• وجعلت أترقب الصباح ولاترقب عاشق متيم ينتظر وصلاً بعد طول الهجران ، حتى اذا انبثق الصبح وأضحى النهار ، أخذت الجريدة ، فاذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه •••

* * *

وعدت أنظر الى الجريدة القديمة الصفراء وهي ماثلة بين أوراقي ، وأفكر في هذا الأدب ماذا جنى عليّ وماذا جنيت منه ، لقد سرت بعد تلك المقالة أعدو في طريق النشر • فكتبت في جرائد الشام ووفدت على خالي الأستاذ محب الدين الخطيب في مصر ، فأخذ بيدي وسدد خطواتي، وكان لي أفضل مرشد ومعين ، وأفدت من خلقه ومن علمه ومن ماله ، ثم عدت الى دمشق ، ثم اتصلت بالرسالة صديقة روحي وسميرة وحدتي، وكانت لي خير مدرسة ، فيها الأستاذ الزيات خير مدرس • وكنت اذا نظرت في كتاب ، أو أصغيت الى حديث ، أو ضمني مجلس ، أو شملتني عزلة ، أو اضطجعت لأنام ، أو نهضت من منام ، أو ذكرت ماضياً ، أو فكرت في آت ، أو أغمضت عيني متأملاً ، أو فتحتهما على مشهد من مشاهد السماء والأرض ، أجد في كل ذلك موضوعاً لمقالة أكتبها أو

فصل أنشئه ، وأجد الهمة حاضرة والذهن نشيطاً • ثم كرت ايام ، وغبر دهر ، وأصبحت لا أستطيع أن أخط سطراً على قرطاس ، واذا كتبت لم أدر كيف أكتب ، ولا لماذا • وأبعث بالذي أكتبه الى (الرسالة) مضطرب الأعصاب مزلزلها ، فان أخرته غضبت ، وان ألفيت به تطبيعاً وخطئات لم ينتبه لها المصحح تألمت ، وان وجدته نسب اليّ ما لم أقل ، ويجعل في المقالة أخطاء تدل على جهل الكاتب وما هي مني ولا أنا صاحبها ، عزمت على ترك الكتابة بالمرة وكبر عليّ الأمر ، ثم ان جاءت المقالة منشورة قرأتها مرة لأطمئن عليها ومرة لأنقدها مجرداً من نفسي ناقداً لها ، ثم أرميها فلا أطيق النظر فيها ، ولا أجد من يحدثني عنها كأني أكتب لصخور الجبل لا لبني آدم •••

فماذا أفدت من الأدب ؟ أما اني لم أجد الأدب الاّ عبثاً ، ولم أجد الأدباء الاّ مجانين ، يسعى الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه (المجد الأدبي) • كلما أقبلوا عليه نأى عنهم فما هم ببالغيه حتى يموتوا • وما ينفع ميتاً ذكر في الناس ، ولا يغني عنه مجد ، ما ينفعه الاّ ما قدم من عمل صالح ، ولقد كان رفيقي سعيد الأفغاني أعقل مني ، اذ كان يمد شفته ساخراً كلما حدثته عن آمالي في الحياة ورغبتي في أن أكون كاتباً يشار اليه بالأصابع ، وكنا يومئذ في المدرسة الثانوية تتسابق الى مطالعة الكتب ، وتتبارى في تلخيصها والملاحظة عليها • فما صنع الزمان بآمالي ؟ لقد أراني أني كنت أسعى أطلب السراب ، فلا أصل الى شيء ، وما ثمة شيء حتى أبلغه •••

هذه هي قصة ابتلائي بهذا الأدب الذي أنا تاركه اليوم ، أو ظان أني تاركه ، ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتبه ، وواهب له قوتي ووقتي ، فليهنأ الذين يجدون فيّ سداً في وجوههم أن يبلغوا من الأدب ما يريدون ، والذين يرون أني مزاحمهم على هذا المورد الآسن • ولقد كنت أهزل يوم كتبت أفضل الأدب على العلم ، وأين من أين ؟

وهل تستوي الحقائق والأوهام ؟ وهل من علم يوازي علم الفقه ويضارعه شرفاً ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وبه تضمن الحقوق ، ويدرأ الخصام ويعم السلام ... ؟ ولئن فزع الشباب من زيّ أهل الفقه ، وخافوا أن يوصموا بالجمود والرجعية ، فما يفزع ذلك من سمّي بالشيخ وارتضاه له اسماً ، ولا تثقل عليه عمامته ان كوّرها ، ولا لحيته ان أطلقها ... وللثياب ، لا جرم ، عمل في تكوين طبائع المرء وتوجيه سيرته ، فأنت حين تتخفف من الثياب ، أو تتخذ ثياب أهل الرياضة (السبور) ، فتلبس السراويلات المناكير القصار أو التبّان ، تشعر بالخفة وتميل الى القفز والتوثب ، وتكره القرار على الأرض ، فان أطلت لبسه ، أوشك أن يكون ذلك لك عادة ، وان لبست الجبة ولبثت على هامتك العمامة ، ملت الى التوقر والرزانة ، ولم تستطع أن تأتي ما هو مناف لها ، وتنزهت حتى عن قعود في قهوة ، أو ولوج سينمة ، أو اسراع في مشية في طريق ، أو مزحة نابية ، أو قهقهة مقرقعة في مجلس ... وتتطبع على ذلك حتى يعود لك طبعاً . وان اتخذت (البرنيطة) جنحت بالضرورة الى مصاحبة أهلها ومجالستهم ، وملت عن المساجد ومجالس العبادة ، ولو كنت مصلياً متعبداً ، ومن هنا جاء النهي عن التشبه بغير المسلمين ، والأمثلة على ذلك كثيرة ...

على أني ان تركت الأدب فما أنا بتارك الكتابة ، وان من الكتابة لعلماً ، وان منها لاصلاحاً ، وان منها لما ينفع الناس ويدلهم على طرق الخير ... كما أن من الكتابة ما هو ثرثرة جميلة ، وتسلية سخيفة ، ولغو من القول يذهب جفاء ... فلينظر ذوو الأقلام ما يأخذون منها وما يدعون ، ولينظر القراء ما يقرؤون منها وما يهملون ...!

* * *

أعتذر الى القراء مرة ثانية من الحديث عن نفسي ، فانه أثقل الأحاديث علي أذن السامع ، ولكنها صناعة الأدب ، قاتلها الله ...

ولقد أردت حين شرعت في هذه المقالة أن أقول أشياء كثيرة زورتها في نفسي وأعددتها ، فلما بلغت الكلام عن أول درس ألقيته ، وذكرت هذه المرحلة من حياتي التي قضيتها معلماً ، وتنقلت في الآفاق ، ورأيت فيها من المتع والآلام ، ومن بيض الليالي وسود الأيام ، ما لا يعلم حقيقته الا الله ... وما لم أصف في مقالاتي في (الرسالة) الا الأقل الأقل منه.

لما بلغت ذلك اعتلج في نفسي من العواطف ، وثار فيها من الذكر ، ما عقل قلمي وحبسه عن المسير . وكيف أجمع في مقالة واحدة ما تفرق من قلبي في جنات دمشق ، وقد علمت في كل مدرسة فيها ، وفي (الحرش) الفتان من بيروت حيث (الكلية الشرعية) ، وعلى الشاطىء الوادع من دجلة حيث (الثانوية المركزية) ، وفي طريق الأُبُلّة احدى متنزهات الدنيا الأربعة حيث (الثانوية البصرية) ، وعلى سيف الفضاء الأرحب من (كركوك) بلد الذهب الأسود الذي يشتعل أبداً ، وعلى ضفة الفرات الجميل في دير الزور ، البلد الكريم أهله ، وحيث أذكر ولا أذكر.

انها لتخطر على قلبي الساعة آلاف من الصور التي مرت من قبل على عينيّ ، بل اني لأبصر الآن الآلاف من وجوه زملائي في التعليم وتلاميذي الذين أحببتهم ، تنبعث من ظلام الذكريات ، ثم تطيف بي محيية باسمة تتلو عليّ قصة نفسي ، وتعيد اليّ ما مضى من عمري ، فكيف الى الاجتماع بهؤلاء الأصدقاء لأودعهم قبل أن يتجدد الفراق ، ولأحدث بهم عهداً ، كيف وقد تفرقوا تحت كل نجم ! كيف وقد علا منهم مَن علا وهبط مَن هبط ، وشغلتهم شواغل الحياة فلم يعودوا يذكرون معلماً ولو لم ينسهم ذلك المعلم ! كيف ومنهم الوفي ومنهم الجاحد والناس معادن ...

يا رحمة الله للمعلمين ، لمن كان له منهم قلب ، وسلام على أيامي التي صرمتها معلماً ... وعلى كل من يقرأ هذا الفصل من زملائي وتلاميذي ، ولهم مني أوفى حبي ، وتحيات قلبي !

* * *

وقفة على طلل

نشرت سنة ١٩٤٥

(في حمى المسجد الأموي ، وفي ظلال سوره العالي، بين مثوى البطل الأجل الملك الناصر صلاح الدين والمدرسة الكلاسية الأثرية ، وبين المدرستين السميساطية والاخنائية ، تقوم المدرسة الجقمقية الخالية المائلة ـ التي بناها سنجر الهلالي ـ وجددها الملك الناصر سنة ٧٦١ هـ ثم احترقت فجددها الأمير سيف الدين جقمق فنسبت اليه) .

ما مررت بهذه المدرسة الخربة المعطلة ، وذكرت ما أودعتها من عواطفي ، وما تركت فيها من حياتي ، الا تلفت القلب ، وصغى الفؤاد ، واعتلجت في النفس خواطر ، وانبثقت للعين صور ، أقر بالعجز عن صوغها ألفاظاً مقروءة وجملاً ، ووضعها في هذه القوالب الجامدة الضيقة وهي أشد انطلاقاً من النور وأوسع من الزمان ... ولا أجد اذا أردت وصفها الا هذا الحديث المعاد ، وهذا القول المكرر المعار الذي لا يفتأ الشعراء من عهد امرىء القيس الذي وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، يعيدونه ويرددونه ، وهو ما يزال ومعناه جديد في كل قلب ، سريع الى كل لسان ـ فأسائل هذه الجدران المائلة ، وأخاطب ... هذه الغرف الخالية ... وآه ! لو تصف هذه الجدران ما رأت وتنطق الأبواب ، وآه ! لو تعي المغاني وتحدث المباني ! وأنّى ؟ ! وما وعت قلوب الناس ولا وفت حتى يفي الجماد !

هذه نفسي أسائلها : هل تعرف النفوس الوفاء ، وهي تدور مع الدهر الدوار كيفما دار ، تلبس لكل حالة لبوسها ، وتتخذ لكل يوم ميزانه . فيهون عندها اليوم ما عزّ بالامس ، ويرخص ما غلا ويغلو ما رخص ، نرى الشخص فلا نباليه ، وقبلا كان مناط حبنا ، وكنا تقنع ان كان وصله حظنا من دنيانا ، أو كان موضع اكبارنا وكان رضاه نهاية متمنانا ، ونمر بالمكان لا نلتفت اليه وفيه ذقنا حلو العيش ومره ، وفيه أثر من أنفسنا ، وفيه بقايا من أعمارنا !

لقد عشت دهراً لو قيل لي فيه ، انه سيأتي عليك يوم تجوز فيه بهذه المدرسة فلا تقف عليها الآنّ وقفة التذكر والحنين ، ثم تمضي لطيتك وتنساها بعد خطوات ، لما صدقت ! فكيف هانت عليّ هذا الهوان ، وقد كانت بالأمس نصف دنياي . وهل دنيا التلميذ الآنّ داره ومدرسته والطريق بينهما ؟ وقد كانت أبداً في فكري وحسّي : في الصباح حين أتوجه اليها ، وفي النهار حين أكون فيها ، وفي المساء حين أعود منها ، قد تجمعت فيها أفراحي كلها وأتراحي ، وأصدقائي جميعاً وأعدائي ، وكانت بضعة مني . بل كيف أنكرت ذلك الطفل الذي كان في سنة ١٩١٨ تلميذاً فيها يحمل اسمي وملامح وجهي ؟ كيف جوزت لنفسي أن أطرح آراءه ، وأهزأ بأفكاره ، وأحقر ما كان يعظمه ؟ لقد ذهب المسكين ولا أدري أين ذهب ، وجئت من بعده ، ولكني لم أنس حوادثه . فهل الذاكرة هي الشيء الفرد الذي يبقى ثابتاً في الانسان ، على حين تبدل العقول والأجسام ؟

سلوا الفلاسفة ان كان عندهم علم ، فما أنا بحمد الله من أهل الفلسفة !

* * *

سلوا الفلاسفة ودعوني أسترجع على باب هذه المدرسة أيامي التي

ولّت . ولئن عاد أقوام الى ماضيهم ليستريحوا اليه ، ويتسلوا بادّكار أحداثه ، فانما أعود الى الماضي لأحيا فيه ، وأفرّ اليه من حاضر أمقته وأجتويه . وأنارجل كلما تقدمت به السنّ ازداد ايغالا فيعزلته ، وهرباً من جماعته ، فكأنه يقطع كل يوم خيطاً من هذا الحبلالذييربط زورقه بآلاف الزوارق الصغيرة التي تمخر عباب الحياة مجتمعة ، كما كانت تجتمع السفن اذ تجوز بحر الظلمات[1] ، فلا تخوض فيه ماء بل نارا ، نارا من تحتها لا تعلم متى تنفجر فتزلزل أرض البحر وتشعل جبال الموج ، وأخرى من فوقها تحط عليها السماء رجوما ، وتفتح عليها من جهنم أبواباً ، وان عباب الحياة لأشد من ذلك شدة وأعظم هولاً .

... حتى غدوت وقد رثّ حبلي وتصرم الاّ خيوطاً ، طائفة من الأصحاب لا يبلغون عد أصابع اليدين ، وأماكن هي أقل من ذلك ، لا ألقى سواهم ولا أرتاد غيرها . ولم يبق لي في لياليّ الطوال مؤنس أو سمير ، الاّ هذه الكتب التي مللتها وملتني ، وصارت مودتها تكلفاً وحديثها مملولاً وهذا الماضي ازداد كل يوم تعلقا به وحنيناً اليه أما المستقبل فأخافه ولا أجرؤ على التفكير فيه .

لذلك تراني ان لقيت رفيقاً من رفاق الصبا استوقفته وشممته عليّ أجد في ثيابه عبقاً من أزاهير الماضي الحلو الذي سَرَبنا جميعاً ، يحملنا مرح الطفولة وعبثها اللذّ ، فجسنا خلال رياضه ، وأوغلنا في دروبه المعشبة ، ومسالكه التي فتّح على جانبيها الأقحوان وضحكت الشقائق ، أحاول أن أستطلع من وراء هذا الشباب الذي نالت منه الليالي حتى أشرف على الكهولة ، وهدته مطالب العيش وأخذت منه رواءه وبهاءه ، فبدا كالشجرة المنفردة القائمة على شفير الوادي ، عاجلها الخريف ببرده وعواصفه ... أحاول أن أرى من ورائه طلعة (ذلك) الصبي الفرح أبداً ، الضاحك اللاهي ، الذي كان رفيقي يوماً والذي أحببته

---

(1) أي أثناء الحرب العامة الثانية . وبحر الظلمات هو البحر الاطلسي .

وقاسمته مرحه ولهوه ، فاذا لم أرها ُأبتُ أجرُ رجل خائب فجع في أعزّ آماله ، وفقد أحب أمانيه الى قلبه ، وان وقفت على معهد من معاهد الصغر ، أو ملعب من ملاعب الطفولة ، فتشت في زواياه وأركانه ، وتحسست الحجارة من جدرانه ، علّي أجد بينها ذكرى حلوة قد خبأتها يوماً ونسيتها .

ولذلك وقفت اليوم على (الجقمقية) ولكني لم أجد فيها ما أريد . لقد عدا سارقان على أحلى ذكرياتي فسرقاه في غلس الليل ، كما يسرق النباشون الذهب من قبور الفراعنة ، ولم يدعا لي الاّ كل تافه حقير ، فبماذا أتحف القراء بعد الذي صنعه معي هذان اللصان : الزمان والنسيان ؟!

* * *

هذه هي المدرسة التي أودعتها عهد الطفولة وذكرياته العذاب ، لا تزال قائمة جدرانها ، ماثلاً بنيانها ، وهذه هي الطرقات التي كنت أسلكها غادياً اليها من داري ورائحاً منها اليها ، وهذا هو « الأموي » العظيم الذي كنا نعرّج عليه كل يوم بكرة وظهراً وعشياً ، وما بيننا وبينه الاّ أن نخرج من باب المدرسة فندخل من بابه ، نغافل (الحسكي) ونقفز ، فيلحقنا بعصاه ونحن نتضاحك ونروغ منه نعدو في صحن الجامع الواسع النظيف ، حتى يكل المسكين ويتعب فيدعنا مكتفياً بما تسعده به قريحته من روائع فن الهجاء ، فاذا انصرف عنا ، وذهب الحافز لنا على اللعب ، عقلنا ودخلنا نستمع الى أصحاب الحلقات فيه . هذا هو (الأموي) لا يزال على عظمته وجلاله ، لا يدانيه في وسعته وفخامته مسجد في دنيا الاسلام ، غير أن صورته في ناظري قد تبدلت وأمحت روعتها وبطل سحرها . وماذا تصنع الجدران والسقوف اذا ذهبت الوجوه ، ومضى الساكنون ، وتغيرت الروح ؟ لقد أضحى الأموي غير الأموي ،

فلا دروسه تلك الدروس ، ولا علماؤه أولئك العلماء . ولا جوّه ذلك الجو . ان المدن كالأشخاص تخلق كل يوم خلقاً جديداً . وقد ماتت دمشق التي نشأنا فيها ، دمشق الاسلامية المرحة الفاضلة التي لم يكن فيها ماخور مشهور ولا ميسر ظاهر ولا عورات باديات ، ولا حانات ولا ملهيات ، وكانت فيها المرأة لبيتها ، والرجل لأهله ، والعلماء عاملون بعلمهم ، مطاعون في أمتهم ، والحي كالبيت الواحد في تعاون أهله وتعاطفهم ، والمساجد عامرة والرجولة بادية ، وأهل الدين لا يأكلون به الدنيا ، ولا يتخذونه تجارة . فيا أسفي على دمشق التي ماتت ! ويا رحمة الله على تلك الأيام : أيام لم نكن نعرف من الدنيا الا المتع الفاضلة ، والفضائل الممتعة ، نلهو ونلعب ولكن لا كلهو فتية اليوم ولا كلعبهم . كان أقصى ما نأتيه أن نركض في الأموي ، أو ننقسم عند المساء قسمين ، فنقيم بيننا سوق حرب سلاحها المقالع والعصي ، وقد نجرح أو نكسر ، ولكننا نتعلم الرجولة والقوة ثم نرجع متفقين ، وأن نتلهى عن الدرس بقراءة قصة عنتر وحمزة البهلوان ، نتلقى منهما ما ينقصنا من علم الكر والفر والمبارزة والقتال ، وأن نمكر بالمدرسين ، وان أممنا لهواً وأردناه ، فشهود خيال الظل (كراكوز) وهو سينما تلك الأيام ، ولا يراه منا الا مقدوح في خلقه . أما التأنق والتجمل والترقق فلم نكن ندري منه شيئا . وكان من العيب في أيامنا لبس البذلات لما تصور من أعضاء الجسم ، فكنا نجيء الى المدرسة بالقنابيز (الجلابيب) ، وكنا نتعجل الشباب فنتخذ دواء (كان معروفاً) يطول به الشارب وينمو به قبل الأوان .

فأين أيامنا في هذه المدرسة ، وهل تعود هذه الأيام ؟ أين ذلك الشيخ الحبيب الى كل نفس ، الجليل في كل عين ، شيخ الشام ومعلمها ستين عاماً ، ستين عاما وهو دائب على عمله العظيم يأخذ من هذه الأمة أطفالا

صغارا ، فيردهم اليها شباباً متعلمين ، يصب من عقله الذي يزيد على البذل في أدمغتهم ، ومن ايمان في صدورهم ، فتعلم منه الولد وأبوه وجده . أي والله هذه سجلات مدرسة فسلوها تنبئكم ، ذلك هو الامام الشيخ عيد السفرجلاني .

* * *

هذه هي المدرسة ! هذا البنيان فأين السكان ؟ أين رفاقي فيها ؟ أين من كان يجمعهم مقعد واحد ، وكانوا سواء في كل شيء لا يميز أحد منهم على أحد الا بمقدار ما ينجح في درس ، أو ينال ثناء من أستاذ . وكان فلان الفقير عريف الصف والمقدّم في التلاميذ . وكان الشيخ يتخذ منه مثلا مضروبا لأبناء الأغنياء ، ويبشره بالمجد والمال والرتب ، وبأنه سيمشي على الورد المفروش حين يمشي أولئك على الشوك .

رحمك الله يا شيخنا فلقد أصبت في كل ما كنت تقول الا في هذا . تعال انظر تر الدهر قد ضرب بيننا ، ففرق الاخوان ، وشتت الخلان ، فتفرقوا في آفاق الأرض ، وانتثروا على سلم الحياة علاء وخفضاً ، وسار الأكثرون على الأشواك فدميت أقدامهم الحافية ، ومشى قوم على الورد والفل والياسمين ، وحازوا المال والمجد والرتب ، ولن أسمي لك أحداً كيلا أفجعك بآرائك وفضائلك !

لا . لا أحب أن أعود الى هذا الحاضر فدعوني أستمتع بادّكار ماضيّ كما يستمتع المنقطع في البادية بما بقي في سفرته من زاد المدينة التي خرج منها وأضاع طريق العودة اليها . اني أبصر كل ما حولي قد تغير فأنكره وأحسّ كأني صرت غريباً في وطني ، ولقد كنت أنا واخي أنور العطار لا نزال نحنّ الى الوطن ونراه في صفحة البدر عند المطار ، وفي صفحة دجلة على الجسر ، فتسيل قلوبنا رقة وشوقا ، ونحن في بغداد بلدنا وبلد اخوة لنا أعزة كرام ، وطريق الشام مفتوح ، فكيف

بمن صار يحس أن وطنه قد طواه الزمان ، واختبأ وراء السنين ولم يبق اليه من سبيل ؟

فيا أيتها المدرسة ــ خبرينا لماذا لا نستطيع أن نعود أدراجنا في طريق الزمان ، كما نملك أن نرجع في طرق الأرض ؟ لماذا لا نقدر أن نقف في الفترة السعيدة من أعمارنا ، كما يقف المسافر في البقعة الجميلة اذا جاز بها ؟

اذن لعدت أدراجي فلصرت العمر كله تلميذاً فيك ، أستمتع بجوار ذلك الشيخ النوراني ، وأعيش في جو أنيس من نصائحه ومواعظه وقصصه ، وأبقى أبداً ذلك الطفل الذي لا يدري ما الشر ، هذا ما تمنيت أن أكونه وهيهات أن تتحقق الأماني الكواذب !

* * *

اني كلما رأيت هذه المدرسة خالية خاوية خربة لا يحفل بها أحد ، ولا يذكر شيخها انسان ، أيقنت أن الجحود سجية في هؤلاء الناس . أتنسى دمشق شيخها ومعلمها الذي أحسن اليها ؟ ان هذا الشيخ لم يكن عالما مؤلفا ، ولا سياسيا حاكما ، ولا فيلسوفا مفكرا ، ولكنه بنى في نهضة دمشق ركنا لم يبن أضخم منه عالم ولا حاكم ولا فيلسوف . لقد كان معلم أولاد ولكن أولاده صاروا قادة هذا البلد . لقد أنشأ مدرسة منظمة يوم لم يكن في دمشق الا الكتاتيب . لقد كان مربياً بالفطرة لم يقرأ بستالوسي ، ولا تعلم أصول التدريس ولكنه كان أحسن مربٍ رأيته ...

... فيا أيها القراء لا تقولوا ، ومن الشيخ عيد السفرجلاني ، وما له يملأ صفحات الرسالة بأخبار نكرة في الرجال .... فكم في ظلام النسيان من عظماء حقاً ، وكم في ضياء الشهرة من أصنام قائمة نظنها ناساً ، وهي مبنية من جامد الصخر ، أو بارد النحاس !

* * *

بعد المرض

نشرت سنة ١٩٣٧

... يقولون ان الانسان يأكل ليعيش ، ولكني أعيش في هذه الأيام لآكل . آكل بشراهة ونهم ، حتى أحسّ الامتلاء ولا يبقى في المعدة مكان لذرّة ... فأدع الطعام آسفاً ، وأنظر الى الأطباق وما فيها نظرة المودّع الحزين ، ثم أقوم الى كتابي فأفتحه ، أو الى شباكي أطلّ منه ، أتلهى بهذا أو بذاك حتى أحسّ أو أتوهم أني أحسّ جوعاً ، فأدعو بالطعام ، أو تمضي ثلاث ساعات ، فآكل ولو لم أكن جائعاً ... ألم يقل لي الطبيب كلْ كلّ ثلاث ساعات ؟!

ذلك لأني لبثت عشرين يوماً أشتهي قطعة الخبز ، فأطلبها وألح في طلبها ، فتمتنع عني ، وأحرمها فأراها في منامي ، وأحلم بهـا في يقظتي تجسمها لي أمانيّ وأفكاري ، فأتخيل أني قد نلتها ، فاذا أنا لم أنل الا هذا اللبن (الحليب) الذي برمت به واجتويته ، والذي يفضل المريض رؤية عزرائيل على رؤيته يطالعه في الصباح وفي المساء ، والذي كرهت لأجله كل أبيض ، حتى بياض الفجر وبياض النحر ... والذي أصبـح قذىً في عيني لا أطيق رؤيته ، وسمّاً في فيّ لا أقدر على تذوقه ... ثم فرّج الله عني بعد الضيق وأنالني ما أشتهي من الأطعمة وأريد ، فكيف لا أهجم عليها بشراهة ونهم ، وكيف تبلغ بي الحماقة أن أقوم عن المائدة وفي الأطباق بقية ؟

* * *

لا أكاد أشبع من الطعام ولا من القـراءة ، ولا من النظر في هـذا الفضاء الفسيح ، وهذه الجنات المتسلسلة تبدو من شباكي يعانق بعضها بعضا ، حتى يستلقي آخرها في أحضـان قاسيون . لا أكاد أشبع من شيء ، لأني خرجت من هـذا المرض كمن ولد ولادة جـديدة ، فهو لا يعرف الدنيا قط وهو ينظر اليها بعيني طفل ذكي يدهشه كل شيء ويود لو يمتلكه ويأكله أو تحتويه يده ... ولأني خـرجت منه ضعيفاً مهدوداً ، ولقد كنت من قبله قوياً نشيطاً ، استحممت يوماً في البحر ، ثم خرجت منه متوثبـاً متحفزاً ، أكاد أطـير مما أحسّ في جسمي من النشاط ، فسرت على الشاطىء حتى حـاذيت الصخرة (الروشة !) ، تلك الصخرة القائمة في البحر كأنها الطاق العظيم، أو كأنها قوس نصر ، أقامه الماء الهيّن الليّن الذي انتصر بصبره وثباته في جهاده ، على هذه الصخرة العاتية المتكبرة ، فجعلها فارغة جوفاء ، ولا تزال على عتوهـا وكبرها سنة الله في المتكبرين ، لا يكونون الا فارغين ... تلك التـي يدعونها في بيروت صخرة الانتحار ، لأن المجانين أعداء أنفسهم وأوطانهم، يلقون بأنفسهم منها يثبون الى ... الى جهنم ! وكانت الشمس مائلة الى المغيب ، تمنح البحر آخر هباتها ، فيبدو براقاً لامعاً ، قد لبس حلّة من النور ، فأكبرت هذه المخلوقات : الشمس والبحر والصخر ، ووقفت صاغراً حيال عظمة الطبيعة وجلال الطابع (جلّ جلاله) ، ثم غلب عليّ هذا النشاط الذي أحسّ ، وبلغ دماغي فملأه ادعـاء وكبراً وغروراً ، والمـرء في فكره وعواطفه خاضع أبداً لحالة جسمه ، ودرجة صحته ، فرأيت هذا الصخر الى زوال قد عبث به الماء ، والماء الى ذهاب قد بخرته الشمس ، والشمس الى غيـاب قد ابتلعها البحر ، ورأيتني وحـدي الذي يبقى ، أنا الذي فتّت الصخر ، وأنا الذي أذلّ البحر ، وأنا الذي اتخذ الكون كله معمل تجارب لعقله وسخّره لمنفعته ، وأنا الذي يحوي

في صدره عالماً أكبر من هـذا العالم ، ونوراً أبهى من هذه الشمس ، وعواطف أعمق من هذا البحر ، وأرقّ من هذا الماء ، وأشد من هـذا الصخر ...

وذهبت الى المدرسة ، وأنا أقول (أنا) ، والعياذ بالله من (أنا) فانها كلمة ابليس ... ذهبت ماشياً فأكلت من فوري أكل من لبث في البحر ساعتين ، ومشى ساعة كاملة ، من (الروشة) الى الحرج ، وكانت سكرة النشاط ، ونشوة (أنا) لا تزال ضاربة في رأسي ، فذهبت مع الطلاب أمشي وأعدو وأثب ، وأفعل كل ما لا يفعل عاقل ، ولم أعد الى المدرسة الا غارقاً في العرق فشربت قازوزتين[1] مثلجتين من (القازوز) وصارعت ... واغتسلت بالماء البارد ، ونمت فأصبحت مريضاً !

* * *

يا لهذا المغرور الأحمق الذي أصاب ذرة من العلم ، وعبث بالكون عبث الوليد ، يرفع ويضع فلم يعد يرضيه الا أن يدّعي الألوهية ، أو (يؤلّه هذا العلم) ... يا لهذه القوة الكاذبة ، وهذه السطوة الفارغة ، هذا القويّ الجبار الذي فتت الصخر ، وأذلّ البحر ، يذله مخلوق من أصغر مخلوقات الله ، لا تراه لهوانه العين ، يعيش الملايين منه في قطرة ماء ، مخلوق واحد من أضعف المخلوقات يلقي الانسان محطوماً ، ويطيّر هذه الأفكار كلها من رأسه حتى يعود ذليلاً خانعاً ... فكيف ويحك لو أصابك الله بعذاب من عنده ؟ يا للأحمق المغرور !

* * *

أصبحت فاذا أنا قد نسيت أفكار الأمس ، ونسيت الأمس كله ، وأحسست بالبعد عن الدنيا التي آلفها وأحبها . ولقد انقطعنا مرة في قلب جزيرة العرب ، وتهنا في رمالها الموحشة سبعة عشر يوماً نسير وراء

(١) القازوزة . القارورة الصغيرة

حدود العالم مع الوحش والآكام ، والشمس والعطش والموت ، فما أحسست بأني بعيد عن الدنيا ولا بلغ بي ذلك كله ما بلغ بي هذا المرض القصير ••• لقد أصبحت بلا ماض ولا مستقبل ولا حاضر الا هذا الحاضر الضيق الأليم الذي يستقر في بطني حيث (الزائدة) الملتهبة ، وفي خاصرتي حيث الرمل في الكلية • اصطلحت عليّ العلل ، واجتمعت المتناقضات ، فالالتهاب لا يطفئه الا كيس الثلج ، ونوبة الرمل لايصلحها الا الماء الحار ، فان داويت هذه زدت تلك ، وان عالجت تلك انتقضت هذه •••

* * *

أنساني المرض كل شيء ، حتى ما أذكر أني كنت يوماً من الأيام أمشي وآكل وأشرب وأقرأ وأكتب وأمارس أنواعاً من الرياضة ، ولا أذكر أني كنت أستطيع التفكير في آلاف المسائل وأعالج المئات من الأمور ، وماتت الدنيا في عيني ، وأصبح هذا الألم دنياي كلها ، فأنا أطلق الفكر من عنانه ، فلا يخرج عنه ، ولا يجول الا فيه ، يتخيل أبشع أنواع المرض ، وأفظع ألوان الخطر ، ثم ينطلق الفكر الى العملية التي أكد الأطباء أنه لا بد منها ، فلا يكاد يشرع في تصورها حتى تسود الحياة في عيني ، وأراها كلها ألماً وشراً ، وأتمنى أن لو كان أبي على مذهب المعري ، أو لو أن أمي لم تلدني ••• ويوسوس لي الشيطان أن ما حق أبيك في أن يقضي عليك فيجيء بك ، أليست حياتك متعلقة بك وحدك ؟ فهل استشارك فيها ، أو هو قد ضحى بك وبحريتك وسعادتك في سبيل لذته ، أو هو لم يفكر فيك أبداً ، ولم تخطر له على بال ؟••• فأرى الشيطان يريد أن يزيدني على مرض جسمي مرض ديني ، فألعن

الشيطان وما جاء به ، وان مما يجيء به الشيطان لما يسمونه فناً وابتكاراً وتجديداً ، ولكنه يبقى أبداً فناً شيطانياً ... أدع هذا وأعود بفكري الى سرير العمليات الذي حملني اليه المدير مرة ووكل بي الممرضات ، وأقام عليّ طالبين يحرسانني ، وذهب الى الطبيب يحضره فوثبت أحمل أوجاعي وأناضل دون حريتي حتى بلغت الشارع حافيا ، وركبت الى الكلية أول سيارة رأيتها وأنجاني الله من العملية والأطباء . والأطباء — والرجاء عدم المؤاخذة — قوم برئوا من العاطفة وانبتوا من الشفقة يشقون بطون النـــاس — نسأل الله السلامة — ويخرجون أمعـــاءهم فيضعونها في طبق ... ويكسرون جماجم البشر ، ويعبثون في أدمغتهم ويفعلون ما لو فعله غيرهم للحقه الشرط ، واصطف له القضاة ، وفتحت له أبواب السجون ، وأعدت له حبال المشانق ، ثم يتصدرون المجالس يفتخرون بأنهم أصدقاء الانسانية ... أفأعطيهم بطني ليشقوه ، ويردوني مريضاً بعد اذ أنا معافى وأتعجل الداء بنفسي ؟ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

* * *

لم يكن يفــزعني شيء وأنا مريض مثل ما يفزعني الليـــل بسواده وامتداده . كنت أخافه أشد الخوف ، وأحسب لمجيئه الدقائق والثواني ، وأرقبه كما يرقب المحكوم ساعة القتل ، ذلك أني لم أكن أستطيع النوم ولا أطيق الجلوس ، وانما أستطيع أمراً واحـــداً ، هو الاضطجاع على قفاي أحدّق في السقف ليلاً ونهاراً ... ولطالما رأيت في السقف بقعة سوداء ، فخيل اليّ لطول التحديق فيها ، أنها حية تريد أن تنقضّ عليّ أو رتيلاء كبيرة ذات تسع وتسعين رجلاً وعشرة رؤوس ، أو مجموعة

من العقارب أو عفريت من الجن ، أو جني من العفاريت ، فأصيح فزعاً وأنطلق أهذي هذيان محموم حرارته أربعون ...

اني لأضحك الآن ، وأكركر من الضحك حين يعيدون عليّ ما كانوا يسمعون مني اذ أهذي ، وأرى فيه صورة واضحة لكثير مما نقرأ في الصحف والمجلات ينشره أصحابه على أنه أدب ، ويقرؤه الناس على أنه ثرثرة وهذيان محموم !

وكان أحبّ شيء اليّ وأنا مريض أن يكثر الناس من حولي ، ثم يتحدثوا شتى الأحاديث لأخلص من وحدتي وأتسلى عن ألمي وأذكر جانباً مما في الحياة ... ولكني كنت أسمع أصواتهم كأنها خارجة من جوف بئر سحيق ، أو أعماق مغارة بعيدة ، وأراهم من خلال ضباب كثيف ، فلا أتبين صورهم ولا أصواتهم ، وسرعان ما أملّ منهم وأطلب جديداً . كانت أيامي متشابهة متشاكلة ، فكنت أحب أن أجد كل لحظة شيئاً جديداً .

ضعفت قواي وضاعت ارادتي ولم يبق لي طاقة على المشي ، ولا قدرة على المحاكمة العقلية ، ولم يبق حياً فيّ الا لساني ... أكل ذلك لأن جرثومة صغيرة دخلت جسمي ...؟ يا لضعف هذا الانسان القويّ !

* * *

تألمت في هذا المرض لكني تعلمت . تعلمت في الحياة درساً جديداً ، وما الحياة الاّ دروس ... هو أن المرض نعمة ليس بنقمة ، وأنه لازم للانسان لا يدرك قيمة الصحة ولا يعرف معنى الحياة ولا يرجع الى نفسه الاّ اذا مرض ، هنالك يدرك معاني هذه الأشياء التي يمرّ بها وهو صحيح مراً سريعاً لأنه مشغول عنها بما لا نهاية له من الصغائر والترهات ، وان للمريض — قبل لذّة الصحة — لذتين ، لذة هذا العطف

الذي يحاط به والحب الذي يغمره ، ولن أنسى أبداً عطف مدير الكلية وناظرها عليّ وحبّ الطلاب اياي واني لأسيغ ذكرى الألم اذا تصوّرت هـذين الطالبين اللذين كانا يقيمان الليـل كله بجانبي ، اذا قلت آه أو انقلبت من جنب الى جنب كانا واقفين أمامي • آثراني على أهلهما وفضّلا راحتي على راحتهما ، أما عطف اخوتي وأهلي فلست أذكره •

ولذة أخرى ، وهي اللذة الكبرى التي يجدها ساعة يلجأ الى الله ، ويدعوه مخلصاً مضطراً ، وكنت اذا وصف لي مريض به مثل مـا بي اليوم ، يُدار بي من الرثاء له ، والخوف مما هو فيه فلما غدوت مريضاً ، لم أجزع ولم أخف ، وكانت تمر بي لحظات أضيق فيها بهذا القيد الى السرير وهذا الألم ، ويبلغ بي الضيق في الليـل أقصاه ، ولكنها كانت تمر بي لحظات كنت أرضى فيها كل الرضى ، وأفيء فيهـا الى ربي ، وأرى ما أنا فيه امتحاناً لصبري ، ونعمة من الله تزيد في أجري ، فأطمئن ويبلغ بي الأمـر الى أكثر من الاطمئنان الى نوع من اللذة الخـالصة لا أشعر بمثلها في الصحة ، والى لون من النشاط القلبي لا أعرفـه قط وأنا معافى ، وأحسب أن لو أصبت بأشد الأمراض وأقواها ، وأنا أقدر على هذا الرضا ، وأحس هذا الاطمئنان لما وجدت فيه الاّ لذة • هذا ما كنت أجده لا أبالغ ولا أتخيل ، فأرجو أن يصدقني القراء ، وهـذه نعمة من نعم الله الخفية على الانسان ، ومظهر من مظاهر القوة الهائلة التي أعطاه ، فلا يحكم الانسان على المريض أو البائس بظاهره ، فيشك في عـدل الله ورحمته ، ولكن ليدخل الى الداخل ، لعـل وراء الجدار الخرب قصراً عامراً ، ولعل خلف البـاب الضخم كوخاً خرباً ، ولعل في هذه الثياب الرثة ، وهـذا الجسم الممزّق البالي نفساً مشرقة سعيدة وانساناً كاملا •

* * *

وتعلمت من المرض أن المساواة التامة هي سنة الله في الحياة • أنظروا المرض هل يعرف غنياً أو فقيراً ؟ هل يمتنع منه الملك الجبار رب القصر والحراس ؟ وهل تمنع أبوابه وجنده هذا المخلوق التافه الصغير من الدخول ؟ سد الأبواب ، وأغلق النوافذ ، وأقم الجند بالسلاح ، وعش في صندوق مغلق ، انه يدخل مع الهواء الذي تنشقه ، والماء الذي تشربه ، والطعام الذي تأكله ، ويحتل جسمك ، ويعيش في عينك وفمك ، ويسبح في دمك •

ترفع عن المساكين ، وتكبر على الفقراء يرجعك المرض الى صفوف المساكين والفقراء ، فتألم كما يألمون ، وتصيح مثل ما يصيحون ، وكل ما في الحياة يسوّي بينك وبينهم ، هل تنشق أيها الغني من الهواء هواء معطراً ، وينشقه الفقير بغير عطر ، أم ان الهواء وهو قوام الحياة لك وله ، قد سوى فيه بينك وبينه ؟ هل تشرب ماء العيون معسولة مذاباً فيها السكر ، ويأخذها الفقير ملحاً أجاجاً •• ان الهواء والماء والشمس والقمر والصحة والمرض والولادة والموت كل أولئك سطور خطّ فيها الله على صفحة الحياة ان الناس متساوون • هل سمعتم أن ابن الملك يولد اذ يولد مرتدياً الحرير ، يمشي على رجليه الى سريره ويلقي بنفسه خطبة ميلاده ، ويشرف من شباكه على شعبه ، وابن السوقي يولد أخرس عارياً ؟ افتحوا القبر المجصص الفخم ، وارفعوا ما فوقه من نصب وتماثيل وكتابات ونقوش هل تجدون فيه عظاماً تضوع بالمسك ، وتفوح بالندّ ، لأنها كانت تلبس الحرير ، وترتدي الديباج ؟

هذا ما تعلمته من المرض !

* * *

وبعد ، فلقد أطلت الكلام ، وآن أوان الطعام ، ولا بد من قطع هذا الحديث ! وأنا أحمد الله على الصحة والمرض ، وأحمده على كل حال •

* * *

من التّعليم الى القضاء

نشرت سنة ١٩٤١

يسألني كثير من الاخوان ، كيف وجدت القضاء ؟ اني وجدت القضاء راحة جسم وتعب بال ، وعلو منزلة وقلة مال ، واكتساب علم وازدياد أعداء ، وحملاً كبيراً نسأل الله السلامة من سوء عاقبته :

أما أنه (راحة جسم) فذلك أني كنت في التعليم أتكلم ولا أسمع ، فصرت الآن أسمع أكثر مما أتكلم • وكنت لا أقدر على السكوت لأني ان سكت تكلم العفاريت (أعني التلاميذ) ، حتى أنه ربما أصابني أحياناً أذى في حلقي فجعلني أغص بالماء الزلال ، وأشرق بالريق ، وأجد للكلمة الواحدة انطلق بها مثل حزة السكين ، ثم لا أستطيع الصمت دقيقة لئلا يفلت من يدي طرف السلكة فينفرط العقد ويبطل النظام • وكنت أدخل الصف (الفصل) وأخرج منه خمس مرات أو ستاً في اليوم ولا أقعد على كرسي لئلا يرى الشيطان مني غفلة فيعطس في مناخر التلاميذ فيحدثوا في الفصل حدثاً ، وياما أكثر أحداثهم ! وأيسرها ضجة كضجة حمَّام انقطع ماؤه كما يقول الشاميون في أمثالهم العامية • ثم اذا خرجت من الصف لأستريح راحة ما بين الدرسين (الحصتين) لحقني طائفة من الطلاب يسألونني فأقف لهم حتى ينفخ اسرافيل المدرسة في صوره ، فيحشر الطلاب والمدرسون الى نار العمل • فأصل آخر النهار بأوله وأنا قائم

على أمشاط رجليّ ولساني لا يكف عن الدوران في فمي ... فغدوت الآن ولا عمل لي الا القعود على كرسي القضاء أقول الكلمة بعد الكلمة وأسمع سيلاً من الكلام مما له موضع أو ليس له مكان ، والا كتابة القرارات (أي السجلات في عرف الفقهاء) ، وقد كفاني الكاتب (أحمد) الله فعاله كل ما سوى ذلك من الأعمال ، وما ينغص عليّ هذه الراحة الا خشية ثقل اللسان من كثرة الصمت فلا ينطلق بعد كما كان ينطلق ، وان كان ذلك نعمة ترجى ، وان كان لساني هو مصدر أذاي ومن الخير لي أن يثقل أو يكلّ .

أما (تعب البال) فلأني أحمل على عاتقي حقوق الناس ، وأحكم في الأعراض وهي (لعمر أهل المروءة) أثمن من المال وأغلى ، فاذا قمت أو قعدت لم أزل مفكراً في هذه القضية وتلك الدعوى ، لا لصعوبة فيها أو تعقيد ، فطريق القانون واضح لمن كان أكبر همه ظاهر القانون ، وكان دينه عبادة حروفه ، بل لأنفذ من خلال الفكر الى مقصد القوانين وهو اقامة العدل . فأنا أفكر لأعرف المحق من المبطل ، وأنضو عن المتقاضين ثياب التصنع والرياء لتبدو حقائقهم عارية ، وما ذلك بالأمر اليسير ولا المطلب الهيّن ، واذا كنت قد وصلت مرة بالفراسة في لحظة خاطفة الى ما لا يوصل اليه بمرافعة شهود فذلك من فضل الله ، بيد أنه لا يدوم ، ولا بد من الرجوع الى الحكم بالشهادات التي قد يعلم القاضي أنها شهادات الزور ، وأن الشهود فسّاق لا عدالة لهم ولا تقبل من مثلهم شهادة[1] ، وكانت القرائن تقطع بكذبها — والقرائن والأمارات من أسباب الحكم — كما بيّن ذلك ابن قيم المدرسة الجوزية في كتابه الجليل

---

(١) وقد صدر قانون البينات بعد كتابة هذا المقال فجعل للقاضي قبول الشهادة أو ردّها .

الطرق الحكمية ، ولكن لا سبيل لنا الى الأخذ بهـا الا ّ أن تنظر وزارة العدل في دمشق في الاقتراح الذي رفعته اليها في هـذا الموضوع ، وتتخذه أساساً لاصلاح شامل ، يخلص الناس من شهود الزور ، الذين صارت لهم جماعات ومراتب وأجور مسعَّرة ، ودخل فيهم من يعتقـد الناظر اليه أنه من الأولياء ، ويجده مباحثه من العلماء ، وهذا شر استطار شرره ، وعمّ الأنام خبره ، وشملهم ضرره ـ فكيف يهدأ بال من يغلب على ظنه أو هو يعلم فساد البيِّنة ثم يضطر الى الحكم بها ؟

هذا وقد نجاني الله بما ركب في طبعي من الحدة في الخلق ، والشدة في الحق من منغصات القضاء ، من الوساطات والالتماسات والهدايـا والرشوات والولائم والدعوات ، وسلمني من ذلك كله أني لا أعرف في الحق لطفاً ولا مجاملة ولا خجلاً ولا فرقاً وأرجو دوام ذلك .

أما (علو المنزلة) فلأن لاسم القاضي دون الحاكم المدني وان علت رتبته وزادت وظيفته ، له في الأسماع رنة اكبار ، وفي القلوب صورة اعظام ، وله هيبة وله جلال ، خلع ذلك المجد عليه أولئك الأبطال نجوم فلك العدل ، ودراريه الهاديات ، أفذاذ الدهر وأبكار الزمـان ، الذين يحق لنا أن نفاخر بهم أمم الانس والجن ، وأن نجعل قضاءنا بهم أول ما نعقد عليه الخناصر اذا عددنا المفاخر ، وما زال قضاء كل أمـة أول مفاخرها ، قضاتنا الأولون ُشريح و ِاياس وشريك وأبو يوسف والعز بن عبد السلام ومنذر بن سعيد ومن أذكر الآن ومن لا أذكر ممن يقصر عنه العد ، ويضيق الحصر .

ولو لا أني عامل على تأليف محاضرة وافية بهذا الغرض ولا يجمل بي اذاعتها بالنشر قبل نشرها بالتلاوة ، لأفضت في هذا الموضوع افاضة من وجد مجال القول واسعاً ، والمقول جديداً مسعفاً ، والسامع مصغياً متشوقاً متلهفاً ـ لذلك يعظم الناس اسم القاضي ، لأنهم يذكرون بـه

هؤلاء وأمثالهم ، وعهداً رحم الله ذلك العهد ، كان فيه القاضي قاضياًفي كل خصومة بشرع الله ، حاكماً بما أنزل . لم يكن المسلمون يهجرونفيه جواهرهم ولآلئهم لخزيفات يستجدونها من أيد أشحة بها لأنها لا تملك غيرها ، ولا يدعون شرع أحكم الحاكمين لشرع بشر من ماء وطين ، وكان من مشاغل علمائهم البحث في الحسن والقبح هل هما شرعيان أو عقليان وكثر في ذلك الكلام ، فلما صرنا الى هذه الأيام ذهب ذلك الخصام وحل مكانه الوئام ، واصطلح أهل عصرنا من الناشئة والشبان على أن الحسن ما حسنه (أولئك ...) والقبح ما قبحوه ، وارتضينا كلنا هذه النتيجة التي انتهينا اليها ، وصممنا الوقوف عليها ، وسكن الجدال فلا قيل ولا قال ، وكفى الله (المؤمنين) القتال ، والحمد لله على (كل) حال .

وأما (قلة المال) فلأن أجر القاضي الشرعي في بلادنا أي مرتبه قليل قليل ، وهو أدنى من سائر الحكام المدنيين ، مع أنه يشترط فيه اجازة (ليسانس) الحقوق ، والفوز في الامتحان المسلكي ، وسبق الاشتغال مدة في المحاماة ... وهذا حديث له مكان آخر .

وأما (اكتساب العلم) فهو النعمة المفردة بين نقم القضاء المتعددة ، اللّهم بعد نعمة الثواب اذا كان الله يكتبه لمقصر مثلي لا يستحقه بعمله ولم تصف له نيته ولم يتجرد بعد عن حب الشهرة والجاه ، وان ضعفت رغبته فيهما وهانا عليه — ان المطالعة هي نعمة هذه المحنة في المهنة ، ولقد كنت ُأطالع دائماً وأنا معلم ، بل اني لا أعرف أنه مرّ عليّ يوم واحد منذ عقلت الى اليوم لم أقرأ فيه شيئاً ، غير أني استفدت من القضاء الأنس بكتب الفقه والاستمتاع بها مثل استمتاعي بكتب الأدب أو قريباً منه . وعندي مجموعة منها صالحة اذا أنا استمررت على النظر فيها رجوت أن أكون يوماً من الأيام من أوعية هذا العلم . ذلك لأني أدأب على القراءة

ولا يمنعني من السؤل عما لا أعرف حياء ولا كبر ، ولأن لي بحمد الله ذاكرة لا تمسك النصوص بحروفها ولا الأرقام ولا الأبيات ، غير أنها في حفظ المسائل ومواطن وجودها من العجائب . وما أعهد أني نسيت مسألة قرأتها أو سمعتها ، وما أعهد أني تعرفت بانسان وحفظت اسمه الا بعد المخالطة الشديدة الزمن الأطول ، ثم اني أنسى اسمه اذا فارقته مع أني لا أنسى الوجه ولو رأيته مرة واحدة ، ولا أعرف تعليل هذا الأمر .

وأما (ازدياد أعداء) القاضي العادل القائم باحقاق الحق ، والموظف النزيه المستقيم ، فشيء مشاهد مسلّم به لا يحتاج الى بيان . واذا كان قد روي عن أبي ذر أنه قال (كلمة الحق ما تركت لي صاحباً) وذلك على عهد الصحابة وفي أفضل القرون ، فما بالك بعصرنا ؟ وماذا يقول القاضي وما قضية تعرض عليه الا وفيها اثنان يقضي لأحدهما على الآخر ، فمن قضى عليه جعله عدواً له ما عدا النادر الأندر من الناس الذي يرضى بالحق ولو كان على نفسه . وأكبر المصيبة أنه قد يكون المبطل المقضى عليه ، أو الشفيع المردودة شفاعته كبيراً في قومه ، وجيهاً في بلده ، فاذا ألزمته ما يلزمه شرعاً أثار عليك الشعب والحكومة ، وافترى عليك الفِرَى ، وأساء فيك رأي رؤسائك فآذوك وضروك وأخروا ترفيعك . والمعروف عند أولي الأمر أن الموظف الصالح هو الذي لا يسخط عليه أحداً ولا يثير مشكلة ، ولا يكون ذلك لقاض عادل وموظف نزيه ، وانما يكون لمنافق في جيبه ألف وجه في كل وجه مائة لسان ، يقابل كلاً بالوجه الذي يحبه ، ويخاطبه باللسان الذي يرضيه .

وخلاصة القول أن القضاء (حمل ثقيل) وهم طويل ، ولو أن الله أغناني عنه وكتب لي أن أعيش بقلمي ومؤلفاتي ، أو لو أني رزقت مرتبة أهل الورع لما أقدمت عليه ولآثرت التعليم فهو أسلم ، ولكني وقعت والله لا يكلف نفساً الا وسعها . وان وسعي وغاية جهدي العزم الصحيح

وبالله التوفيق على أن لا أحكم في قضية ما لم أعرف حكم الشرع فيها على مقدار طاقتي فأسير عليه ، وأن لا أتعمد الزيغ والظلم تعمداً ، ولا أنوي الميل مع أحد الخصمين ، وأن لا تأخذني في الحق رغبة صديق ولا رهبة ذي سلطان . أما الخطأ فلا أملك دفعه الا بالانتباه ، أما الجهل فلا أقدر معه الا على التعلم والسؤال .

هذا وقد فسروا حديث القاضي والقاضيين أن القاضيين اللذين في النار هما قاض يقضي بالجور وقاض يقضي بالجهل . ونحن نسأل الله لنا ولكل محب للحق أن يوفقنا الى اتباع الحق ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ويرزقنا العمل بما علمنا ويزيدنا علماً .



أنا والقلم

نشرت سنة ١٩٤٠

(بين يدي الآن رسائل من بيروت وحمص وبغداد والاسكندرية وأم درمان من اخوان كرام ما كان لي شرف الاتصال بهم ، كلهم يسائلني لم لا أكتب في الرسالة في هذه الأيام ، ويشفق أن تكون الأرزاء قد هدت ركني وكسرت قناتي ... فكتبت هذا الفصل هدية اليهم وجواباً) .

« ع »

أعترف أنها قد جفَّت قريحتي فما تبضُّ بقطرة ، وكلَّ ذهني ، ومات خيالي ، ومرّت عليَّ أيام طوال لم أستطع أن أخط فيها حرفاً ، وعدت من العيِّ والحصر كأول عهدي بصناعة الانشاء ، وأصبحت وكأني لم أكن حليف القلم وصديق الصحف ، وكأني لم أجر للبلاغة في مضمار... وما أدري أأبرأني الله من حرفة الأدب التي ابتلاني بها وابتلاها بي ، أم هي سكتة عارضة وعُقلة مؤقتة ، كالذي يعرض للشعراء والكتاب ، ثم تزول السكتة وينطلق اللسان ، ويعود أحدٌ مما كان ؟. وما أدري أعلّة ذلك الزواج ، وقد قالوا أن زواج الأديب يؤذيه وتغور منه ينابيع فكره ، أم هي الرزايا والآلام ، وما يغيظ الأديب من انحراف الأمور عن صراطها ، وتقدم من حقه التأخر ، وتأخر من يستأهل التقدم ، وضياع الحقوق وغلبة الجهال ، أم هذه العزلة الحسية والروحية التي أبت اليها

طوعاً أو كرهاً ، فجعلت حياتي كالبركة الساكنة ، لا يسقط فيها حجر فيثير أوحالها ويخرج دررها ؟

اني كلما أخذت القلم لأكتب ، أحسست أنه يحرن ولا يملكني زمامه ، وأنه يستعصي عليّ ويستعصم مني ، وأجدني أميل الى مطالعة كتاب ، أو النظر في صحيفة . فأقبل على القراءة ، وأعوض على ذهني ما فاته منها في هذا الزمن الطويل ، واني لا أزال أحتاج الى تعلم كثير مما أجهل ، ولا يزال في الكتب ما لا أستوعبه في شهرين أو ثلاثة ، ولست قائلاً مقالة ذلك الدعيّ الذي زعم أنه قرأ ديوان الفرزدق في خمسة عشر يوماً ، ولا والله ما يفهم قصيدة منه واحدة في شهر ... ولا الذي ظن أنه علم كل شيء حتى ما يسائل واحداً عن علم مسألة لكي يزدادها ! فأسلمتني المطالعة الى الزهد في الانشاء ، ومال بي الزهد الى ايثار الدعة وابتغاء السلامة ومحبة الخمول ، بعد الرغبة في الذكر ، فسبحان مقلّب القلوب ...

ولقد كنت أشكو الغربة وأضيق بها ، فصرت أشكو فقدها . ويا حبذا الغربة ، وأنعم بها مثيراً للشعور ، موقظاً للهمم . كنت أتألم منها فأصف ألمي ، وأشتاق فأصور شوقي ، وأرى فيها جديداً فأتنبه اليه ، فأكتب فيه ، فرجعت أمرّ على المشاهد غافلاً عنها لأني آلفها كلها وأعرفها ، ورجعت لا آلم ولا أسر ، ولا أقول اني راض ولا مبتئس ــ وهذا لعمري شرّ ما يمر على الأديب من الأحوال ، وهذا هو الموت ... ولربما شغلني سفساف الأمور ، وأضاع عليّ الكثير من وقتي . وهل ينفع القراء أن يعلموا أن عملي منذ شهر الطواف في أحياء دمشق من شرقها الى المغرب ، ومن شمالها الى القبلة ، أفتش عن دار أستعيض بها عن داري (في الجادة الخامسة) ، لأن حماقة صاحبها كرهت الي جمال مستشرفها ، وطيب

موقعها ... وأن أعصابي في ثورة دائمة ، عفت معها الحياة ، من صبية عشرة ــ أحياهم الله لأبويهم ــ يسكنون الطبقة التي تحتنا ، لا يهدؤون لحظة ولا يسكنون ولا يفترون عن بكاء أو صياح أو غناء ، أو قرع باب أو كسر شباك ، وقلبي يخفق وأعصابي تتمزق ، ولا انتفع من نفسي بشيء وان شكوت الى أحد سخر مني وضحك عليّ . فليتصور القراء مبلغ ما أجد من الضيق والأذى ، فيا ليت أني لم أعط ملكة الكتابة ، أو ليتني اذ أعطيتها عرفت كيف أستفيد منها ، فما شيء أصعب على الرجل من أن يريد ولا يقدر أو يقدر ولا يريد .

وليثق القراء أن يوماً يمرّ عليّ لا أكتب فيه شيئاً أو أعد في نفسي شيئاً لأكتبه لهو يوم بؤس عليّ لا يوم نعيم ، وأن أول ما أفكر فيه اذا سرني أمر أو ساءني ، أو أعجبني أو راعني ، كيف أصوره وأعرض على الناس صورته كي أنقل اليهم شعوري ، وأقاسمهم عواطفي ، لا أفعل ذلك للشهرة والمجد الأدبي ، ولا للنفع ولا للضرر ، فقد بلغت من الشهرة ما يصح الوقوف عليه لو كانت الشهرة أكبر همي ، ولكني رغبت عنها لأني وجدت ما نلت منها لم يُنلني خيراً قط . ثم انه ليس بين الرجل وبين أن يشتهر في بلادنا بصفة الأدب الا ّ أن يكتب فصلاً أو فصلين ، فاذا هو ومن ملأ الأسماع أدباً حقاً وبلاغة باقية سواء ، ولكني أكتب ــ علم الله ــ لأدفع عن نفسي الملل وما يصيبها من الألم اذا أنا لم أكتب ، فكأنني أعمل بالغريزة التي تدفع النحل الى اتخاذ العسل والعقارب الى نفث السم ، وكل حي من الحيوان الى ما سخر له من نفع أو ضرر . ولا أعلم أأحسن أو أسيء ، ومتى يكون الاحسان وكيف يجيء ، وكل ما أعلم أن فكرة تخطر على بالي تأتي بها نظرة أو سمعة ، فتنمو فيها حتى تملأ ذهني وتسيطر عليّ ، فلا أملك عن تدوينها تأخراً ، فآخذ القلم فاذا هي تجر وراءها أخوات لها ، واذا أنا أمضي في الكتابة لا أكف حتى يكون

القلم هو الذي يقف ، ثم أبعث بذلك الى المجلة أو الجريدة ، فاذا أبطأت بنشره أو أهملته سخطت وثرت ، وان نشرته فرحت به وقرأته مستمتعاً ، فاذا مضى عليه يوم عدت اليه فرأيت عيوبه . فقلت ليتني نقصت من هنا وزدت من هناك ، وحذفت هذا أو أثبت ذاك ... ثم لا يمنعني ذلك أن أعود الى خلتي من الاسراع كرة اخرى . ولقد حاولت التنقيح والصناعة مرة فأفسدت من حيث توهمت الاصلاح ، فعدت الى طبعي . فاذا كان في الناس من يعجبه ما أكتب فالحمد لله .

وما سكت لقلة في الموضوعات ، ولكن لجفاف في القريحة . ولو كان بي أن أكتب لوجدت في كل شيء موضوعاً لفصل ، غير أنه لابد من العاطفة والفن ، ولو كان الأدب الواقعي أن تسرد كل ما (وقع) لك لكان الناس كلهم أدباء ، ولكن الأدب الواقعي أن تأتي بالصورة الجميلة ، قد صقلها الطبع وبرقشها الخيال ، وزانتها العبارة الصحيحة ، والسبك الدقيق ، لكنك لا تخرج فيها عما (يمكن أن) يقع .

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في وصف هذا الفتى الذي صحبنا في لجنة من لجان الامتحان كان فيها الاستاذ الشيخ بهجة البيطار ليصحح معنا أجوبة التلاميذ ، فكان كلما وجد استعارة أو مجازاً خط تحته خطاً ، وكلما وجد مترادفاً من اللفظ أو مزدوجاً من الجمل مدّ مدّة فوقه ، ثم نقص عليه من درجات التلاميذ درجة . فحاورناه في ذلك فكان من رأيه الذي تعلّمه في باريز وعلّمه التلاميذ الذين جعلوه معلمهم ، ان المذهب الجديد ينكر ذلك ويعده غلطاً ، وكانت حجته القاطعة على صحة رأيه أنه رأيه . وبذلك دفع كل ما ردّ به عليه الشيخ ، وما بيّن له من سنن العرب في كلامها ، وما جرى عليه بلغاؤها وما نزل به الكتاب ، ومال ناظر المدرسة الى (رأيه) لأنه هو وحده بيننا الذي يحمل شهادة التخصص في اللغة العربية من ... باريز !

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في التعليق على الامتحانات وما يكون فيها من الوساطات والشفاعات والالتماسات وما نالني منها ، وكم أبصرت في داري من وجوه ما كانت لتكون فيها ، لولا الحاجة ... وطلب (الشفاعات) ... وما يحيق بالمدرس المستقيم الشريف من عنت ومشقة ، وما يقال عنه وما يلقى ... وما يتخذ التلميذ من طرق الغش والحيل ، فاذا أظهرتها وعاقبته عليها زعم أنك ظلمته ، وتمسكن وجعل نفسه ضحية فأثار عليك الناس ، أو (تنمرد) واستكبر فبطش بك ، أو شتمك أو وكل بك من يقوم بـ (الواجب) !

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في تاريخ الأدب فصلاً أجعل اهداءه للدكتور فلان ليرى أن الله لا يستحيل عليه أن يمنح ملكة الأدب من لا يحمل شهادة اختصاص فيه ... وأن الشهادة بلا علم ليست دائماً أفضل من العلم بلا شهادة ...

ولو أسعدتني القريحة لوصفت هذا المشهد الذي يملأ النفس ألماً ، ويفجر القلب أسى ، منظر زميلنا المعلم الشاب (مصطفى شكري خسرو) الذي كان موعد زفافه اليوم ، وكان صحيحاً معافى ، فرئي اليوم نعشه يمشي الى المقبرة وعليه غطاء سرير العرس ووقفت زوجته التي كانت ترقب الزفاف ، تشهد الدفن .

مثل هذا الموضوع ينشد الأديب ويبتغي ، انه ينشد لحظات الاشراق والتجلي ، اذ يحس بأنه خرج من ذاته ، فدخلتها روح أخرى ، فطارت به الى الملأ الأعلى ، فأرته ما لا تراه عين ، ولا تحيط بوصفه لغة بشر ، وانما يصور باشارات ورموز ترفع قارئيها الى هذا العالم النوراني العجيب .

* * *

أما المشفقون عليّ ، الخائفون أن تلوي الحادثات قناتي ، وتهد

ركني ، فليعلموا أني في أمان ، وأن رسالة الأديب أن يطاعن عن الحق ويناضل حتى تعلو كلمته ، أو يصرع دونه ، ولينظروا أيهما أسير في الناس وأشهر ، أورقة الشهادة الناطقة بفضل صاحبها ، أم مجلة يكتب فيها الأديب فيقرؤها مائة ألف ؟ وأيهما أقوى وأمتن ، أهذا القلم الدقيق أم أرجل الكراسي التي يثبت عليها (أولئك) ويعلون بها ؟ وأيهما أحد وأمضى ، ألسان البليغ المفوه أم ألسنة ببغاوات الليسانس والدكتوراه؟

ان لكل أديب رسالة ، فليقوّنا الله على تأدية الرسالة .



على عتبة الأربعين

نشرت سنة ١٩٤٨

نزعت رجلي من الركاب ، وطردت من ذهني همّ السفر ، ونفضت ما علق بذاكرتي من غبار الحاضر ، ثم نفذت الى مــا احتوت من كنوز الماضي ، من معجزات البطولة والنبل ، من تاريخنا الواقع ، الذي لا يصل اليه خيال غيرنا ، ولا يتعلق به وهمهم ، وحاولت أن أكتب للعدد الممتاز من الرسالة فما سرت في الفصل غير بعيد ، حتى تباطأ قلمي ، ثم تعثر ، ثم توقف ... وأحسست في نفسي بهذا الضيق الذي ما انفك يلازمني منذ أكثر من عشر سنين ، فيطفيء وقدة حماستي ، ويعقل نشاطي ، ويغلق أبواب الالهام دوني ، فلا أكتب ما أكتب الاّ لملء الفراغ ، وتزجية الوقت ، كالذي يمشي العشية يجر نفسه جراً ، لا يسوقه مقصد ، ولا تجذبه غاية ...

ونظرت فاذا أنا بعد شهرين ، أتم الأربعين ، أربعين سنة قمرية ، درت فيها مع الفلك ، وسايرت الشمس ، واستقبلت السنين ، ثم ودعتها كمــا استقبلتها ، واستولدت الآمال ، ثم دفنتها كما استولدتها ، ورأيت أفراحاً ورأيت أتراحــاً ، وصادقت وعاديت ، وأحسنت وأســأت ، فما الذي خرجت به من ذلك كله ؟

لقد قطعت في هذه السنين الأربعين أكثر الطريق ، ولكن لم أعرف بعد الى أين المسير ! ومشيت أكثر من أربعة عشر ألف يوم تباعاً ، ولكن لم أدر الى أين أمشي !

انني أصحو كل يوم ، فأكلم أهلي ، وآكل طعامي ، وأذهب الــى

عملي ، ثم أعود الى داري ، فأكتب مقالتي ، أو أنظر في كتابي ، أو أزور أصحابي ، أو ألهو بما يلهو به مثلي ، ثم أنام لأصحو من الغد ، فأعيد الفصل ذاته ... والأيام تكر ، والسنون تطوى ، والعمر ينصرم ، وأنا (أمثل الرواية) الأبدية : صحو ومنام ، وشراب وطعام ، وصمت وكلام ، ووداد وخصام . أما أن أعرف نفسي ، وأخلو بها ساعة كل يوم ، وأسأل من هي ، ومن أين جاءت ، وفيم وجدت ، والى أين تمضي ، فهذا ما لم أفعله الى اليوم . بل اني لأفر منها فراراً ، وأخاف أن أخلو بها ، فأتشاغل عنها بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو لهـو باطل ، واذا أنا أُلزمت صحبتها ، وعدمت الشواغل عنها ، ضقت بنفسي ، وضجرت وأحسست كأني سأجن !

وأنا أصرف العمر في قطع العمر ، وأجعل أكبر همي اضاعة يومي ، كأني أُعطيت الحياة لأعمل على تبديدها ، فاذا لم أجد ما أمزق به الوقت ، واضطررت الى مواجهة الزمان ، في ساعة كساعات الانتظـار ، ضقت بعمري ، وضجرت ، وأحسست كأني سأجن !

اني أركض أبداً وراء المستقبل ، ففي المستقبل أبلغ آمالي ، وفيه أصلح نفسي ، وفيه أنيب الى ربي ، وفيه أكتب تلك المعاني التي طالمـا جاشت بها نفسي ، ولم يجر بها قلمي ، وفيه أؤلف الكتب الكبار التي طالما أزمعت تأليفها ، وفيها أصنع كل شيء . ولكن المستقبل لن يأتي أبداً ، وحين يأتي يصير (حاضراً) وأذهب أفتش عن (مستقبل) آخر ، فأنـا كالفرس الذي يعدو ويشتد ، ويكدُّ نفسه ليدرك حزمـة الحشيش ، والحزمة معلقة في عنقه ، يبصرها أبداً أمامه ، ولا يصل اليها ، فلا يزال يسعى حتى يدركه الكلال ، فيقع ، أو تعترضه حفرة فيسقط فيها ... ولكن الحفرة التي أسقط فيها أنا لا قيام منها ، ولا مناص من ورودها ، ولا يستطيع أن يجتنبها كبير ولا صغير ، ولا غني ولا فقير ، ولا أمـير ولا أجـير .

واذا أنا وصلت الى الأمل الضخم ، هان عليَّ ، وذهب بهاؤه ، وامّحت روعته ، كأن الآمال سراب لا يلمع الا من بعيد .

لقد كان أكبر أملي يوم كنت في الابتدائية أن أكون معلماً ، وكنت أتوهم حياة المعلم فأجدها جنة أنزلت الأرض ، فيها ماتشتهي الأنفس... أليس المعلم يأمر فيطاع أمره ، وينهى فيجتنب نهيه ، ويوفى التبجيل ، وينال الاكبار ؟ فلما صرت معلماً ، لم أجد من تلك الجنة الا الذي تجده من الغوطة في الشتاء ، أرضاً موحلة ما فيها الا الشوك ، وأشجاراً يابسة ، ما فيها الا الحطب ، ورأيت مدرس الثانوية أعلى قدراً ، وأقل عملا ، وأكبر مرتباً ، وأوسع جاهاً ، فأملت أن أكونه ، وأملت أن أكون كاتباً ، وأن أكون قاضياً ، وأن أكون خطيباً ، وأن أسيح في البلاد ... فلم أجد في الأمل الا الألم لانتظاره ، ثم الملل من بقائه ، فتيقنت الآن أني لو صرت رئيس الجمهورية ، أو صاحب (الاهرام) ، أو كان لي مال (عبود) ، لذهبت الأيام بلذة ذلك كله ، وهونه الاعتياد ، فلم أستفد منه ، الا حسد الحساد عليه ، والحسرة ، ان فقد ، لفقده ... وأن متع الدنيا أوهام ، مَن لم ينلها تشوق اليها وحسد عليها ، ومَن نالها ملّها وتمنى غيرها : المتزوج يتمنى العزوبة ، والعزب يشتهي الزواج ، والمقيم يرجو السفر ، والمسافر يطلب المعاد ، والريفي يحن الى المدينة ، والمدني يتشهى الريف ، ونحن كلنا أطفال ... تشتري للطفل اللعبة النفيسة فيفرح بها ، ويهش لها ، ثم يلقيها ويطلب غيرها ، ولو كان دونها . ثم ان الآمال لا تنتهي ... فمن أعطى المليون ابتغى المليونين ، ومن رفع في الوظيفة درجة طلب درجتين ، فلا يزال في شقاءين ، شقاء بالحاضر الذي لا يقنع به ، وبالآتي الذي لا يصل اليه ...

أفلهذا وجدت وسعيت أربعين سنة ؟ أسعيت لأدرك السراب ؟

وتتالت عليَّ الفكر ، وعاودني الضيق الذي طالما كاد يدفعني (لولا

خوف الله) الى طلب الموت من سنين ، وما أشكو المرض فصحتي جيدة ، ولا أشكو الفقر فما أجد من المال يكفيني ، وانما أشكو فراغاً في النفس لا أعرف مأتاه ، وقوى فيّ لا أجد لها مصرفاً ، وحنيناً الى شيء غامض لا أدري ما هو على التحقيق .

* * *

وتركت القلم والورق ، وقمت أدور في الغرفة فوجدت على نضد ابريقاً من البلور الصافي ، طويل العنق ، واسع البطن ، فيه نحلة قد دخلت ولم تستطع الخروج ، فهي تتحفز وتتجمع ، وتثب متقدمة بقوة وبأس ، فيضرب الزجاج رأسها ويردها ، فتعاود الكرة ، وهي لا تبصر الجدار ، وانما تبصر ما وراءه فتحسب أنه ليس بينها وبين الفضاء حجاب ، فجعلت أنظر اليها وهي تعمل دائبة ، كلما ضربت مرة عادت تحاول أخرى ، لا تقف ولا تستريح ، حتى عددت عليها أكثر من أربعين مرة ، تجد الصدمة كل مرة فلا تعتبر ولا تدرك الحقيقة ، ولا ترفع رأسها لتبصر الطريق ، وتعلم أن سبيل الفضاء ، وباب الحرية ، هو من (فوق) لا عن يمين ولا عن شمال ...

فتعلمت من هذه النحلة ما كان خافياً عني : تعلمت أننا مثل هذه النحلة نحسب أن الانطلاق انما يكون على الأرض فنقدم ، فتضرب العوائق وجوهنا وتردنا ، فنقعد يائسين ، أو نعاود الكرة مستميتين ، نحسب الانطلاق في الشهرة أو في المال ، أو في متع الجمال ، وهيهات .. وهاهم أولاء السياسيون والممثلون والمغنون ، تطبق الأرض بأحاديثهم ، ويشتغل الناس بأخبارهم ، ويرون صورهم ، ويسمعون أصواتهم ، فما الذي يحصل من ذلك في أيديهم ، وماذا ينفعك أن يكون الناس كلهم يمدحونك اذا كنت منفرداً في غرفتك مبتئساً ، تعس النفس ، محزون القلب ؟ وهاهم أولاء الشباب الأغنياء ، يؤمون كل ملهى ، ويستمتعون

كل يوم بجمال جديد ، فهل ذهب ظمأ قلوبهم الى ارتياد منابع الجمال ؟ هل شبعت شهواتهم ؟ أم أن ذلك كالماء الملح كلما شربته جدّد لك ظمأً ؟ وهاهم أولاء المحبون المدنفون ، يعانقون مَن يحبون ، والنفس لاتزال بعد مشوقة ليس يرويها عناق ولا اقتراب ، ولا يشبعها شيء من متع الجسد .

وها هم أولاء (الملايرة[1]) المؤلّفون ، هل أشبعت ملايينهم نفوسهم ، ورزقتهم القناعة والاطمئنان ؟

فما هذا طريق السعادة ، ان الطريق على الأرض مسدود ، والفضاء من حولك له حدود ، وما طريق الفضاء ، وسبيل الانطلاق الا من (فوق)، هناك عالم النفس تنشط النفس كلما برقت لها منه بارقة ، أو لاح علم ، كلما سمعت نغمة سحرية فيها رنّة من ذلك العالم ، أو قرأت قصة عبقرية فيها اشارة الى ذلك المجهول ، أو وعت موعظة علوية فيها قطرة من ذلك الينبوع .

الآن عرفت ، فيا ضيعة هذه السنين الاربعين .

* * *

لا تقولوا ، انك تكتب في الدين وفي الفضيلة ، وانك تدعو الى الخير ، لأني عزمت على أن أقول الليلة الحق ، ولو كان على نفسي .

الحق يا سادة ، أن الدعاة اليوم الى الله ، لا أستثني واحداً ممن أعرف منهم ، كلهم ممثلون ، يلبسون في المجلة أو على المنبر ثياب المسرح ، فيبدون بالجبة والعمامة ، فاذا انقضى (الفصل) خلعوها ، وعادوا الى بيوتهم ، فعكف عابد الدينار منهم على معبوده ، ما له الا جمع المال هم ، وعابد الشهوة عليها ، وعابد الجاه ، وعابد المنصب . تعددت الأصنام والشرك واحد !

---

(١) جمع مليونير . و(المؤلّفون) أردت بها أصحاب الآلاف .

انهم ممثلون وأنا أول الممثلين .

ولو كنت صادقاً لما ألفت في سيرة أبي بكر وعمر ، ثـم عدلت عن سنتهما ، وسرت غير سيرتهما ، ولو كنت صادقاً اذ أدعو الى الاسلام ، لكنت في سري وجهري وفي لساني ويدي ، واقفاً عند أمر الاسلام ونهيه، ولو كنت صادقاً لما انغمست في حمأة هذه الحياة التي سال علينا سيلها من الغرب ، ولو كنت ، وكـان عشـرة مثلي ، صادقـين ، لمـا بقي في الارض فساد . ولقد طهر الأرض من أوضارها منبر واحد من الخشب، ثلاث درجات ليس لها درابزين ، ولا عليها قبة ، ولا لها باب ، فلم لا تطهر الأرض مائة الف منبر مزخرفة منقوشة محلاة لها أبواب جميلة وقباب ؟

ألأنّ الناس فسدت طبائعهم ؟ ألأنّ الزمان قد دنا آخره ؟

لا . بل لأن القائمين عليها وعاظ من خشب ، يحملون سيوفاً مـن خشب !

* * *

أما أن الحق ، الذي لا بد الليلة من الصدع به ... انه ... لا هذه المواعظ ، ولا هذه المقالات ، هي التي توصل الى الله ، ولكن يوصل اليه، أن يعود كل الى نفسه ، فيسأل ، من أين جاءت ، وفيم خلقت ، والى أين المصـير ؟

وأن يعلم كل أن الطريق من (فوق) ، فيرفع رأسه ليرى الطريق . ومَنْ منا يرفـع اليوم رأسه ، ونحن كالنحلة لا نبصر الا الأرض ؟ بل ان منا مَنْ هو كالفراشة تسعى الى النـار ، تحسب أنهـا بـاب الانطلاق !

ان المسيحيين يصلون لربهم قبل الطعام على المائدة ، وقبل الدرس في المدرسة ، ويوم الأحد في الكنيسة ، فتعلم أنهم مسيحيون ، فمـا

يصنع كثير من المسلمين ، وأي علامة تدل على أنهم مسلمون ، من ساعة يصبحون الى ساعة يمسون !

لا صلاة ، ولا ذكر ، ولا تمييز لحلال من حرام ، ان عملوا خيراً فباسم الاخلاق والفضيلة والصحة ، لا باسم الاسلام .

فما الفرق بينهم وبين غيرهم ؟

يقولون ان الدين المعاملة والصدق والقصد والاعتدال ، وأن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك .

صحيح ، ولكن هذا من الدين ، وليس هو الدين !

وهذا شأن كل شريف ، يستوي فيه الشرفاء جميعاً ، فما معنى تفريقهم الى مؤمنين وملحدين وعباد وثن ؟

وهذا كله للحياة الدنيا ، فما الذي نعمله للحياة الأخرى ؟

لا ، بل الدين ، أن تتصل بالعالم العلوي ، وأن تراقب الله ، وأن تعلم أنه مطلع عليك أبداً ، وأنه يرعاك بعينه فترعاه بقلبك وتطيعه بجوارحك .

هذه غاية الخلق ، وهذا سرّ الوجود ، (ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ، لا عبادة عادة ، وصلاة رياضة ، وصوم استشفاء ، وحج سياحة ، بل العبادة التي يحسّ بها القلب حلاوة الايمان ، ويذوق فيها لذة العبودية ، ويستشعر فيها القيام بين يدي الله . ولتغامر مع ذلك في ميدان الحياة ، ولتقحم لجّها ، ولتأخذ أوفر قسط من طيباتها ، ومن علومها ومن فنونها ، ولتكن قوياً ، ولتكن غنياً .

هذه حقيقة الدين ، وهذه غاية الحياة ، فهل يصل الى الغاية من مشى أربعين سنة مائلا عنها ، ضالا طريقها ؟

ألا يا ضيعة هذه السنين الأربعين !

* * *

بيوتنا هدمناها بأيدينا

نشرت سنة ١٩٥٩ م

لقيت أمس ، وكنت رائحا الى الدار ، اخوانا لي ، فقالوا : هلمّ معنا الى زيارة فلان ، قلت : اني في شغل قالوا : هو على طريقك، في «العفيف»، قلت : اذن اذهب فلي في « العفيف » ذكريات ، أحب أن أجدد العهد بها .

وانطلقت أسايرهم وأحدثهم حديث ذكرياتي في العفيف .

ذلك أني كنت أيام الحرب الاولى تلميذا في المدرسة الابتدائية ، وكان سكننا في طرف « السمانة » في تلك الأزقة الملتوية الضيقة التي يستطيع الماشي فيها أن يمدّ يديه فيدرك طرفيها .

وكانت مدرستنا في سوق صاروجا [١] فكنا نصرم الايام الطوال ، نعيش وراء الجدران لا نستطيع ان نطلق البصر في رحب الفضاء ، ولا أن نمتع العين بخضرة الحقول وزرقة الانهار ، ولا أن نستمتع الى خرير السواقي وهدير النواعير ...

لذلك كان من أحب الايام الى نفسي يوم تذهب الاسرة الى زيارة بيت عمي في العفيف ، وكان الذهاب اليه سفرة ، فكنا نمشي الى «بوابة الصالحية » وهي اليوم لب دمشق ، وهي أعظم ميدان فيها وحولها أضخم عماراتها ، ولكنها كانت يومئذ مجازا خطرا لا يستطيع أن يسلكه في الليل الا الجسور ، وكان في نهاية سوق صاروجا « بوابة » من الخشب

(١) صاروجا من أمراء المماليك في القرن الثامن الهجري ..

تغلق في الليل ، فاذا خرجت منها وجدت طريقا ضيقاً يسلكه الترام،وعلى جانبيه بساتين تتخللها بيوت متفرقة ، وكان في موضع الشارع العظيم « شارع ٢٩ ايار » بستان الكركه وفي موضع البرلمان (سينما) أخذونا اليها ونحن تلاميذ فأرونا « فلما » عن موقعة (شناق قلعة) .. ثم احترقت السينما وبقيت انقاضها سنين طويلة حتى أقيم البرلمان ..

وكان بيت عمي من تلك البيوت الشامية الاصيلة . قصر رحيب له براني وجواني [١] وشتائي وصيفي ، له صحن واسع في وسطه بركة مثمنة ، تخرج منها (نافورة) قطرها شبر يمدها نهر يزيد ، يتدفق منها عمود من الفضية المذابة ، يرتج ويتمايل كراقصة تتثنى وتتخلع ، يحسبه الناظر متدفقاً بالزئبق ، وعلى أركانها الثمانية ، ثماني شماشير [٢] مدورات كأنما أدرن بـ (بركار) ، ومن ورائهن صفوف من نفائس الأشجار من الخوخ والدراق والمشمش والرمان . تحف بها من عند سوقها غرائب الأوراد والأزهار تظللها الدوالي صاعدات الى السطوح ، والأرض والجدران من الرخام الأبيض والمجزع والحجر الملون المنقش تتسلقها فروع المليسا والياسمين ، وفي صدر الدار ايوان لهقوس عال [٣] تزين جدرانه وسقفه صنعة شامية عجيبة من الحجر المتداخل والخشب المتشابك والقاشاني ، وبين يديه (فسقية) عجب من العجب قطعة واحدة من الرخام الوردي ، على مثال الكأس لها عنق طويل ، تطل نوافذ الايوان من جهة البلد على بساتين الجسر الابيض التي تنحدر خلالها السواقي متعاقبة متتابعة ، تحمل الماء من يزيد ــ الى تورا [٤] تهدر

---

(١) من العامي الفصيح ، وورد : من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه .

(٢) نبات يخرج مستديرا كالقبة يكثر في دور دمشق .

(٣) القوس مؤنثة وقد تذكر .

(٤) من فروع بردى السبعة ونهر يزيد أعلاها وهو منسوب الى يزيد ابن أبي سفيان أو يزيد بن معاوية .

به وتتكسر لا تسرقه كلص متخف يخافت الخطو ، بل كأطفـال مدللين يولون بما يخطفون وهم يزأطون ويضحكون ... تبدو هام الاشجار دوين النوافذ ، فيحس الناظر منها كأنه على أرض من الغصون وتلوح البلد من بعيد بمآذنها وسقوفها ، تبدو من خلال الأشجار كمشهد في حلم ، وينظر الايوان من أمام الى قاسيون الحبيب . منظر عجب ، وفتنة لا تنقضي .

والى جنب الايوان من هنا القاعة الكبرى بدكتيها ونقوشهاوبركتها، ومن ورائها البستان . ومن هناك القسم الشتوي من الدار ، غـرف دافئات ، يسبحن في الضياء ، ويغتسلن بأشعة الشمس في الشتاء .

والبراني قريب منه في بنيانه وبستانه ، وهو للضيوف من الرجـال لئلا يدخلوا الدار ، فينتقصوا من حرية النساء .

فكنا اذا بلغنا الدار وثبنا ننعم بالحرية والانطلاق ، بعـد السجن والضيق ، فلعبنا وتسلقنا الاشجار وصعدنا السطح وأكلنا العنب،وكانت دوالي الدار تحمل كل سنة أربعة قناطير [1] من العنب البلدي النادر .. وأشرفنا على دار عثمان باشا ، ولم يكن ثمة غيرها ، وقد صارت هـذه الدار من بعد ، قصر الملك فيصل لما كان في دمشق ، ثم صارت المفوضية الفرنسية ، وهي اليوم خالية خاوية قائمة تسخر ممن يثق بالزمان ويطمئن الى السلطان .

فاذا مللنا دخلنا الجنينة فبقينا فيها ، وأفسدنا ما فيهـا من نوادر الغراس ، وكان في آخرها باب صغير ، هو في أنظارنا يومئـذ نهايـة العمران ، وآخر المسكون في الارض وكنا نتهيب أن ندنو منه ، ثم تجرأنا مرة فولجناه ، فاذا نحن في مثل غابات أفريقية بهولها وعجائبها : بساتين

(١) هذه حقيقة ، والقنطار مائتان وخمسون كيلوغراماً ، وفي أكثر دور دمشق العربية من هذه الدوالي الكبار .

متصلة وأشواك معترضة وسواق هدارة مرعبة [1] ، تعترضها شلالات عميقة وكلاب شرسة ونواطير أشرس من الكلاب .. وكنا مجموعة من الاولاد . أنا وأبناء عمي وأولاد الجيران . وأظلم علينا الليل ونحن في هذه المجاهل وكانت ليلة ليلاء .

* * *

كذلك كانت دورنا الشامية ، كانت سكنا ونزهة ، وكانت مصيفاً ومشتى ، وكانت كالمرأة المحجبة لا تبدي زينتها لغير أهلها ، تراها من الخارج كأنها مخازن التبن ، ما تكشف عنها نافذة ولا شرفة ، فاذا دخلت رأيت الصحون الكبار والبرك والانهار ، وغرائب الاشجار ، وفي كل دار اسرة كاملة ، يجمعها الحب والاخلاص ، وقد يختلف من فيها ويتنازعون ، ولكنه اختلاف لا يمحو المحبة ، وتنازع لا يولد البغضاء ، وانما هو كاصطدام الغصن بالغصن في الروض الممرع من نسيم الاصيل .

يأكلون جميعا من قدر واحدة ، على مائدة واحدة ، فاذا كان العصر غسلت أرض الصحن ، حتى صار رخامها وبلاطها كالمرايا ، ورشت الاشجار حتى قطر منها الماء ، وزقزقت عليها العصافير التي تأوي اليها كل عشية ، واصطفت الاسرة على الايوان : الجدوأولادهوبناته ، وكناته وأحفاده ، ونصب (سماور) الشاي ، وأديرت الكؤوس ، وقفز الاولاد ولعبوا ، وتحدث الكبار وضحكوا ، لا تصل الى الجيران أصواتهم ولو صاحوا وغنوا ، ولا تصل اليهم أصوات الجيران ، ولا يراهم أحد ولو تعروا ولا يرون أحداً ، فهي مملكة مستقلة ، يحس ساكنها أنها له وحده ، لا يؤذي جاراً ولا يؤذيه جار ، وهي كثيرة الغرف ، متعددة الأجزاء وهي لرجل الفكر نعمة ، يستطيع أن يجد فيها غرفة يقرأ فيها هادئاً ويكتب ، والضجة في الدار على أشدها فلا يسمعها ، وهي عالم

---

(١) صارت اليوم أحياء جديدة واسعة الشوارع فخمة العمارات .

كثير المشاهد مختلف المناظر ، ان مللت منه مكانا قصدت غـيره ، فمن قعود في القاعة أو صعود الى القصر [1] أو جلوس على بسـاط تحت الشجرة ، أو عزلة في المشرقة [2] .

هذه هي بيوتنا التي خلقت لنا ، والتي هندستها طبيعة جوّنا ، وآداب ديننا ، وعاداتنا وأوضاعنا ، وهي البيوت الشامية الاصلية ، التي رسخت أصولها فينا ، ثم امتدت فروعها فقطعت البحر من ضفة الى ضفة ، من الشام الى الاندلس ، فملأت الاندلس ثم انتقلت الى المغرب فلا تزال فيه الى اليوم ، ما ملوها كما مللناها ، ولا انصرفوا عنها ، تقليدا للغرب الذي اتخذنا تقليده دينا ، ورأينا كل ما يأتي من عنده حسنا ، ولو كان الفجور والعهر ، والرقص والخمر ، والفسق والكفر .

* * *

وكنا قد بلغنا منزل الرجل حين بلغت هـذا المحط مـن الحديث ، فنظرت فاذا الارض قد بدلت غير الارض ، واذا تلك الدار التي كانت مدارج صباي ، ومرابع هواي قد ذهبت مع أمس الدابر ، واذا في مكانها عمارتان جديدتان ، في احداها دار صديقنا الذي جئنا نزوره فأحسست مما فقدت وما وجدت كأني قد ودعت عزيزا وفارقت حبيبا ، وتردد بي الزمان بين الماضي والحاضر حتى شعرت كأن قد أصابني دوار ، ودخلت متحاملا على نفسي ، غائباً عن حسي ، فاذا الدار سجن من هذه السجون التي تسمى الطوابق : صناديق مـن (الاسمنت) تتلظى فـي الصيف حرا ، وتشتعل لهبا ، فكدنا نختنق ، وقلنا : افتح النافـذة نجـد مس النسيـم .

ـ قال : لا نستطيع ، ان نافذة الجيران أمامنا ، فان فتحنا أبصروا كل ما في الدار .

---

(١) القصر في عامية الشام : البهو الشتوي .
(٢) أي سطح الدار .

فصبرنا على مضض ، فما هي الا هنيهة حتى ارتج البيت رجـة ، ظننت أن قنبلة قد تفجرت فيه !

ـ قلت : ما هذا ..

قال : شيء قد سقط عند الجيران .

وهنيهة أخرى ، واذا بصوت يمـلأ الدار ويصـم الآذان . قلت : وهذا ...

ـ قال : راد [1] الجيران .

ـ قلت : أعوذ بالله ، فكيف تعيشون في هذه الدور ..

ـ قال : في عذاب ، لقد تعجلنا الجحيم في الدنيا ، حين زهدنا في بيوتنا العربية ، واتخذنا هـذه الطوابق ، هي جحيم على الكبار وعلى الصغار . ألا ترى الاولاد يلعبون في كل طريق ، يتعلمون في مدرسـة الشوارع كل سيء من العادات وبذيء مـن القول .. ويعودون الى أهلهم بوساخة الثياب ووساخة الخلق ووساخة اللسان .. هذا ان لـم يعودوا بشجة في الرأس من الحجارة أو كسر في الرجل من السيارات .

ان السبب فيها هو هذه البيوت ، لو كان في الدور مثل تلك الصحون وتلك الحدائق لما خرج الاولاد الى الطرق والشوارع .

* * *

وخرجنا من الزيارة ، فودعت صحبي ووقفت وحدي ، أبكي الماضي الذي افتقدته . أفتش عن بقية منه فلا أجدها ، وأستنطق الديار ، فلا أسمع جوابها .. ثم رأيت وراء العمارتين خربة صغيرة مهجورة ، فيهـا بحرة عتيقة لا يزال ينساب منها الماء ، وقد اخضرت حجارتهـا ، ونبتت الطحالب عليها ، فأحسست بقلبي يدق في صدري لمرآهـا ، وتسارعت أنفاسي ، كأنني رأيت في زحمة النـاس وجه حبيب طال منه الهجـر ،

---

(١) الراد ، الراديو .

وعز اللقاء ، انها بركة القاعة الكبرى في بيت عمي ، البركـة التي كانت تلمع حجارتها كالمرايا ، ويبرق ماؤها كالالماس [1] انها تبدواليوم كسائلة عجوز بأسمالها الباليات ، ولكني أراها كما كنت أعرفها في أيام عزها ، أراها الصبية الحسنـاء المدللة اللعوب • ووقفت أصغي الى خريرهـا الخافت فأغفي عليه كما يغفي الطفل على الاغنية الناعمة تهمس بها أمه في أذنيه ، ورحت أحلم •••

رأيت البركة قد انجلت وصقلت ، والماء قد عاد متدفقا قويا ، وقامت من حولها الجدران المزخرفة ، وظللها السقف المنقوش ، وعـاد الايوان والصحن ، ورجعت الدار ، وعاش الماضي • وسمعت طـرق القباقيب وصياح النسوة ، وزئيط الاولاد •

واستغرقت في الماضي حتى ذهبت أنادي وأهتف بأسماء أهل الدار وقد نسيت أني أنادي من وراء أربعين سنة ، أهتف بأسماء مِنْ أصحابها من واراه التراب ، ومنهم من رمت به الايام أبعد المرامي •

ولم يجب أحد •

ما في الديـار مخبـر الا صـدى لمصـوت

نـاديـت : أين أحبتي ؟ فأجبـت : أيـن أحبتـي

وفتحت النوافذ وأطل من فيها ينظرون •

ـ قالوا : من هذا الغريب الذي يصيح في الخربة كالمجانين ؟

زعموا أني أنا الغريب •

---

(١) أصله الماس وهمزته أصيلة .

أنا الغريب ؟ ويحكم ، انها دارنا ، ان فيها قطعا من قلبي وبقايا من حياتي . أفأغدو غريبا في داري ؟

وعدت الى الحاضر ، وتصرم الحلم كأنه سطور خطت على الماء .

وانصرفت وأنا أسائل نفسي ، أن لماذا نلوم الذين هدموا تلك المنازل الغالية التي كانت في الميدان والشاغور ، وسيدي عامود[1] ؟ لماذا نلومهم اذا رحنا نحن نهدم بأيدينا ، ما ترك الفرنسيون من منازلنا ؟! لقد كان الفرنسيون أعداءنا فهل نحن أعداء أنفسنا ؟ ألا يا أسفى على تلك المنازل ! يا أسفى علينا !



(١) اسم محلة كانت في دمشق .

الدّرس الأخير

نشرت سنة ١٩٣٦

أولادي !

انتظروا ! لا تخرجوا كتبكم ، ولا تفتحوا دفاتركم ، فما جئت لألقي عليكم درساً ، وانما جئت لأودعكم لأني نقلت من مدرستكم . ان الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق ، وما آلام الدنيا كلها الا ألوان من الفراق : فالموت فراق الحياة ، والثكل فراق الولد ، والغربة فراق الوطن ، والفقر فراق المال ، والمرض فراق الصحة .

ان الوداع صعب ولو الى الغد ، فكيف ان كان المودّع صديقاً عزيزاً ، فكيف ان كان ولداً ، فكيف ان كانوا أولاداً ؟

أنتم أولادي ، أولادي حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء ، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال ، ولكن تنطق بها كل جارحة فيّ ، وأحسها من أعماق قلبي !

ولمَ لا ؟ ألستم تحبونني وأحبكم ؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخَفْ عليكم ؟ ألم تروني آلم اذا تألم أحدكم ، وأثور اذا تعدى أحد عليكم ؟ ألم أفتح لكم قلبي حتى اطمأننتم اليّ وأنستم بي ، وخرقتم حجاب الخوف الذي كان بيني وبينكم ، كما يكون بين كل معلم وتلاميذه ، وغدوتم تدعونني لأشارككم في ألعابكم ، وتقصون عليّ أخباركم وتبثونني أحزانكم ، وتنبئونني بأسراركم ، وتشكون اليّ ما يصيبكم من آبائكم وأهليكم ؟ فأي صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة ، وأي سبب أقوى من هذا السبب ؟

أنتم أولادي . فهل رأيتم أباً يودّع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه ؟ لقد شغلتم نفسي زماناً ، وأخذتم عليّ مسالكي في الحياة ، فلا أرى غيركم ولا أفكر الا فيكم ، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة ، عن الصداقة الكاذبة ، والود المدخول .

فكيف أقدر أن أملك نفسي وأنا أقوم بينكم لألقي عليكم كلماتي الأخيرة ، ثم أمضي لطيتي لا أدري أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبداً؟!

أما أنتم فاملكوا أنفسكم ! لا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تبكوا لأني علّمتكم كيف تكونون في طفولتكم أكثر منا في شبابنا رجولة وصبرا ، ونشأتكم على القوة التي فقدناها ، والبعد عن العاطفة التي ربينا عليها ، وانكار الألم الذي لا نزال نهرب منه ، والمغامرة التي نكرهها ونجهلها لأرى صبركم في مثل هذا اليوم .

انكم الآن تجتمعون حولي ، ولكنكم ستتفرقون في المستقبل ، وستنتثرون على درجات السلم الاجتماعي نثراً ، وسيكون منكم الغني والفقير ، والكبير والصغير ، والتاجر والصانع ، والموظف الكبير ، والمدير والوزير ، ولكن قلبي سيتبعكم ، وحياتي ستمتد فيكم ، ومبادئي ستبقى في قلوبكم ، لا تستطيعون أن تتناسوها ، وكلماتي سترن في آذانكم لا تقدرون أن تتغافلوا عنها ، وستسمعونها تدعوكم باسم الواجب في ساعات الهوى ، وباسم الحق في جولة الباطل ، وباسم الفضيلة في غمار اللذة . فطوبى لمن لبّى وسمع واستجاب ، وويل لمن نسي وأنكر ، وأعرض واستكبر !

انني لقنتكم مبادىء الحق والفضيلة ولكنكم ستجدون في تطبيقها عناءً كبيراً ، ستجدون أول خصومها معلميكم في المدرسة وأهليكم في البيت ورفاقكم في الطريق ، فالسعيد السعيد من ثبت على الحق ، وأوذي في سبيله ، والبطل من درأ بصدره السهام عن أمته ، وأطفأ بدمه النار

التي تحرق وطنه • ان في امتكم طاعوناً أخلاقياً مروعاً أصيبت به منذ خمسمائة سنة فذلت واستكانت ، وفقدت عزتها وصبرها وقوتها ، وقد جاء الوقت الذي تبرأ فيه الأمة • انها لن تبرأ الا على أيديكم •

لقد دللتكم على الطريق ، ووضعت في أيديكم مفتاح النجاح ، فعلمتكم فضائلي كلها مع ما عرفت من فضائل ، وجنبتكم نقائصي كلها مع ما عرفت من نقائص ، فاحترمتكم لتحترموني ، وأخطأت أمامكم لتردوني ، ورجعت عن خطئي لتتعلموا مني ، وأنصفتكم من نفسي لتنصفوا الناس من نفوسكم ، وعلمتكم معارضتي اذا جرت لتتعلموا المعارضة لكل جائر ، ولم آت في ذلك بدعاً • فهذه مبادىء الاسلام الذي علمتكم اتباع سبيله ، والوقوف عند أمره ونهيه والفخر به ، والجهر باتباع شعائره ، وربيتكم على الطاعة في غير ذل ، والعزة في غير كبر ، والتعاون على الخير ، والثبات على الحق ، والقوة في غير ظلم ، والنظام الكامل من غير أن يفقدكم النظام شخصياتكم واستقلالكم •

كنت أذكر ما كنت أستاء منه في المدرسة مما كان يصنع معنا معلمنا ، فلا أصنع معكم منه شيئاً : كنا نفر من المدرسة لأننا لا نجد فيها الا جباراً عاتياً ، عبوس الوجه ، قوي الصوت ، بذيء الكلمات ، فجعلتكم تحبون المدرسة لأنكم تلقون فيها أباً باسماً شفيقاً يحبكم ويشفق عليكم ، ويحرص على رضاكم كما يحرص على نفعكم •

وكنا نكره الدرس لأننا نجده شيئاً غريباً ، وطلاسم لا نفهمها ولا ندرك صلتها بالحياة ، ونعاقب على اهماله ، ونجازى على الخطأ فيه ، فجعلتكم تحبون الدرس لأنكم ترونه سهلاً سائغاً ، تدركون صلته بحياتكم ، وفائدته لكم ، وتحفظونه لأنه لازم ومفيد لا خوفاً من العقاب ولا هرباً من الجزاء •

وكنا ننتظر المساء لننجو من المدرسة ، لأننا نسجن فيها سجناً ،

لا نستطيع أن نميل أو نتلفت أو نتكلم ، ولا نسمع من الاستاذ الا عبارة الدرس المبهمة وألفاظ الشتائم المؤلمة . فجعلتكم تكرهون المساء لأنه يفصلكم عن المدرسة التي تقولون فيها ما شئتم من طيب القول ، وتفعلون ما أردتم من صالح العمل ، وتقرؤون ما زلتم نشيطين للقراءة ، فاذا مللتم من الدرس سمعتم قصة لطيفة ، ونكتة حلوة ، هي أيضاً درس من الدروس ، ووجدتموني أحادثكم كما أحادث الرجال لا الأطفال . كنا نشعر بأننا أذلاء في المدرسة ، لأننا لا نقدر أن ندافع عن حقنا ، أو نطالب بما لنا ، واذا قلنا كلمة فالعصا نازلة على رؤوسنا ، أو رددنا على المعلّم لفظة ، فالبلاء مستقر على عواتقنا ، فجعلتكم أعزة أحراراً ، تدافعون عن حقكم ، وتطالبون بما لكم ، ولكن بأدب واحترام ، واتباع لقوانين المجتمع وأنظمة المدرسة ...

* * *

أتذكرون يوم جئتكم كيف كان أكثركم يأتي الى المدرسة بادية أفخاذه ، مرجلاً شعره ، في جيبه مشطه ومرآته ، وكمّته (بيريه) على رأسه . تفخرون برقتكم ، وتعتزون بجمالكم ، وتتخلعون في مشيتكم ، ولا تجدون من معلميكم الا اقرار ما تفعلون ، واستحسان ما تأتون ، لا تربطكم بالاسلام الا رابطة الاسم ، ولا بالعروبة الا صلة الجنسية ، ولا تعرفون من تاريخكم ما تعرفون من تاريخ الحثيّين والآراميّين الذي قرأتموه مفصلاً قبل أن تدرسوا سيرة محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقبل أن تعلموا من هو أبو بكر ، وقبل أن تسمعوا باسم معاوية . فعلّمتكم أن فخر الرجل بقوته وعلمه ، واعتزازه بدينه ولغته . فاشتدت أعصابكم ، وقويت نفوسكم ، وتنبهت عزائمكم وصرتم تمشون كالأسود وتلعبون كالعفاريت ، وتطالعون كالعلماء ، وتفكرون كالفلاسفة ، وتراقبون الله كالصديقين ، وصرتم وأنتم في هذه السن تهيئون محاضرة

في عشرين صفحة عن عمرو بن العاص ، أو عبد الملك ، أو عبد الرحمن الناصر ، وسمعتم أن في الدنيا علوماً اسلامية ، واستقر في نفوسكم أن هذه العلوم وهذه الحضارة وهـذا المجد ، لا بد لها من بعث كالبعث الأوربي (الرينسانس) .

ولكنكم لا تستطيعون يا أولادي أن تفهموا التضحية التي قدمتها من أجلكم . لأنكم لم تعرفوا قبلي هذا الطراز من المعلمين ، فحسبي أن أخبركم أنني أشتغل بالأدب . أعني أن لي نفساً تشعر وتحسُّ ، وتألم وتسرُّ ، وتغضب وترضى ، وتثور وتهدأ ، وتأمل وتقنط ، وأن لي غاية في الحياة أكبر من هذه الوظيفة . وأنني أهتم بأشياء غيرصفّارةالمناوب، وعصا التأديب ، وحفظ النكات الباردة لتقطيع الوقت بها ، ولف رجل على رجل في عظمة جوفاء لانتظار الدرس ...

ذلك أنني أغدو الى المدرسة كل يوم وفي نفسي عشرات من الصور والأفكار ، أبني منها هياكل فخمة لآثاري الأدبية القيمة التي لم أكتب منها شيئاً بعد فاذا بلغت المدرسة ونشقت هذا الهواء المليء بجراثيم البلادة والخمول ، طار من رأسي كـل شيء ، وأحسست أني غدوت حقيقة معلماً أولياً .

أجل . لقد ضحيت من أجلكم بفكري ونفسي .. فخسرتهمـا من أجلكم ، وهأنذا أخسركم أنتم أيضاً .

انكم لا تعلمون أيّ فراغ سيدع في نفسي فراقكـم ، وتحسبون معلّمكم واحداً من هؤلاء البشر الآليين الذين يذهبون ويجيئون ويعملون ويتركون ، ولكن بلا قلوب ، فسأقص عليكم قصة وقعت لي منذ أسبوع:

كان اليوم عطلة وكنت أرقبه من زمن بعيد لأستريح فيه من هـذا العناء الذي هدّني هدّاً وطمس بصيرتي ، وبلغ بي الى الحضيض الفكري . فلما أصبحت عمدت الى المطالعة فلم أفهم شيئاً ، ووجدت شيئاً يدفعني

الى الخروج ، فارتديت ثيابي وأنا لا أدري أين أقصد ، فاذا أنا أمشي في الطرقات التي أمشي فيها كل يوم . واذا رجلاي تقودانني الى المرجة حيث ركبت السيارة الى حيّ السفح (المهاجرين)[1] الى باب المدرسة . هنالك انتبهت ، وعدت الى نفسي ، فاذا أنا لم أقدر أن أعيش يوماً واحداً بعيداً عنكم ، واذا صوركم وبسماتكم الحلوة ، وشيطنتكم البريئة ، وصداقتكم الخالصة ، وأصابعكم الممدودة للسؤال قيد بصري حيثما ذهبت !

ولكن لا عليكم مني يا أبنائي ، لا تفكروا فيّ ولا تحملوا همّي ، بل فكّروا دائماً في (مبادئي) التي علّمتكم ايّاها ، واذكروا في المستقبل أني كنت أستاذكم ، وأنكم أحببتموني وأحببتكم ، ولا تحقدوا عليّ أني كنت أحياناً أقسو عليكم أو أعاقبكم ، فانما كان ذلك لفائدتكم .

وبعد . فقوموا يا أولادي ، ودّعوا أباكم الذي لن تلقوه بعد اليوم ... ...

* * *

وخرج صاحبي من المدرسة ، مهدود الجسم ، خائر القوى ، فألقى عليها النظرة الأخيرة . فرآها من خلال دموعه ، مشرقة بهية ، كأنها ألماسة تلمع في شعاع الشمس ، ثم ولّى ... يفكر تفكيراً مضطرباً .

* * *

هذه هي حياة المعلم ، يغرس غصون الحب في قلبه فتمزقه بجذورها، فاذا أزهرت جاؤوا فنزعوها من قلبه ، فمزقوه مرة ثانية بنزعها : يأخذ المعلم أولاداً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، فلا يزال يجهد فيهم ، ليفهم طبائعهم ، ويألفهم ويحبهم ، ويقوّم اعوجاجهم ويصلح فاسدهم ، حتى

---

(١) كذلك كانت تسمى الصالحية قديماً .

اذا أثمر الحب الفائدة وأتى العطف بالمنفعة ، جاء ولاة الأمور فقطعوا بجرّة قلم واحدة هذه الأسباب كلها . وفرقوا بنقطة من حبر بين الأب وأولاده ، لا لشيء ، بل لوشاية سافلة أو مؤامرة دنيئة ، أو لاخلاء مكانه ليبوّأه بعض الملتمسين من ذوي الوساطات .

وانطلق صاحبنا يهمس في أذن نفسه :

اني أشعر بالانحطاط والضعف ، وأحسّ كأنني شمعة قد انطفأت، لم يكف أنهم أضاعوني وألقوني في هذا الطرق حتى جعلوني أسبح فيه ، ثم أغوص الى أعماقه ، بينما يمرح الأدعياء واللصوص بالعيون الصافية ويقطفون وردها وزهرها !

لم يبق لي أمل ... لقد سقطت في المعركة قبل أن أنال ظفراً ، لقد بعت نفسي ومستقبلي وآمالي بتسعة جنيهات في الشهر ثمناً لخبزعيالي... أفكان حراماً أن أجدها من غير هذا الطريق ، ألم يكن بد من أن أموت لأعيش ؟..

أستغفرك اللّهم ، فلا اعتراض ولا انتقاد ، ولكنما هي شكوى . أفيخسر المرء ماله فيشكو ، ويفقد حبيبه فيبكي ، ويرى آماله تنهار أمام عينيه ونفسه تذوب وحياته تنضب ومواهبه تذوي ولا يقول شيئاً ؟

انني أشكو ، ولكن الى الله ، فليس في الناس من يشكى اليه !



عدد (١٠٠٠) من الرسالة

نشرت سنة ١٩٥٢

لما سمعت أن الرسالة كادت تستكمل أعدادها الألف ، دهشت وفرحت ، كما يدهش من يقال له لقد غدا ولدك شابا ، ويفرح به كأنه يرى شبابه لأول مرة ، وما ذاك عن جهل به أو اهمال له ، بل لأنه لا يزال يذكر مولده وطفولته ، ولأنه يراه كل يوم فلا يحس أنه تغير ، ولا يدري متى جاوز الطفولة الى الشباب ، وأنا أذكر أبداً فرحتي بصدور الرسالة ، وموقف أخي أنور العطار ، وقد جاء بالعدد الأول منها فخبأه وراء ظهره ، وقال : احزر !

ـ قلت : ماذا ؟

ـ قال : الزيات أخرج مجلة أدبية .

انني أحس من شدة وقع الفرح في نفسي لما قالها كأن قد كان ذلك أمس ... فكيف مرت الأيام حتى بلغ عمر الرسالة ألف أسبوع ؟ كيف مر هذا الأمد الطويل ، وكأنه من قصره ليالي الوصال !

* * *

ألف عدد ؟ ! كم أنفقت من ذهني في اعداد المقالات لها ، ومن أعصابي في ارتقاب وصولها ! وكم سألت الباعة عنها ، في شارع رامي في دمشق ، وفي سوق السراي في بغداد ، وفي العشار في البصرة ، وعلى السور في بيروت ، وعند باب السلام في مكة ، وعند الجسر في الدير ، وفي شارع الملوك في حيفا ، وفي كل بلد عشت فيه أو مررت به ! وكم قرأت

مسوداتها وراء مكتب رئيس التحرير في الادارة ، وأمام الآلات في المطبعة ! كانت الأيام عندي السبت والأحد ويوم الرسالة ، وكانت تتبدل عليّ المشاهد ، ويتغير الرفاق ، ولكن الرسالة هي رفيقي الدائم ، أذكر كل عدد منها ، وكل مقالة نشرت فيها ، وكل مناقشة فيها وكل بحث ، ولقد قالت زوجتي أول ما قدمت عليّ :

ـ انني لا ضرة لي ، ولكن هذه الرسالة ضرتي •

ثم رأت ـ وهي من أعقل النساء وأفضلهن ـ أنها ضرة لا تضر ولا تؤذي •

* * *

كم وضعت فيها من قلبي ومن فكري ، ومن مشاهد حياتي ومن ذكرياتي ، ومن آلامي ومن آمالي ، من سنة ١٩٣٣ الى اليوم •

ألف عدد ، وستعيش الرسالة ان شاء الله حتى تبلغ الألف العاشر ، وحتى تكون من أعلاق المكتبة العربية وكنوزها ـ وقد كانت •

ستعيش حتى تصير في مثل عمر (المقتطف) ، وليست المقتطف ـ مدّ الله في عمرها ـ بأحق منها بالخلود •

ولقد كان للرسالة فضل على اللغة ، وفضل على الأدب ، وفضل على الأخلاق ، وكان لها عمل كبير في احياء روح الدين في دنيا الاسلام •

ولقد أخرجت للناس كتابا وشعراء ، وكانت مدرسة للبيان العربي ، جئناها شبابا فمشينا في ركاب شيوخ الأدب ، وبقينا فيها حتى أوشكنا أن نعدّ في الشيوخ ، وهل بعد خمس وأربعين شباب ؟

لقد ولّى الشباب ، وذبلت زهرة العمر ، وجاءت الكهولة ، ان نسيتها ذكرتني بها كل جارحة من جوارحي ، وكل عضو من أعضائي • ان أثقلت الطعام قالت المعدة : حاذر انك لم تعد شابا • وان مارست ما كنت

أمارس من الرياضة قال القلب : قف انك لست بشاب . وان تعرضت للبرد قالت المفاصل : تنبه ، لقد فارقت عهد الشباب .

وان تطلعت الى الحب ، أو ابتسمت للجمال ، قال الفؤاد الملول السأمان ... ويا ما أشد ما يقول الفؤاد السأمان الملول !

وان اشتعلت في الأعصاب نيران الحماسة ، وأخذت (ذلك) القلم الذي كنت أكتب به في الأيام الخوالي ، تراءت لي هموم الأسرة ، فأطفأت نار الحماسة في أعصابي .

كنت وحيدا خفيفا ، وكان لي جناحان من أحلامي وأماني ، فأثقل ظهري بناتي الأربع وأمهن وعماتهن وعمة أبيهن ، واصطدم جناحاي بأرض الواقع ، وتبيّنت ضلال الأحلام وكذب الأماني ، فتحطم الجناحان ، فكيف يطير بغير جناحين مَنْ يحمل همّ ثماني نساء ؟

اني لأقف الآن لأراجع حسابي ، وأنظر ماذا ربحت وماذا خسرت !

أما الرسالة فقد أفضلت عليّ ، وأضاءت للناس مكاني ، ومشت باسمي الى بلاد ما كنت أسمع بها ، وجاءتني بالشهرة والجاه ومجد الأدب ، وعرفتني باخوان كرام في أقطار ما دخلتها ولا أظن أني سأدخلها ، وهذي رسائلهم تحت يدي من المشرق والمغرب ، من ايران واندونيسيا واليابان ، فهل تعلمون أن للرسالة سوقا وقراء في اليابان ؟ ومن تونس والجزائر ومراكش وأميركا . ولقد كتبت مرة مقالة عن ــ الحياة الأدبية في دمشق ــ فتجاوبت في الرسالة أصداؤها ببضع عشرة مقالة عن حياة الأدب في هاتيك البلدان ، وكانت مناقشة مرة بيني وبين الأستاذ محسن البرازي ، الذي صار رئيس وزراء حسني الزعيم ، ثم قضى رحمه الله . فجاءني التأييد من (جاوا) وهذه جريدة (پرس) بشيراز تنشر الآن كتابي الجديد « كلمات » مترجما الى الفارسية ، بقلم الأديب الفارسي الأستاذ أحمد آرام ، مع تعليقات في المدح والتأييد

شعراً ونثراً ، يمنّ بها عليّ القراء ، وهي على وشك الترجمة الى الأوردية ولولا الرسالة ما كان هذا كله .

ولكن ما جدوى هذا كله ؟ ما الشهرة ؟ ما الجاه ؟

اني لأكتب هذه الكلمة وأنا في دار في مضايا منفردة في الجبل ، وأنا مريض وحيد منعزل ، فهل أذهبت الشهرة عني المرض ، أو دفع الجاه عني الملل ؟ وكذلك أنا في دمشق ، أنا منذ سنين أعيش في حلقة مفرغة لا تكاد تتجاوز الدار والمحكمة ، حتى يوم الجمعة ، وحتى يوم العطلة أذهب الى المحكمة كالحمار « ولا مؤاخذة .. » الذي يدور بالسانية[1] ، ان أطلقت عنقه من الحبل عاد يدور ، لأنه مربوط من قيد العادة بحبل لا تراه العيون .

فماذا ينفعني في عزلتي وسأمي أن يمدحني في بلاد الله مئة ألف ، وماذا يضرني أن يذموني أو ألا يكونوا قد سمعوا باسمي ؟ وماذا يفيدني وأنا أعيش في دمشق عيش الغريب ، أن يكون « وهذا هو الواقع — ولا فخر » بين كل عشرة يمرون في أي شارع فيها ، خمسة على الأقل يعرفون اسمي ، ويحفظون طرفا من مناقبي ، أو أطرافا من مثالبي .

ولقد اشتغلت الجرائد منذ سنة أسبوعا كاملا بشتمي وسبي في صفحاتها الأولى من أجل تلك الخطبة المشهورة ، وفعلت مثل ذلك أيام الانتخاب سنة ١٩٤٧ ، ونسبت الى نقائص تشين ابليس ، فهل يصدق القراء أني لم أبال بها ، حتى أني لم أقرأ أكثرها . أقسم بالله أنّ هذا الذي كان ! ولقد نشرت الجرائد مرات أخرى أطيب الثناء عليّ وألصقت بي مناقب تزين الملائكة فما باليت بها أيضا ، لأن كلا طرفي قصد الأمور ذميم ، والثناء ان زاد كالهجاء ان زاد ، كلاهما أقرب الى الكذب ، وما

(١) السانية : الناعورة ، وتسمى في الفوطة (الحنانة) ومنه المثل المشهور (سير السواني سفر لا ينقطع) .

أنا ملك ولا أنا شيطان ، ولي حسنات ولي سيئات ، وأنا أعرف بنفسي من سائر الناس ...

* * *

اني لأسأل مرة ثانية : ما الشهرة ؟

ان الشهرة وهم ، ليس له في سوق الحقيقة قيمة ، وليس له في ميزان الواقع وزن حتى أن هذا الحرف « أي الشهرة » لا يصح لغة ، ولا تكون الشهرة في الفصيح الا بالعيب والعار والفضيحة ، ولكن الألسنة أدارتها على هذا المعنى ، فكتبنا للناس ما يفهمون .

ان الشهرة سراب زائف ، انها مثل (المستقبل) الذي يركض وراءه الناس كلهم فلا يصلون اليه أبدا ، لأنهم ان وصلوا اليه صار (حاضرا) وعادوا يفتشون عن مستقبل آخر يعدون اليه . كحزمة الحشيش المربوطة برأس الفرس يسعى ليدركها وهي تسعى معه أبداً !

انني أقول هذا من أعماق قلبي مؤمنا به ، ولقد مر علي زمان كان أحلى أماني فيه أن أسير فيشير الي الناس بالأيدي يقولون : هذا علي الطنطاوي ، وأن أعلو خطيبا كل منبر ، وأن أجد اسمي في كل صحيفة ، وكان قلبي يتفتح للجمال ، ويستشرف للحب ، فلما جربت هذا كله ، وذقت لذته ، صار كل ما أرجوه أن أتوارى عن الناس ، وأن أمشي بينهم فلا يعرفني منهم أحد .

لقد مر بي أكثر العمر ، ورأيت الحياة ، ونلت لذاتها وجرعت آلامها لم تبق متعة الا استمتعت بها ، فلا اللذائذ دامت ولا الآلام ، ولا الشهرة أفادت ولا الجاه ، ولقد شهدت حربين عالميتين ، ورأيت تعاقب الدول على الشام من العثمانيين الى الفرنسيين الى مَنْ جاء بعد ، ومَنْ قام

ومَنْ قعد ، ومَنْ أتـى ومَنْ ذهب ، ولو أردت الوزارة وسلكت طريقها لبلغتها من زمان كما بلغها من مشى على أثري في الدراسة وفـي الحياة ، ولو شئت لكنت من المشايخ الذين تقبل أيديهم ثم تملأ بالمال ، فيملكون الضياع والسيارات ، ويصيرون بحرفة الدين من كبار أبنـاء الدنيا ، ولكني ما وجدت شيئا يدوم . تـذهب الوزارة فلا تترك الا حسرة في نفوس أصحابها ، ويصحو الناس فيعلمون أن الذي يأكل الدنيا بالدين ، لا يمكن أن يكون من الصالحين المصلحين ، فزهدت في المناصب والمراتب والمشيخات ، وهانت علي وصغرت في عيني ، ولم يبق لي من دنياي (الآن) الا مطلب واحد : يقظة قلب أدرك بها حقائق الوجود ، وغاية الحياة ، وأستعد بها لما بعد الموت ، وهيهات يقظة القلب في هذا العالم المادي !

ان الذي يبلغ ذروة الجبل تنكشف له الجهة الأخرى ، فيرى ما بعد الانحدار ، وأنا قد بلغت ذروة العمر وانحدرت ولكني لم أبصر شيئاً ، ان الطريق مغطى بالضباب ، وقد أضعت مصباحي في زحمـة الحياة ، ومعترك العيش .

* * *

أما الرسالة فقد أفضلت علي وأحسنت الي . وما أشكوها ، انمـا أشكو دهري ، وأشكو نفسي ، ومن حق الرسالة علي تحية خير من هذه التحية في عيدها الألفي ، ولكني أكتب بيد عليل ، من فكر كليل ، ولي من الاستاذ الزيات الصديق النبيل ، العذر الجميل .

* * *

زوجتي

نشرت سنة ١٩٥٢

قال لي صديق ، معروف بجمود الفكر ، وعبادة العادة ، والذعر من كل خروج عليها أو تجديد فيها . قال :

ــ أتكتب عن زوجك في الرسالة تقول انها من أعقل النساء وأفضلهن؟ هل سمعت أن أحدا كتب عن زوجه ؟ ان العرب كانوا يتحاشون التصريح بذكرها ، فيكنون عنها بالشاة أو النعجة استحياء وتعففا ، حتى لقد منع الحياء جريرا من رثاء زوجه صراحة ، وزيارة قبرها جهارا . ومالك بن الريب لما عدمن يبكي عليه من النساء قال :

فمنهن أمي وابنتاهـا وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيـا

فلم يقل وامرأتي ... وكذلك العهد بآبائنا ومشايخ [١] أهلنا . لم يكن يقول أحد منهم : زوجتي ، بل كان يقول : أهل البيت وأم الأولاد ، والجماعة ، والأسرة ، وأمثال هذه الكنايات . أفترغب عن هـذا كله ، وتدع ما يعرف الناس ، وتأتي ما ينكرون ؟

ــ قلت : نعم !

فكاد يصعق من دهشته مني ، وقال :

ــ أتقول نعم بعد هذا كله ؟

ــ قلت : نعم ! مرة ثانية . أكتب عن زوجتي [٢] فأين مكان العيب

(١) هي مشايخ بالياء لا مشائخ كما يكتب **بعض المتعالين** .
(٢) الزوجة من ألفاظ الفقهاء والفصيح فيها الزوج بلا هاء .

في ذلك ؟ ولماذا يكتب المحب عن الحبيبة [1] وهي زوج بالحرام ، ولا يكتب الزوج عن المرأة والمفروض انها حبيبته بالحلال ؟ ولماذا لا أذكر الحق من مزاياها لأرغب الناس في الزواج . والعاشق يصف الباطل من محاسن العشيقة فيحبب المعصية الى الناس ؟

ان الناس يقرؤون كل يوم المقالات والفصول الطوال في مآسي الزواج وشروره ، فلم لا يقرؤون مقالة واحدة في نعمه وخيراته ؟

ولست بعد أكتب عن زوجي وحدها ، ولكني كما كان هوجو يقول: « اني اذ أصف عواطفي أبا ، أصف عواطف جميع الآباء » .

* * *

لم أسمع زوجاً يقول انه مستريح سعيد ، وان كان في حقيقته سعيدا مستريحا ، لأن الانسان خلق كفورا ، لا يدرك حقائق النعم الا بعد زوالها ، ولأنه ركب من الطمع ، فلا يزال كلما أوتي نعمة يطمع في أكثر منها ، فلا يقنع بها ولا يعرف لذتها . لذلك يشكو الأزواج أبدا نساءهم، ولا يشكر أحدهم المرأة الا اذا ماتت ، وانقطع حبله منها وأمله فيها ، هنالك يذكر حسناتها ، ويعرف فضائلها . أما أنا فاني أقول من الآن ـ تحدثا بنعم الله واقرارا بفضله ـ اني سعيد في زواجي واني مستريح بمقدار ما يمكن أن ينال المرء من السعادة والراحة في هذه الدنيا المفطورة على التعب والشقاء .

وقد أعانني على هذه السعادة أمور يقدر عليها كل راغب في الزواج، طالب للسعادة (النسبية) فيه ، أما السعادة المطلقة ففي الجنة ، فلينتفع

---

(١) من أسرار الذوق في كلام العرب أنهم لا يستعملون في اسم الفاعل الا المحب (من الرباعي) ولا يستعملون في اسم المفعول الا الحبيب . مع أن المحب (بالفتح) والحاب صحيحان . ولكن ما كل صحيح فصيح . فليعلم هذا الذين يظنون الاغراب فصاحة والتقعر بيانا .

بتجاربي من لم يجرب مثلها ، وليسمع وصف الطريق من سالكه من لم يسلك بعد هذا الطريق .

أولها : أني لم أخطب الى قوم لا أعرفهم ، ولم أتزوج من نـاس لا صلة بيني وبينهم ... فينكشف لي بالمخالطة خلاف ما سمعت عنهم ، وأعرف من سوء دخيلتهم ما كان يستره حسن ظاهرهم ، وانما تزوجت من أقرباء عرفتهم وعرفوني ، واطلعت على حياتهم في بيتهم واطلعوا على حياتي في بيتي . اذ ربّ رجل يشهد له الناس بأنه أفكه الناس ، وأنه زينة المجالس ونزهة المجامع ، وهو في بيته أثقل الثقلاء . وربّ سمح و في أهله سمح ، وكريم هو في أسرته بخيل ، يغتر الناس بحلاوة مظهره فيتجرعون مرارة مخبره ..

تزوجت بنتاً أبوها ابن عم أمي لحـّاً[1] ، وهو الأستاذ صلاح الدين الخطيب الذي كان يوما شيخ القضاء السوري وأمها بنت المحدث الأكبر عالم الشام بالاجماع الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله . فهي عريقة الأبوين ، موصولة النسب من الجهتين .

والثاني : أني اخترتها من طبقة مثل طبقتنا . فأبوها كان مع أبي في محكمة النقض ، وهو قاض وأنا قاض ، وأسلوب معيشتـه قريب من أسلوب معيشتنا ، وهذا هو الركن الوثيق في صرح السعادة الزوجية ، ومن أجله شرط فقهاء الحنفية (وهم فلاسفة الشرع الاسلامي) الكفاءة بين الزوجين .

والثالث : أني انتقيتها متعلمة تعليما عاديا ، شيئا تستطيع به أن تقرأ وتكتب ، وتمتاز من العاميات الجاهلات ، وقد استطاعت الآن بعد ثلاثة عشر عاما في صحبتي أن تكون على درجة من الفهم والادراك ، لا تزيد عليها أكثر المتعلمات وأنا أعرفهن وكنت الى ما قبل سنتين ألقي دروساً في مدارس البنات ، على طالبات هنّ على أبواب البكالوريا ، فلا أجدهنّ

(١) قولي (هو ابن عم أمي لحًا) ، كقول العامة ابن عمي (لزم) .

أفهم منها ، وان كنّ أحفظ لمسائل العلوم ، يحفظن منها ما لم تسمع هي باسمه • ولست أنفر الرجال من التزوج بالمتعلمات ، ولكني أقرر ـ مع الأسف ـ أن هذا التعليم الفاسد بمناهجه وأوضاعه ، يسيء على الغالب الى أخلاق الفتاة وطباعها ، ويأخذ منها الكثير من مزاياها وفضائلها ، ولا يعطيها الا قشورا من العلم لا تنفعها في حياتها ، ولا تفيدها زوجاً ولا أماً • والمرأة مهما بلغت لا تأمل من دهرها أكثر من أن تكون زوجة سعيدة وأماً •

والرابع : أني لم أبتغ الجمال وأجعله هو الشرط اللازم الكافي كما يقول علماء الرياضيات لعلمي أن الجمال ظل زائل ، لا يذهب جمال الجميلة ، ولكن يذهب شعورك به ، وانتباهك اليه ، لذلك نرى من الأزواج من يترك امرأته الحسناء ويلحق من لسن على حظ من الجمال ، ومن هنا صحت في شريعة ابليس قاعدة الفرزدق وهو من كبار أئمة الفسوق ، حين قال لزوجه النوار في القصة المشهورة : ما أطيبك حراما وأبغضك حلالا !

والخامس : ان صلتي بأهل المرأة لم يجاوز الى الآن ، بعد ثمن قرن من الزمان ، الصلة الرسمية : الود والاحترام المتبادل ، وزيارة الغب ، ولم أجد من أهلها ما يجد الأزواج من الأحماء من التدخل في شؤونهم ، وفرض الرأي عليهم ، ولقد كنا نرضى ونسخط كما يرضى كل زوجين ويسخطان ، فما دخل أحد منهم يوما في رضانا ولا سخطنا •

ولقد نظرت الى اليوم في أكثر من عشرين ألف قضية خلاف زوجي، وصارت لي خبرة أستطيع أن أؤكد القول معها بأنه لو ترك الزوجان المختلفان ، ولم يدخل بينهما أحد من الأهل ولا من أولاد الحـ ••• لال، لانتهت بالمصالحة ثلاثة أرباع قضايا الزواج •

والسادس : اننا لم نجعل بداية أيامنا عسلا ، كما يصنع أكثر الأزواج، ثم يكون باقي العمر حنظلا مرا وسما زعافا ، بل أريتها من أول يوم أسوأ

ما عندي ، حتى اذا قبلت مضطرة به ، وصبرت محتسبةً عليه ، عدت أريها من حسن خلقي ، فصرنا كلما زادت حياتنا الزوجية يوما زادت سعادتنا قيراطا •

والسابع : أنها لم تدخل جهازا ، وقد اشترطت هذا لأني رأيت أن الجهاز من أوسع أبواب الخلاف بين الأزواج ، فاما أن يستعمله الرجل ويستأثر به فيذوب قلبها خوفا عليه ، أو أن يسرقه ويخفيه ، أو أن تأخذه بحجز احتياطي في دعوى صورية فتثير بذلك الرجل •

والثامن : أني تركت ما لقيصر لقيصر ، فلم أدخل في شؤونها من ترتيب الدار وتربية الأولاد ، وتركت هي لي ما هو لي ، من الاشراف والتوجيه ، وكثيرا ما يكون سبب الخلاف لبس المرأة عمامة الزوج وأخذها مكانه ، أو لبسه هو صدار المرأة ومشاركتها الرأي في طريقة كنس الدار ، وأسلوب تقطيع الباذنجان ، ونمط تفصيل الثوب •

والتاسع : أني لا أكتمها أمرا ولا تكتمني ، ولا أكذب عليها ولا تكذبني ، أخبرها بحقيقة وضعي المالي ، وآخذها الى كل مكان أذهب اليه أو أخبرها به ، وتخبرني بكل مكان تذهب هي اليه ، وتعود أولادنا الصدق والصراحة ، واستنكار الكذب والاشمئزاز منه •

ولست أطلب من الاخلاص والعقل والتدبير أكثر مما أجده عندها ، فهي من النساء الشرقيات اللائي يعشن للبيت لا لأنفسهن • للرجل والأولاد ، تجوع لنأكل نحن ، وتسهر لننام ، وتتعب لنستريح ، وتفنى لنبقى • لا تني تنظف وتخيط وتسعى وتدبر ، همها اراحتي واسعادي ، ان كنت أكتب ، أو كنت نائما أسكتت الأولاد ، وسكنت الدار ، وأبعدت عني كل منغص أو مزعج • تحب من أحب ، وتعادي من أعادي • ان حرص النساء على رضاء الناس كان حرصها على ارضائي • وان كان مناهن حلية أو كسوة فان أكبر مناها أن تكون لنا دار نملكها نستغني بها عن بيوت الكراء •

تحب أهلي ، ولا تفتأ تنقل الي كل خير عنهم . ان قصرت في بر أحد منهم دفعتني ، وان نسيت ذكرتني ، حتى أني لأشتهي يوماً أن يكون بينها وبين أختي خلاف كالذي يكون في بيوت الناس ، أتسلى به، فلا أجد الا الود والحب ، والاخلاص من الثنتين ، والوفاء من الجانبين، وليس معنى هذا أننا لا نختلف ولا نتخاصم فما يخلو بيت من أمثال هذا ، ولو خلا بيت منه لخلا أفضل البيوت على الاطلاق بيت محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن سرعان ما نصطلح ونعود الى الوئام والسلام. وهي ككل امرأة عربية مسلمة لا تعرف في دنياها الا زوجها وبيتها ، ويزهد مع ذلك بعض الشباب فيها ، فيذهبون الى أوربة أو أميركة ليجيئوا بالعلم فلا يجيئون الا بورقة في اليد وامرأة تحت الابط ، امرأة يحملونها يقطعون بها نصف محيط الأرض أو ثلثه أو ربعه ، ثم لا يكون لها من الجمال ولا من الشرف ولا من الاخلاص ما يجعلها تصلح خادمة للمرأة الشرقية ، ولكنه فساد الأذواق ، وفقد العقول ، واستشعار الصغار ، وتقليد الضعيف للقوي . يحسب أحدهم أنه ان تزوج امرأة من أميركا، وأي امرأة ؟ عاملة في شباك السينما ، أو في مكتب الفندق ، فقد صار طرمان [1] ، وملك ناطحات السحاب ، وصارت له القنبلة الذرية ، ونقش اسمه على تمثال الحرية .

* * *

ان نساءنا خير نساء الأرض ، وأوفاهن لزوج ، وأحناهن على ولد ، وأشرفهن نفسا ، وأطهرنا ذيلا ، وأكثرهن طاعة وامتثالا وقبولا لكل نصح نافع وتوجيه سديد . واني ما ذكرت بعض الحق من مزايا زوجتي الا لأضرب المثل من نفسي على السعادة التي يلقاها زوج المرأة العربية (وكدت أقول الشامية) المسلمة ، لعل الله يلهم أحدا من عزاب القراء العزم على الزواج فيكون الله قد هدى بي ، بعد أن هداني !

(١) تعريب ترومان .

* * *

من رسائل الصيف

وهي سلسلة كنت أنشرها في (ألف باء) سنة ١٩٣٣ لم يبق لديّ منها الاّ هذه الرسالة ورسالة أخرى . وقد ضاع سائرها فيما ضاع من مقالاتي .

الى صديقي (فلان) :

لست أدري من أين أبدأ أحاديثي الكثيرة التي سأصبها في هذه الرسالة صباً ؟ وأخشى أن أبعث بها اليك مهوشة مضطربة ، قد تداخل بعضها في بعض ، فلا تفقه منها شيئاً . وأنا كما عهدتني قبل أن تأخذ طريقك الى مصيفك هذا الجميل الذي تنعم فيه — وكما يعهدني أصدقائي جميعاً . رجل فوضى واضطراب ، أغدو ولي وجهة أنا موليها ، وعمل أريد أن أذهب اليه ، فلا أبعد حتى تحملني موجة من موجات الحياة الى غير ما قصدت ... ومالي أحدثك عني قبل أن أسألك كيف أنت ، وهل أنت ساكن الى حياتك في هذا المغنى الوادع ، قانع من الدنيا بجلسة على صخرة (بقين) ، والسهل تحت قدميك كأنه بساط من السندس ، لولا أنه يفيض بالحياة فهو أسمى وأبهى ... أم أنت متبرم بهذه العزلة ، تحن الى صخب المدينة وضوضائها ؟... وهل الطبيعة كما يقولون كائن حي له كآبته وبهاؤه ، وحزنه وسروره ؟... وهل يفيض بهاؤها وكآبتها على من يجاورها ، ويلقي بنفسه في حضنها ؟ أما أنا فأحسب ذلك حديث خرافة ، وأعتقد أن الانسان هو الذي يمنح الطبيعة (وأسألك الاغضاء عن هذه الكلمة ، فلست أول من استعملها في غير مكانها) ، أقول ان الانسان هو

الذي يمنح الطبيعة الحزن والسرور ، فيراها ضاحكة مستبشرة ، اذا كان هو الضاحك المستبشر ، ويراها كامدة مظلمة ، اذا كان مظلم النفس خاثرها ، وأكاد أؤمن برأي هذا المجنون الانكليزي بركلي ـ ولا تغضبك كلمة المجنون فلقد عنيت بها العبقري ! ذاك الذي يقول : الدنيا صحيفة بيضاء كصحيفة السينما ، لا شيء فيها وانما تسقط الصور اليها من الصندوق ، وما صندوق الحياة الا رأسي ورأسك ، ورؤوس اخواتنا أعضاء المجمع الأدبي ، واننا قادرون بعون الله الذي جعلنا أدباء (أو أنصاف أدباء ، لا بأس) على أن نرى الدنيا على غير ما خلقها الله ، ونأخذ كل شيء مقلوبا ، ونخترع أشياء ما وجدت كالحب العذري ، ولا أثر لمدلولاتها الا في رؤوسنا الطاهرة وصفحات الكتب .

مالك بهت ، ورحت تلحف في السؤال عن هذا المجمع . ألا تسكت لحظة فأحدثك حديثه : أنشىء هذا المجمع يا صديقي من السيد منير العجلاني (سكرتيراً أو ناموساً اذا اخترت الكلمة العربية) والسيد محمد الجيرودي (خازناً) والسيد أنور العطار والسيد ميشيل عفلق والسيد ... أنا (أعضاء اداريين) والسيد سليم الزركلي والسيد جميل سلطان والسيد حلمي اللحام والسيد زكي المحاسني والسيد مصطفى المحايري (أعضاء عاملين) ، هؤلاء جميعا هم الأعضاء المؤسسون وقد انضم اليهم السادة : كامل عياد ومصطفى العظم وأنور حاتم ، وكل هؤلاء ممن تعرف عناءهم ...

أما غاية المجمع فهي انعاش الروح الادبية في هذا البلد والتعاون على الانتاج ، والأخذ بضبعي كل أديب نابغ أقعده عن الظهور عارض من عوارض الدهر . وانشاء أدب جديد قوي .. والتجديد كما نفهمه ـ أو كما أفهمه أنا على الأقل ـ لا يكون بقطع الصلة بالماضي ولا بالخروج على قواعد اللغة العربية وسنن العرب في كلامها ولا بالدعوة

الحمقاء الى اللغة العامية ، والى تحطيم قواعد النحو واعلان الحرية اللغوية وانزال الفاعل الذي تعب من الارتفاع هذه العصور الطويلة ورفع المجرور الذي طالما انخفض وذل ... كلا . ولست أسمي شيئاً من هذا بالتجدد ولكنها هو التجرد والحماقة . فاللغة يجب أن تبقى كما هي في قواعدها وسننها — ولنصبّ فيها بعد ذلك ما شئنا من أساليب جديدة وأفكار جديدة وكتب جديدة ، أي أن نفعل فعل العرب في فجر الدولة العباسية حين ترجموا كتب اليونان والفرس ، فجعلوها عربية ، ولم يجعلوا لغتهم من أجلها يونانية ولا فارسية ولا لغة ممسوخة ، كل كلمة فيها هي من أصلها العربي كالقرد والخنزير من الانسان . هذه اللغة القردية التي نراها في الصحف والمجلات التي تترجم عن الانكليز والفرنسيين أدبهم وشعرهم والتي أنفق ساعة كاملة في تفهم الفقرة الواحدة منها ثم لا أفهمها ... فأول شرط اذن من شروط التجديد هو حفظ الصلة بين أدبنا وأدب العرب ولا يكون ذلك الا بانقطاع طائفة منا الى تراثنا الأدبي الثمين الذي يسميه بعض الجاهلين سخرية وهزءاً بتراث (الكتب الصفراء) ... نعم يجب أن تنقطع طائفة منا الى هذه (الكتب الصفراء) — فيقرؤوها ويفقهوها حق الفقه ، يجب أن نقرأ النحو لا في هذه الكتب المدرسية فحسب بل في المغني والأشموني وفي كتاب سيبويه وفي مفصل الزمخشري . وأن نقرأ كتب اللغة ، وأن نطالع كتب الأدب العربي الكبرى كالأغاني والكامل والبيان والأمالي ، وأن نقرأ كتب البلاغة وأن ندرس الأصول والمنطق ، ونقرأ تفسير الكشاف مثلاً، وكتاباً آخر في الحديث ، وأن يكون تحت أيدينا كتاب من كتب اللغة موسع كاللسان أو التاج أو القاموس على الأقل . وأن نرجع اليه عشر مرات في اليوم ... ولعلي أفزعتك وأوقعت في وهمك أني رجعي لأني أفرض هذا كله على كل أعضاء المجمع . كلا يا سيدي أنا لا أفرض

على أحد فرضاً ولكني أراه فرض كفاية علينا ، يجب أن يقوم به بعض، كما يقوم بعض بتفقه الأدب الانكليزي أو الفرنسي ودراسة مناهج النقد فيه ، وأصول التحليل وتطبيقها على أدبنا ، وكما نجد كثيرين منا كالسيد العجلاني وعفلق يقبلون على العمل في هذه الجهة ، نرى آخرين كالسيد الأفغاني والسيد الجيرودي وأنا ، يقبلون على العمل في الجهة الاخرى ، وأكاد أثق أن الأفغاني والجيرودي لا يقلان منذ الآن ادراكا وفقها لهذه العلوم الاسلامية العربية عمن أفنى عشرين سنة من حياته في دراستها وحدها ، فاذا راضا نفسيهما على دراستهامن جديد ، والانقطاع اليها كان منهما ومن أمثالهما تلك الطبقة من الأدباء التي تألم الاستاذ أحمد أمين لفقدها في مصر ودعا الى تكوينها [1] .

* * *

وبعد فلعلي أزعجتك يا صديقي بهذه الأحاديث ، ولعلها جوفاء لا شيء فيها ، فأنا أعتذر اليك والى أصدقائنا القراء . وأرجو ألا يكثروا لي الشتائم ... والى الملتقى في رسالة اخرى . تكون أقل سخفاً !

* * *

(1) في مقالة لي عنوانها (الحلقة المفقودة) ، أفتقد فيها طبقة من الناس تجمع بين علوم الدين وعلوم العصر ، وقد وجدت عندنا الآن والحمدلله، وكان أول تلميذ من تلاميذ المدارس الحديثة اشتغل معها بعلوم الدين كاتب هذه السطور وسعيد الأفغاني ، ومن بعدهما الاساتذة مظهر العظمة ومحمد المبارك ومحمد كمال الخطيب ، وأول شيخ اشتغل بعلوم العصر الاستاذ الزرقا (وقد نال البكالوريا بعدي بسنة) ، ثم الأساتذة صبحي الصباغ ومعروف الدواليبي ثم تعاقب الناس من الجانبين . وانا اكتب هذا التاريخ. اما هذا المجمع الأدبي فلم يصنع شيئاً لأنه الّف تأليف الزيت والماء ، مهما خضضتهما وجمعتهما ، عادا فافترقا ، لأنهما من جنسين متباينين ، وطبيعتين مختلفتين .

في لج البحر

نشرت سنة ١٩٥٥

مات علي الطنطاوي ...

... وليس عجباً أن يموت ، والموت غاية كل حي ، ولكن العجيب أن يرجع بعدما مات ، ليصف لقراء (المسلمون) الموت الذي رآه !

وكان ذلك من شهرين ، وكان على سيف البحر في بيروت ، وكان البحر هائجاً غضبان ، يرمي بأمواج كأنها الكثبان ، وقد فرّ منه الناس ، فليس في الشطوط كلها ، على طولها وامتدادها (من سان سيمون الى الأوزاعي) الاّ نفر قليل .

ولم يكن يعرف من السباحة الاّ درساً واحداً ، كان قد تلقاه من أكثر من ثلث قرن ، على معلم لم يسبح أبداً ، هو أن يقف حيث لا يصل الماء الى الصدر ، ثم يحاول أن ينبطح ، ويسيب قدميه ، ويخبط[1] بيديه ، ويبقى على ذلك مقدار مايبتلع من ماء البحر (وهو كشربة الملح الانكليزي) ما يملأ معدته وأنفه ... ثم يخرج . وكان معه شاب تونسي من علماء جامع الزيتونة ، لا يمتاز في السباحة عنه الاّ بأنه أجهل فيها منه ، حتى هذا الدرس لم يحضره لأنه لم يكن ولد ، فلما كبر لم يستطع أن يأخذ مثله ، لأن ذلك (المعلم) كان قد مات .

وتركا (الحمام) حيث النساء العاريات ، مضطجعات ومنبطحات ، رافعات السوق باديات العورات ، وابتغيا مكانا منعزلا وراء صخرة مستديرة تطيف به اطافة الجدار ، فتجعل من مائة الذي لا يبلغه من ورائها الموج بركة آمنة ساكنة الماء ، قريبة القرار ، لا تغط[2] صبياً ، فنزلا فيها ، قال :

---

(١) من العامي الفصيح . (٢) من العامي الفصيح .

وأخذت أسبح السباحة التي أعرفها : أرفع رجليّ ، وأحرك يديّ ، فاذا تعبت خرجت استمتع بالشمس والهواء ، وكنت ممتلئاً صحة ، أكاد أتوثب من النشاط توثباً ، أحسّ كأن الأرض تدفعني عنها دفعاً ، وكان الموت بعيداً عن فكري ، والموت أبداً أبعد شيء في أفكارنا عنا ، وان كان أقرب شيء في حقيقته منا ، تتناساه وهو عن أيماننا وشمائلنا ، نشيّع الجنائز ونمشي معها ونحن في غفلة عنها نتكلم كلام الدنيا ، ونرى مواكب الأموات تمر بنا كل يوم ، فلا نفكر ولا نعتبر ، ولا نقدّر أننا سنموت كما ماتوا ، ومات من كان أصح منا صحة ، وكان أشد منا قوة وأكبر سلطاناً ، وأكثر أعواناً ، فما دفعت عنه الموت لما جاءه صحته ولا قوته ، ولا حماه منه سلطانه ولا أعوانه ، نعرف بعقولنا أن الموت كأس سيشرب منها كل حي ، ولكننا ننسى هذه الحقيقة بشعورنا وعواطفنا ، وتحجبها عنا شواغل يومنا ، وتوافه دنيانا ، يقول كل واحد منا بلسانه : ان الموت حق وأنه مقدر على كل حيّ ، ويقول بفعله : لن أموت ، لقد كتب الموت على كل نفس الا نفسي ، فلا يزال في العمر فسحة لي دائماً ، ولن يأتي أجلي أبداً .

وعاودت الدخول في الماء ، وأطلت البقاء فيه ، وما أحسست وأنا أتزحزح شبراً فشبراً ، أني جاوزت هذه البركة ، وبلغت موضعاً من البحر عميقاً ، علمت بعد أن فيه تياراً يتحاماه السباحون القادرون ، فكيف بمن لم يكن يتقن من السباحة الا فن الرسوب ؟

وحاولت الوقوف فاذا أنا لا أجد الأرض الصلبة من تحتي ، وحاولت أن أرفع رأسي فأنظر ، فاذا أنا لا أجد الهواء ولا أبصر شيئاً ، وأحسست الماء الملح قد تدفق على فمي ، وأنفي ، فأنا لا أملك الا أن أبلعه وأنشقه ، وبدأت أحسّ آلاماً لا تصوّر ولا توصف ، ليست في الرأس ، وليست في عضو من الأعضاء وحده ، ولكنها في كل ذرة من جسدي وروحي ،

وشعرت كأن قد ألقيت عليّ صخرة ضخمة ، وأن أعصابي تجذب من تحتها وتقطع ، كما تجذب خيوط الحرير مما خالطها من الشوك ، وصار كل همي من دنياي أن أجد نسمة واحدة من الهواء فلا أجدها ، فقلت : هذا هو الموت ، هذا هو الموت الذي أفر من الكلام فيه والحديث عنه ، والذي أراه بعيداً عني ، لم يحن حينه ، ولم يدن موعده ، لذلك كنت أؤجل التوبة من يوم الى يوم ، أقول اذا بلغت سن الشباب تبت ، فلما بلغتها قلت ، أتوب في الأربعين فلما جاوزتها قلت : أنتظر حتى أتم بناء الدار ، فلما أتممتها قلت: أتوب وأتفرغ الى الله ، اذا بلغت سن التقاعد[1]، كأني أخذت على مَلَك الموت عهداً ، ألاّ يطرق بابي حتى أبلغ سن التقاعد ، فها هو ذا قد جاء على غير ميعاد !

وكان أول ما خطر على بالي ، أني كنت أتمنى ميتة سهلة سريعة تكون على الايمان ، وأن هذه الأمنية تلازمني من أزمان ، فخشيت أن أكون قد سعيت الى هذه الميتة فأكون (والعياذ بالله) منتحراً ، ورحت أفكر فيما صنعته من لدن دخلت الماء ، فاذا أنا لا أذكر من ذلك شيئاً ، واذا أنا أشعر أنه غدا بعيداً عني كأنه قد كان من مئة سنة ، لا من دقائق معدودات ، وصغرت الدنيا في عيني ، كأني أراها من طيارة قد علت في طباق الجو ، ومن كان على سفر ، يسرع ليلحق القطار ، هل يرى من الشوارع التي يجتازها شيئاً ؟ وهل يغريه منها جمال ساحر ، أو فن طريف ؟ انه يحسّ بها غريبة عنه ، وأنها ليست له ، ويغدو منظرها في عينيه كصورة زائغة (فلو) فكيف ينظر الى هذه الدنيا من أيقن بالموت ؟

لقد امّحت (والله) صورة الدنيا كلها من أمامي ، ومالي وللدنيا ، ولم يبق لي فيها الا لحظات معدودات ، أنا أتجرع فيها ثمالة كأس الآلام ؟ لم يبق لي منها ما يغريني بها ، حتى الأهل والولد شغلت بنفسي

---

(١) أي سن المعاش في الاصطلاح المصري ، (والتقاعد) أصح عربية ، وأقرب مدلول وكذلك اصطلاحاتنا الشامية كلها .

عنهم ، فلا تصدقوا ما تقرؤونه في القصص من أن المشرف على الغرق ، يفكر في أحبائه أو في أعماله ، أو في أدبه وعلمه ومقالاته وأشعاره ، أو يهمه ما يقال فيه من بعده ربما كان ذلك من غير المسلم ، أما المسلم فلا يرى في تلك الساعة الا ما هو قادم عليه .

وازدحمت علي الخواطر فيما أفعله ، فحاولت التشهد والتوبة أولا ، فلم أستطع النطق بشيء مما كان في فمي من الماء ، وازدادت علي الآلام ولكنها لم تقطع خواطري ، وكان ذهني في نشاط عجيب ما أحسست مثله عمري كله ، وكنت بين خوف من الموت ورغبة فيه : أرغب فيه أرجو أن تكون هذه الميتة على الايمان ، وأخاف لأنه ليس لدي ما أقدم به على الله ، وقد فاجأني الموت ، كما يفاجيء الامتحان التلميذ المهمل ، الذي لا يزال يؤجل المطالعة والحفظ ، ويقول : الامتحان بعيد ، وتمضي الأيام ، حتى اذا رآه صار أمامه قطع أصابعه ندماً ، وأذهب نفسه حسرة ، وما نفعه ذلك شيئاً .

هذا وهو امتحان يسير ، أسوأ ما فيه أن تذهب بالسقوط فيه سنة من عمره سدى ، فكيف بالامتحان الأعظم ، الذي ما بعده الا النعيم الأبدي في الجنة ، أو الشقاء الطويل في النار ، الامتحان الذي ليس فيه (اكمال) ولا تعاد له دورة ، ولا يجبر فيه (كسر) درجة ، ولا تنفع فيه شفاعة شافع ، ولا وساطة ذي جاه أو مال ، ورأيت موقف الحساب رأي العين ، وقد شغلت كل امرىء نفسه ، والناس يدعون ليأخذوا نتائج الامتحان ، فمن أخذ كتابه بيمينه ، وحمل الى الجنة فهذا هو الفائز ، ومن أخذ كتابه بشماله وسيق الى النار ، فهذا هو الخاسر ، وهذا هو الخسران المبين .

وعرضت عملي ، فلم أجد لي عملاً من أعمال الصالحين ، فلا أنا من أهل المراقبة الذين لا يغفلون عن الله طرفة عين ، ولا أنا من المتعبدين

الذين يقومون الليالي الطوال والناس نيام ، ويناجون ربهم في الأسحار ، وما أنا من المتقين الذين يجتنبونَ المحرمات ، ما أنا الا واحد من الغافلين المذنبين ، اي والله فبمَ أقدم على الله ؟

ونظرت فاذا كل الذي ربحته من عمري لحظات ، لحظات كنت أحسُّ فيها حلاوة الايمان ، وأخلص فيها التوجه الى الله تقابلها عشرات من السنين كنت سابحاً فيها في بحار الغفلة ، تائهاً في بيداء الغرور ، أحسب من جهلي ، أن الأيام ستمتدُّ بي ، لم أدر أن العمر ساعات محدودة ، وأن ذلك هو رأس مالي كله ، فان أضعته لم يبق لي من بعده شيء .

وذكرت حديثاً كنت حفظته في صباي « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شُغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك » وندمت على أن لم أكن وضعته في صدر مجلسي ، واتخذته منهجاً لحياتي ، ولكني لم أعرف (مع الأسف) معناه ، ولم أدرك حقيقته ، الا عندما انتهت حياتي .

وفكرت فيما كنت أكابد من ألم الطاعة ، فاذا الألم قد ذهب وبقي الثواب ، ونظرت فيما استمتعت به من لذة المعصية ، فاذا هو قد ذهب وبقي الحساب ، فندمت على كل لحظة لم أجعلها في طاعة ...

ونظرت فاذا المقاييس كلها ، تتبدل ساعة الموت ، واذا كل ما كنت أحبه وأنازع عليه ، قد صار عدما ! واذا أنا لم آخذ معي شيئاً ، بنيت داراً فما حملت معي منها حجراً ، واقتنيت مالا فما كان لي منه ، الا ما ظننت من قبل أني خسرته ، وهو ما أخرجته لله ، وكتبت آلافاً من المقالات في عشرات من السنين ، وكان لي من القراء والمستمعين ملايين وملايين ، فما نفعني الا كلمة قلتها لوجه الله ، وأين هي ؟ لقد تركني هؤلاء المعجبون (كما يقولون) بأدبي وبياني أموت الآن وحدي ، ماجاء واحد منهم ليأخذ بيدي ، وما أقبل واحد منهم يدفع الموت عني !

وعرفت لذائذ الحياة كلها ، فما الذي بقي في يدي وأنا أموت غرقاً من لذائذ الحياة كلها ؟

وما الذي استبدلته بالعمل الصالح الذي لا أرجو النجاة الآن الا به؟

لقد كان ابليس يشغلني عن الخشوع في الصلاة بالتفكير في البنطال[1] أن يفسد كيّه السجود ، ويخوفني أن تذهب صحتي ، بقطع المنام لصلاة الفجر أو صيام أيام الحر من آب ، وأن أخسر حسن رأي الناس فيّ ان جهرت بقولة الحق ، أو أن ينالني من ذلك أذى في جسدي أو في رزقي!

فوجدتني الآن أخسر الناس ، اذ بعت النعيم الباقي ، بهذا الوهم الزائل ، كزنوج افريقية الذين يعطون كنوز بلادهم وخيراتها ، ليأخذوا خرزات لماعة ، أو ساعة طنانة ، أو هنة هينة من هنات الحضارة .

أو كأهل الجزيرة التي أراد الأميركيون أن يخلوها ليتخذوها مكاناً لتجربة قنبلة ذرية يفجرونها فيها ، فبعثوا الى أهلها رسلاً منهم، يخبرونهم وينذرونهم ، ان هذه الجزيرة ستدمَّر ، وأنه لن يبقى فيها لحي مقام ، وأنها صارت دار ممر ، وأن أمريكا هي دار المستقر ، وأن من سلّم أثاثه ورياشه وماله ، أعطوه في أميركا خيراً منها ، وأبدلوه بالخيمة في الجزيرة داراً في نيويورك ، وأن الطيارات ستتوالى على الجزيرة لنقل أهلها فليكونوا جميعاً على استعداد ، فانه لا يدري أحد متى سينقل ، وليعلموا أنه ليس لأحد أن يحمل معه من متاعه شيئاً ، الا ما كان قدمه وسيجده أمامه .

أما العاقل فيبذل ما لديه من متاع ، ويعلم أن الذي يعطيه اليوم ، هو الذي يبقى له غداً ، وأن الذي يحتفظ به ويخفيه يخسره ويخرج من يده ، ويكون مستعداً للسفر في كل لحظة ... وأما الأحمق فيتمسك بخيمته ومتاعه القليل ويقول : أنا باق هنا ، هذه هي داري ، وهذا متاعي،

---

(١) البنطال : تعريب بنطلون .

وما الدار الآخرة في أميركا ، الا أكاذيب جرائد ، وأساطير محررين ، ولن أكون أحمق فأبيع عاجلا حاضراً ، بأجل موهوم ، ويـرى النـاس يطيرون كل يوم فلا يفكر ويظن أنه وحده هو الباقي ، حتى يجيء دوره ، فيحمل قسراً لا يملك دفعاً ولا منعاً ، ويخسر ما كان له في الجزيرة ، ولا يلقى في أمريكا الا جحيم الفقر والحاجة الى الناس .

وطغى علي ألم الموت ، ولم يعد في طوقي أن أفكر ، فتوجهت الى الله وتصورت كرمه وعفوه ، وكـان يغلب علي الأمل وحب الحيـاة ، فأضرب بيدي ورجلي وأرفع يميني أشير بها ، ثـم يدركني اليـأس فأسلم أمري الى الله ، ولم أكن أتمنى بعد المغفرة ، الا شيئاً واحداً ، هو أن يخفف الله عني بتعجيل موتي ، أخشى أن يطول بي هذا الألم فوق ما طـال .

وقد خيل الي أني بقيت على ذلك ساعات ، ولكن تبين لي من بعد ، أني لم ألبث أكثر من دقيقتين ، في دقيقتين أحسست هذه الآلام ، ومرت في ذهني هذه الخواطر .

وهذا من العجائب التي أودعها الله النفس البشرية ، فأنت ترى حلماً تعيش فيه عشرين سنة بأحداثها ، ولا تكون قد نمت أكثر مـن خمس دقائق .

ثم لما خارت قواي ، وأوشكت أن أغوص فلا أطفو أبداً ، خيل الي أني أسمع أصواتاً تناديني ، وأحسست بيدي تمس شيئاً صلباً ، أدركت أنه طرف زورق ، ففرحت فرحة ما فرحت قط مثلها ، وشعرت أني أرفع الى الزورق ، ثم غبت عن نفسي وهم يمسكون برجلي لأخرج بعض ما في جوفي من ماء البحر .

لقد خرجت بنفس جديدة ، واتعظت موعظة أرجو أن تـدوم لي ،

وعرفت قيمة الحياة ، وحقيقة الموت ، ونحن لا نعرف من الموت الا ظاهره دون حقيقته ، نراه عدما ، ونندب القريب والحبيب أن وضعناه في حفرة باردة ، وخلفناه وحيداً ، تأكله الدود ، وليس حبيبك الذي أودعته الحفرة ، ولكن جسده ، والجسد ثوب يخلع بالموت ، كما تخلع الحية ثوبها ، فهل يبكي أحد على ثوب خلع ؟

وما الموت الا انتقال الى حياة أرحب وأوسع ، الى النعيم الدائم أو الشقاء الطويل ، ولو كان الموت فناء لكان نعمة .

ولو أنـّا اذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حيّ
ولكنا اذا متنا بعثنا ... ونسأل بعدها عن كل شيّ

فاذا كان الموت سفرة لابدّ منها ، فالعاقل من تهيأ لها ، وأعدّ لها الزاد والراحة ، وذكرها دائماً كيلا ينساها ، ونظر في كل شيء ، فان كان مما يستطيع أن يحمله فيها حرص عليه ، وان كان مجبراً على تركه وراءه زهد فيه وانصرف عنه ...

وبعد فلا يهنئني أحد بالسلامة ، بل ليدع لنفسه ولي بحسن الخاتمة ، فأني أخاف والله الا أجد ميتة أكون فيها حاضر القلب مع الله ، مستشعراً التوبة ، متصوراً الدار الآخرة ، كما كنت هذه المرة .





اذيعت سنة ١٩٥٩

هذه شكوى ، ولكن ممن ؟ ولمن ؟ لست أدري !

أسمع الآن أذان الفجر ، وأنا في الفراش ، أكتب وأجفاني مطبقة من النعاس ، فاليدتكادتجري بنفسها ، وأنا لا أبصر ، أماالخط فخرابيش لا يقرؤهـا الا" أنا .

ذلك أني لبثت أتقلّب في الفراش الى الآن ، أغفي لحظة ثم استيقظ وما ذاك عن مرض ، فأنا ولله الحمد نشيطقوي أمارس الرياضة ، وأحس دبيب الصحة في عضلاتي كأني شاب في الثلاثين ، وما عن هم" العيش والفكر في المـال فانه يرد علي" والحمد لله ما يكفيني ويزيد عني ، وما عن خلاف في البيت ، أو مشاكل مع الناس فانا مستريح في بيتي وقد تركت الناس فلا اعاملهم ولا أقاربهم ولا أشتري ولا أبيع ، ولا أشتغل بسياسة ولا رياسة ، فاسترحت من الناس .

فمالي اذن لا أنام ؟ انه هم أكبر من هـذه الهموم كلها ، انه هم الأدب ، ان ما أنا فيه أصعب من عمل العامل الذي يحفر الطريق ، ويضرب المعول من الصباح الى المساء ، أصعب والله ، لأن العامل يتعب حتى يسيل عرقه ولكنه يجد اذا أكل شهية حاضرة ، واذا وضع جنبه على الأرض نام ، وأنا أصبح جائعا فلا أجد الرغبة الصحيحة في الطعام فاذا أكلت وأنا أفكر لم أهضم ما أكلت ، ويقتلني النعاس فأتقلب فلا أستطيع أن أنام ، وهل ينام من يدق رأسه بالحجر ، ان رأسي يدق ولكن من داخل،

فيه أفكار تجري وتصطدم فتقرعه فكيف أنام وهذه الأفكار تدق رأسي دق الحجارة ؟

أفكار المقالات والأحاديث والقصص .

ان عليّ أن أعدّ لكم كل جمعة هذا الحديث ، وعلي أن أعدّ خطبة الجمعة في مسجد الجامعة أو أفتش عمن أوكله بها وعليّ أن أكتب مقالة الاثنين في الايام وأنا مرتبط بثلاث مجلات أكتب بها ومجلات أخرى أعاود الكتابة فيها حينا بعد حين ، وعندي كتب أعدّها للطبع ، وقد عهدت اليّ داران للنشر أن أكتب لهذه سلسلة من القصص الصغار ولتلك سلسلة في تراجم الرجال ، وعلي فوق ذلك عملي في المحكمة وهو وحده يملأ وقت مثلي ورأسه ويستنفد قواه ، اني أتمنى أن أعيش شهرا لنفسي كما يعيش الناس ، وأين مني ما أتمناه ، ان الناس اذا سمعوا خبرا أو قرؤوا قصة فكروا في ذلك لأنفسهم ، وأنا ان سمعت أو قرأت فكرت كيف أبني على ذلك مقالة أو أصوغ منه قصة ، وان رأى الناس مشهداً من مشاهد الطبيعة أو فلما من أفلام السينما استمتعوا به لأنفسهم ، وان رأيته أنا فكرت كيف أصفه لأمتع به القراء والمستمعين ، وان فرحوا أو حزنوا ، كان فرحهم أو حزنهم لهم ، وفرحي أنا أو حزني للناس ، أعمل من أجل ذلك عمل المجانين .

أقف في الطريق لأدون فكرة طرأت عليّ تصلح لحديث أو مقال ، وأكتب في زحمة الترام اذذكرني الترام بشيء يصلح لحديث أو مقال ، والى جنب سريري الورق والقلم مربوط بالمصباح ، فكلما خطرت لي فكرة أضأت المصباح وكتبت ، ويقول مدرسو الأدب ان الأفكار تجيء في المناظر الجميلة ، في الرياض حيث تزقزق العصافير وتهدر السواقي ، والمرء مستريح نشيط ، أما أنا فلا تجيئني الأفكار الا في الفراش وأنا محطم من النعاس ، فأنا أشعل النور كل ليلة واطفئه عشرين مرة ، لذلك يهرب مني

الأهل فلا يستطيع أن ينام أحد في الغرفة التي أنام فيها .

أما الناس فقد هربت منهم ، أو هربوا مني ، فأنا من سنين منفرد معتزل لا أكاد أزور أحدا ولا يزورني الناس الا قليلا . وان زارني صديق على شدة الشوق اليه والرغبة فيه لم أستطع أن أستقبله ، وهل يستقبل الطالب أحدا ليلة الامتحان ؟ ان عليَّ في كل ليلة اعداد مقالة يمتحن بها القراء أو السامعون أدبي ، ليروا هل أنا حيث كنت أم قد أدركني الونى والكلام فسقطت في المعركة .

فكيف أجلس مع الضيف أساقطه لغو الحديث ، وهو فارغ الفكر جاء يتسلى ويدفع الساعات التي لا يجد له فيها عملا وأنا قاعد على مثل الجمر ، أفكر في المطبعة التي تنتظرني فاتحة فاها كجهنم تنتظر المقالة .

لقد صيرتني هذه المقالات وهذه الأحاديث غريباً وأنا في بلدي ، وحرمتني حديث المجالس ، ولقاء الاخوان ، لقد طار النوم من عيني الآن ، فقمت الى المكتبة ...

وسألتني ربة الدار والنوم يغالبها : هل من شيء ؟ فلم أجب ، انها ستسمع الجواب في هذا الحديث .

وهذه أيضاً من مصائب الأدب ، للناس أسرار ، بينهم وبين أهليهم ، وأسرار يطوون عليها جوانحهم والأديب المسكين ليس له سرّ ، عليه أن يشرك القراء معه في أسراره كلها ، حتى في أخباره في بيته ، حتى في أدق مشاعره ، وأعمق عواطفه ، عليه أن يصفها للناس ويحدثهم بها ، فخفايا الأديب معلنة ، وأسرار الأديب مذاعة ، فيا بؤس الأدباء !

هذه حالي يا أيها السامعون ، وهذه هي الليلة الرابعة التي لا أنام فيها .

هذه حالي وأنا في هذا البلاء من احدى وثلاثين سنة ، نعم يا سادتي من احدى وثلاثين سنة وأنا أفكر للقراء ، وأحس للقراء ، وأعيش

للقراء ، همي أن أصف كل يوم كلاما أقدمه لهم ، انتزعه من روحي ومن نفسي ليكون متاعا لهم يتسلون به في أوقات الفراغ ، أما السامعون فان لي معهم سبع عشرة سنة ما انقطعت فيها عن حديثهم الا فترات •

سبع عشرة سنة وأنا أحدثكم ، أفما تنفد الموضوعات ، أما أملّ أو تملون مني ؟ دعوني أسترح قليلا وتستريحوا مني !

أقسم لكم بالله أني حين أجد في برامج الاذاعة ، ما يمنع من حديثي ، حفلة أو مباراة أو شبهها أفرح كما يفرح التلميذ الذي يجد المدرسة مغلقة لأن اليوم عيد ، لقد لبثت ثلث قرن وأنا أكتب ، أكتب دائما ، حتى زاد ما طبع من كتاباتي على خمسة عشر ألف صفحة لم أعدّ منها الخطب التي خطبتها ولم أكتبها فضاعت وهي تزيد على ألف خطبة ، وأنا أحسّ مع ذلك بأن عندي شيئا لم أقله ، ولا أجد الوقت الكافي لأقوله ، هو العمل الأدبي الخالد الذي أهم به وتشغلني عنه هذه الأحاديث وهذه المقالات •

ان لكل امرىء طاقة وأنا لم أعد أحتمل ، فاذا رأيتموني قد انقطعت فجأة عن هذا الحديث ، وعن الكتابة في الصحف والمجلات فلا تعجبوا لأني أكون قد قررت الهرب •

اني اطلب اجازة ، فهبوني موظفا أو عاملا أفليس من حق الموظف أو العامل أن يجاز أياما ليستريح •

لقد كنت أكتب والشباب موات ، والحماسة تملأ النفس ، والرغبة في الشهرة والمجد الأدبي تحفز الى العمل ، أكتب وأعرض المقالة على الناشر ، لا أطلب منه مالا ولا أجرا الا نشرها ، فان رأيتها منشورة ، ملأ الزهو والفرح قلبي ، فوجدت المكافأة حاضرة ، فأقبل عليّ الآن الناشر يطلب مني ، وعرض الأجر الكبير ، والمال الوفير ، ولكني فقدت الحماسة ، وماتت في نفسي الرغبة في الشهرة حين نلتها فوجدتها سرابا •

سراب والله ، هل تعرفون السراب ، ان سالك الصحراء يراه من بعيد كنبع الماء الصافي ، فاذا جاءه لم يجد شيئاً .

هذه هي الشهرة ، وأنا أكتب عنها عن خبرة ، لقد صار يعرف اسمي ملايين، وترجم كثيرمما كتبت الى الفارسية والاوردية وترجم شيء منه الى الانكليزية ، وتجيئني كتب من القراء والسامعين من أندونيسيا في أقصى المشرق ومن مراكش في المغرب .

فماذا في هذا كله ؟ ما ينفعني وماذا يصير في يدي منه ؟ ما ينفعني وأنا منفرد في داري أن يمدحني ملايين من الناس ، ويقولوا أني أديب العرب ، وما يضرني أن يقولوا أني أكبر دعي وأجهل جاهل ، أو أن لا يمر على ألسنتهم اسمي ولا يعرفوني ؟

وما المجد الأدبي !

هو أن ترد عليك كتب المعجبين ، وأن تقام لك حفلات التكريم ، وأن تكتب عنك الصحف ؟ لقد رأيت هذا كله من أكثر من عشرين سنة، فصدقوني حين أقول لكم انه سراب .

ان الحقيقة الوحيدة من ثمار الأدب ، هي أجور المقالات وما نرجو من ثواب الله ، ولقد أخذت على مقالاتي أكبر أجر أخـذه كاتب عربي ، قبضت غير مرة ثلاثمئة ليرة على المقالة الواحدة ، وقبضت الف ليرة على المحاضرة الواحدة . والمال حقيقة ليس سرابا ولكن ماذا أصنع بهذا المال؟

ان راتبي يكفيني ، وقد كنت أتمنى أن يكون لي بيت ، فصار لي بحمد الله بيت ، وأنا لا أدخر مالا ولا أريد أن اكون من كبـار المثرين فلماذا الحرص على المال ؟

وهل يعدل المال الذي آخذه ، الراحة التي أفقدها والنـوم الذي أشتهيه فلا أجده ؟

أما ثواب الله ، فأرجو أن يكون لي من الاخلاص ما أستحقه بـه

أولا وأرجو ثانيا أن لا يحرمني الله الثواب ، ان استرحت حينا لأجمّ النفس وأجدد العمل .

لا ان ثواب الله هو الحقيقة الواحدة الباقية وماعداه متاع الغرور ، خدع نخدع بها أنفسنا وأوهام . قبض الريح . اقبض على الريح تجد يدك فارغة لا شيء فيها ، وكذلك الدنيا ، ما الذي نحمله معنا ان ذهبنا الا العمل الصالح ؟ كله سراب الا ما تقدمه بين يديك لآخرتك .

وبعد فانكم يا سادتي تسمعون حديث المحدث ، أو تقرؤون مقالة الكاتب فلا تتصورون ماذا انفق في ذلك من جهد وما حمل من تعب حتى وصل ذلك اليكم ؟

انه كرغيف من الخبز ، تأكلونه بلا فكر فيه أو بحث عن حاله ، ولو فكرتم لعلمتم ماذا عملت فيه من يد ، وما صب فيه من جهد من يوم حرث الارض الزارع ، الى أن عجن العاجن وخبز الخباز .

بل ان عمل الأديب في المقالة أشق ، وبلاء الأديب بالأدب أكبر ، فسامحوني اذا نفست اليوم عن نفسي بهذا الحديث ، فانها شكوى . ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع .

* * *

اني أشعر أني ألقيت بهذه الشكوى هملا عن عاتقي . وأنا قائم الآن لأصلي الصبح وأحاول المنام . فسامحوني ان أتعبتكم بالحديث عن نفسي وتصبحون على خير .



بعد الخمسين

نشرت سنة ١٩٥٩

نظرت في التقويم ، فوجدت أني أستكمل اليوم (٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٩ هـ) اثنتين وخمسين سنة قمرية ، فوقفت ساعة أنظر فيها في يومي وأمسي . أنظر من أمام لأرى ما هي نهاية المطاف ، وأنظر من وراء لأرى ماذا أفدت من هذا المسير .

وقفت كما يقف التاجر في آخر السنة ، ليجرد دفاتره ، ويحرر حسابه ، وينظر ماذا ربح وماذا خسر .

وقفت كما تقف القافلة التي جُنَّ أهلوها ، وأخذهم السُّعار ، فانطلقوا يركضون لا يعرفون من أين جاؤوا ولا الى أين يذهبون ، ولا يهدؤون الا اذا هدهم التعب فسقطوا نائمين كالقتلى .

وكذلك نحن اذ نعدو على طريق الحياة ، نستبق كالمجانين ولكن لا ندري علام تتسابق ، نعمل أبداً من اللحظة التي نفتح فيها عيوننا في الصباح ، الى أن يغلقها النعاس في المساء ، نعمل كل شيء الا أن نفكر في أنفسنا ، أو ننظر من أين جئنا ، والى أين المصير . وجردت دفاتري ، أرى ماذا طلبت ، وماذا أعطيت .

* * *

طلبت المجد الأدبي ، وسعيت له سعيه ، وأذهبت في المطالعة حدّة بصري ، وملأت بها ساعات عمري . وصرمت الليالي الطوال أقرأ وأطالع ، حتي لقد قرأت وأنا طالب كتباً ، من أدباء اليوم من لم يفتحها مرة لينظر

فيها . وما كان لي أستاذ يبصرني طريقي ، ويأخذ بيدي ، وما كان من أساتذتي مَنْ هو صاحب أسلوب في الكتابة يأخذني باتباع أسلوبه ، ولا كان فيهم منْ له قدم في الخطابة ، وطريقة في الالقاء ، يسلكني مسلكه ويذهب بي مذهبه[1] . وما يسميه القراء أسلوبي في الكتابة ويدعوه المستمعون طريقتي في الالقاء ، شيء مَنّ الله به عليّ ، لا أعرفه لنفسي، لا أعرف الا أني أكتب حين أكتب ، وأتكلم حين أتكلم ، منطلقاً على سجيتي وطبعي ، لا أتعمد في الكتابة اثبات كلمة دون كلمة ، ولا سلوك طريق دون طريق ، ولا أتكلف في الالقاء رنّة في صوتي ولا تصنعاً في مخارج حروفي ...

... وكنت أرجو أن أكون خطيباً يهز المنابر ، وكاتباً تمشي بآثاره البرد ، وكنت أحسب ذلك غاية المنى وأقصى المطالب . فلما نلته زهدت فيه ، وذهبت مني حلاوته ، ولم أعد أجد فيه ما يشتهى ويتمنى .

وما المجد الأدبي ؟ أهو أن يذكرك الناس في كل مكان ، وأن يتسابقوا الى قراءة ما تكتب ، وسماع ما تذيع ، وتتوارد عليك كتب الاعجاب ، وتقام لك حفلات التكريم ؟ لقد رأيت ذلك كله ، فهل تحبون أن أقول لكم ماذا رأيت فيه ؟ رأيت سراباً . سراب خادع ، قبض الريح!.

وما أقول هذا مقالة أديب يبتغي الاغراب ، ويستثير الاعجاب ، لا والله العظيم — أحلف لكم لتصدقوا — ما أقول الا ما أشعر به ، وأنا من ثلاثين سنة أعلو هذه المنابر ، وأحتل صدور المجلات والصحف ، وأنا أكلم الناس في الاذاعة كل أسبوع مرة ، من سبع عشرة سنة الى اليوم ، ولطالما خطبت في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وأندونيسيا خطباً زلزلت القلوب ، وكتبت مقالات كانت أحاديث الناس ، ولطالما مرت أيام كان اسمي فيها على كل لسان في بلدي ، وفي كل بلد عشت فيه أو وصلت اليه مقالاتي ، وسمعت تصفيق الاعجاب ، وتلقيت خطب

---

(1) الا الشيخ عبد الرحمن سلام .

الثناء في حفلات التكريم ، وقرأت في الكلام عني مقالات ورسائل ، ودرس أدبي ناقدون كبار ، ودرّس ماقالوا في المدارس، وترجم كثير مما كتبت الى أوسع لغتين انتشارا في الدنيا : الانكليزية والأردية ، والى الفارسية والفرنسية ... فما الذي بقي في يدي من ذلك كله ؟ لاشيء . وان لم يكتب لي الله على بعض هذا ، بعض الثواب ، أكن قد خرجت صفر اليدين .

اني من سنين معتزل متفرد ، تمر عليّ أسابيع وأسابيع لا أزور فيها ولا أزار ، ولا أكاد أحدث أحداً الا حديث العمل في المحكمة ، أو حديث الأسرة في البيت ، فماذا ينفعني وأنا في عزلتي ان كان في مراكش والهند وما بينهما منْ يتحدث عني ويمدحني ، وماذا يضرني ان كان فيها من يذمني ، أو لم يكن فيها كلها مَنْ سمع باسمي ؟

ولقد قرأت في المدح لي ما رفعني الى مرتبة الخالدين ، ومن القدح فيّ ما هبط بي الى دركة الشياطين ، وكرمت تكريماً لا أستحقه وأهملت حتى لقد دعي الى المؤتمرات الأدبية والى المجالس الأدبية الرسمية المبتدئون وما دعيت منها الى شيء ، فألفت الحالين ، وتعودت الأمرين، وصرت لا يزدهيني ثناء ولا يهز السب شعرة واحدة في بدني .

أسقطت المجد الأدبي من الحساب ، لما رأيت أنه وهم وسراب .

* * *

وطلبت المناصب ثم نظرت فاذا المناصب تكليف لا تشريف ، واذا هي مشقة وتعب ، لا لذّة وطرب ، واذا الموظف أسير مقيّد بقيود الذهب . واذا الجزع من عقوبة التقصير أكبر من الفرح بحلاوة السلطان . واذا مرارة العزل أو الاعفاء من الولاية ، أكبر من حلاوة التولية . ورأيت أني مع ذلك كله قد اشتهيت في عمري وظيفة واحدة . سعيت لها وتحرقت

شوقاً اليها • هي أن أكون معلماً في المدرسة الأولية في قرية حرستا [1] وكان ذلك من أكثر من ثلاثين سنة • فلم أنلها فما اشتهيت بعدها غيرها•

وطلبت المال وحرصت على الغنى ، ثم نظرت فوجدت في النـاس أغنياء وهم أشقياء ، وفقراء وهم سعداء •

ووجدتني قد توفي أبي وأنا لا أزال في الثانوية ، وترك أسرة كبيرة ، وديوناً كثيرة ، فوفّى الله الدين ، وربى الولد ، وما أحوج الى أحد • وجعل حياتنا وسطاً ما شكونا يوماً عوزاً ، ولا عجزنا عن الوصول الى شيء نحتاج اليه ، وما وجدنا يوماً تحت أيدينـا مالا مكنوزاً لا ندري ماذا نصنع به • فكان رزقنا والحمد لله كرزق الطير : تغـدو خماصـاً وترجع بطاناً •

فلم أعد أطلب من المـال الا ما يقوم به العيش ، ويقي الوجه ذل الحـاجة •

وطلبت متعة الجسد • وصرمت ليالي الشباب أفكر فيها • وأضعت أيامه في البحث عن مكانهـا وكنت في سكرة الفتـوة الأولى ، لا أكاد أفكر الا فيها ، ولا أحن الا اليهـا ، أقرأ من القصص ما يتحدث عنها ، ومن الشعر ما يشير اليها • ثم كبرت سني وزاد عملي ، فذهبت السكرة وصحت الفكرة ، فرأيت أن صاحب الشهوة الذي يسلك اليها كل سبيل ، كالعطشان الذي يشرب من ماء البحر ، وكلما ازداد شرباً ازداد عطشاً ، ووجدت أن من لا يرويه الحلال يقنع به ويصبر عليه ، لا يرويه الحرام ولو وصل به الى نساء الأرض جميعاً •

ثم ولّى الشباب بأحلامه وأوهامه ، وفترت الرغبة ، ومات الطلب ، فاسترحت وأرحت •

* * *

(١) قرية في طرف الفوطة ، كان منها الامام محمـد صاحب الامـام الأعظم أبي حنيفة .

وقعدت أرى الناس . أسأل : عـلامَ يركضون ؟ والام يسعون ؟ وما ثم الا السراب !

هل تعرفون السراب ؟ ان الذي يسلك الصحراء يراه من بعيد كأنه عين من الماء الزلال تحدق صافيـة في عين الشمس ، فاذا كد الركاب ، وحثّ الصحاب ، ليبلغه لم يلق الا التراب .

هذه هي ملذات الحياة . انها لا تلذ الا من بعيد .

يتمنى الفقير المال ، يحسب انه اذا أعطي عشرة آلاف ليرة فقدحيزت له الدنيا ، فاذا أعطيها فصارت في يده لم يجد لها تلك اللذة التي كـان يتصورها وطمع في مائة الألف ، انه يحسّ الفقر بها وهي في يده كما يحسّ الفقر اليها يوم كانت يده خلاء منها ، ولو نال مائة الألف لطلب المليون ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لابتغى له ثانيا ولا يملأ عين ابن آدم الا التراب [1] .

والشاعر العاشق يملأ الدنيا قصائد تسيل من الرقة ، وتفيض بالشعور ، يعلن أنه لا يريد من الحبيبة الا لذّة النظر ومتعة الحديث ، فاذا بلغهما لم يجدها شيئاً وطلب ما وراءهما ، ثم أراد الزواج فاذا تمّ له لم يجد فيه ما كان يتخيل من النعيم ، ولذابت صور الخيال تحت شمس الواقع كما يذوب ثلج الشتاء تحت شمس الربيع ، ولرأى المجنون في ليلى امـرأة كالنساء ، ما خلق الله النساء من الطين وخلقها (كما كان يخيل اليه) من القشطة ، ثم لملّها وزهد فيها وذهب يجنّ بغيرها .

ويرى الموظف الصغير الوزير أو الأمير ، ينزل من سيارته فيقف له الجندي وينحني له الناس ، فيظن أنه يجد في الرياسة أو الوزارة مثل ما يتوهم هو من لذتها ومتعتها ، لحرمانه منها ، ما يدري أن الوزيـر

---

(١) حديث آخره (ويتوب الله على من تاب) .

يتعود الوزارة حتى تصير في عينه كوظيفة الكاتب الصغير في عين صاحبها أوهام . ولكننا نتعلق دائماً بهذه الأوهام .

* * *

وفكرت فيما نلت في هذه الدنيا من لذائذ وما حملت من عناء طالما صبرت النفس على اتيان الطاعة واجتناب المعصية ، رأيت الحرام الجميل فكففت النفس عنه على رغبتها فيه ، ورأيت الواجب الثقيل فحملت النفس عليه على نفورها منه ، وطالما غلبتني النفس فارتكبت المحرمات وقعدت عن الواجبات ، تألمت واستمتعت ، فما الذي بقي من هذه المتعة وهذا الألم ؟

لاشيء ، لقد ذهبت المتعة وبقي عقابها وذهب الألم وبقي ثوابه .

ولم أر أضل في نفسه ولا أغش للناس ممن يقول لك ، لا تنظر الا الى الساعة التي أنت فيها ، فان :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

لا والله ، ما فات ما مضى ، ولكن كتب لك أو عليك ، أحصاه الله ونسوه ، والآتي غيب ولكنه غيب كالمشاهد ، وما مثل هذا القائل الا كمثل راكب سفينة أشرفت على الغرق ولم يبق لها الا ساعات ، فما أسرع الى زوارق النجاة اسراع العقلاء ، ولا ابتغى طوق النجاة كما يبتغيه من فاته الزورق ، ولكنه عكف على تحسين غرفته في السفينة الغارقة يزين جدرانها بالصور ، ويكنس أرضها من الغبار ، يقول لنفسه : ما دامت السفينة غارقة على كل حال ، فلم لا أستمتع بساعتي التي أنا فيها ؟

يفسد عمره كله بصلاح هذه الساعة ، واذا عرض له العقل يسفه عمله فليضرب وجه العقل بكأس الخمر التي تعمي عينيه فلا يبصر ولا يهتدي ، وان من الخمر لخمرة المال وخمرة السلطان .

هذا مثال من يجعل هذه الدنيا الفانية أكبر همه ، ويزهد في الآخرة

الباقية ، ولو عقل لزهد في الدنيا ، لا يحمل ركوتـه وعصـاه ويسلك البراري وحيداً ، ولا يقيـم في زاويـة ويمـد يده للمحسنين ، فان هذا هو زهد الجاهلين ، وهو معصيـة في الدين . ان الزهد الحق هو زهدالصحابةوالتابعين ، الذين عملوا للدنيا ، واقتنوا الأموال،واستمتعوا بالطيبات الحلال وأظهروا نعم الله عليهم ، ولكن كانت الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم ، وكان ذكر الله أبداً في نفوسهم وعلى ألسنتهم ، وكانت الشريعة نبراسهم وامامهم ، وكانت أيديهم مبسوطة بالخير ، وكانوا لا يفرحون بالغنى حتى يبطروا ، ولايحزنون للفقرحتى ييأسوا ، بل كانوا بين غني شاكر ، وفقير صابر ، ومن يحصل المال وينفقه في الطاعة خير ممن لا يحصل ولا ينفق ، بل يسأل ويأخذ ، ومن يتعلم العلم ويعمل به خير ممن يعتزل الناس للعبادة في زاوية أو مغارة ، ومن يكون ذا سلطـان ومنصب فيقيم العدل ، ويدفع الظلم ، خير ممن لا سلطان له ولا عدل على يديه . وليست العبادة أن تصف الأقدام في المحاريب فقط ، ولكن كل معروف تسديه ان احتسبته عند الله كان لك عبـادة ، وكل مبـاح تأتيه ان نويت به وجه الله كان عبادة ، اذا نويت بالطعام التقوي على العمل الصالح ، وبمعاشرة الأهل الاستعفاف والعفاف ، وبجمع المال من حله القدرة به على الخير ، كان كل ذلك لك عبادة ، وكل نعمة تشكر عليها ، وكل مصيبة تصبر لله عليها كانت لك عبادة .

والانسان مفطور على الطمع ، تراه أبداً كتلميذ المدرسة كلما بلغ فصلا كان همه أن يصعد الى الذي فوقه ، ولكن التلميذ يسعى الـى غاية معروفة اذا بلغها وقف عندها ، والمرء في الدنيـا يسعى الى شيء لا يبلغه أبداً ، لأنه لا يسعى اليه ليقف عنده ويقنع به ، بل ليجاوزه راكضاً يريد غاية هي صورة في ذهنه مالها في الأرض من وجود .

وقد يعطى المال الوفير ، والجاه الواسع ، والصحة والأهل والولد،

ثم تجده يشكو فراغاً في النفس ، وهماً خفيـاً في القلب ، لا يعرف له سبباً ، يحس أن شيئاً ينقصه ولا يدري ما هو ، فما الذي ينقصه فهو يبتغي استكماله ؟

لقد أجاب على ذلك رجل واحد ، رجل بلغ فيهذهالدنيا أعلى مرتبة يطمح اليها رجل : مرتبة الحاكم المطلق في ربع الأرض فيما بين فرنسـا والصين ، وكان له مع هذا السلطان الصحة والعلـم والشـرف ، هو عمر بن عبد العزيز الذي قال :

« ان لي نفساً تواقة ، ما أعطيت شيئاً الا تاقت الى ما هو أكبـر ، تمنت الأمارة ، فلما أعطيتهاتاقتالى الخلافة فلما بلغتها تاقتالى الجنة! » .

هذا ما تطلبه كل نفس ، انهـا تطلب العودة الى موطنهـا الأول ، وهذا ما تحسُّ الرغبة الخفية أبدا فيه ، والحنين اليه ، والفراغ الموحش ان لم تجده .

فهل اقتربت من هذه الغاية بعد ما سرت اليها علىطريقالعمر ، اثنتين وخمسين سنة ؟.

يا أسفي ! لقد مضى أكثر العمر وما ادخرت من الصالحات ، ولقد دنا السفر وما تزودت ولا استعددت ، ولقد قرب الحصاد وما حرثت ولا زرعت ، وسمعت المواعظ ورأيت العبر ، فما اتعظت ولا اعتبرت ، وآن أوان التوبة فأجلت وسوفت .

اللهم اغفرلي ما أسررت ، وما أعلنت ، فما يغفر الذنوب الا أنت .

اللهم سترتني فيما مضى فاسترني فيـمـا بقي ، ولا تفضحني يوم الحسـاب .

ورحم الله قارئاً ، قال : آمين .

❋ ❋ ❋

الفهرس

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	١٢	اثنين	اثنتين
٤	١٣	على أنه	على أنّ
٢٠	١٠	والعين	والمعين
٢٢	٧	فلا تراها	فلا تراهما
٢٢	٨	أن يدخلها	أن يدخلهما
٢٢	٨	ليس فيها	ليس فيهما
٢٩			الغاء السطر السادس واستبداله بالسطر التالي : وفي نشيد الرياح في الأودية البعيدة ، وفي همس الاوراق في غابات ...
٣٤	٢٣	لمس رائحة	لمس رائحته
٣٨	٤	تتمتعون	تنعمون
٤٠	١٧	من ثلاث	في ثلاث
٥١	٩	أربع	اربع
٦٣	١٩	شافية	شامية
٧٦	١١	يجد	لم يجد
٧٨	٧	وانالنلومهويلام ويلام	
٨٦	٩	زاهداً	زهداً
٩١	١	غنياً	غبياً
١٣٩	١٩	ومربي الدور	ومرّ بي الدَّوْر
١٥٠	٥	ويجعل	وجعل
١٥٨	٣	مدرسة	مدرسته
١٧٦	٢١	أو	أم
١٩٢	٢٠	أصيلة	أصلية
٢١٠	٩	سمح	سمج
٢١١	١٥	يجاوز	تجاوز
٢١٢	١٥	صار	صهر
٢١٥	١٥		سعيدالافغاني والسيد
٢١٧	١٤	لي	له
٢١٧	٢٠	التاريخ	للتاريخ
٢٢٠	٢٥	مدلول	مدلولاً

* * *

معذرة واستدراك :

لقد ورد مقال « في معهد الحقوق » سهواً مع مقالات هذا الكتاب مع انه قد جاء في كتاب « قصص من الحياة » للمؤلف ، ولهذا اقتضى التنويه .

من آثار المؤلف

آ ـ الكتب التي نفدت

١ ـ في بلاد العرب	١٩٣٩م	٦ ـ الهيثميات	١٣٤٩هـ
٢ ـ من التاريخ الاسلامي	١٩٣٩م	٧ ـ عمر بن الخطاب (جزءان)	١٣٥٢هـ
٣ ـ رسائل الاصلاح	١٣٤٨هـ	٨ ـ في التحليل الأدبي	١٣٥٣هـ
٤ ـ بشار بن برد	١٣٤٨هـ	٩ ـ كتاب المحفوظات	١٣٥٥هـ
٥ ـ رسائل سيف الاسلام	١٣٤٩هـ		

ب ـ الكتب التي صدرت حديثاً

١ ـ أبو بكر الصديق (طبعة ثانية)	١٣٧٢هـ	٧ ـ دمشق	١٩٥٩م
٢ ـ قصص من التاريخ	١٩٥٧ م	٨ ـ مقالات في كلمات	١٩٥٩م
٢ ـ قصص من التاريخ	١٩٥٧م	٩ ـ سلسلة حكايات من التاريخ	١٩٥٩م
٤ ـ صور وخواطر	١٩٥٨م	١٠ ـ أخبار عمر	١٩٦٠م
٥ ـ قصص من الحياة	١٩٥٩م	١١ ـ من حديث النفس	١٩٦٠م
٦ ـ في سبيل الاصلاح	١٩٥٩م		

جـ ـ تحت الطبع

١ ـ هتاف المجد	٤ ـ نفحات من الحرم
٢ ـ صور من الشرق	٥ ـ الجامع الأموي
٣ ـ مباحث اسلامية	

١٣٧٩/٨/١

١٩٦٠/١/٣٠

* * *

